ولما وصل عبد المؤمن إلى أخيه عبد الحليم بتازى مفلولاً انقض معسكره ونزعوا عنه إلى فاس، وذهب لوجهه هو وإخوته مع وزيرهم السبيع ومن كان معهم من العرب المعقل، فلحقوا بسجلماسة.

وكان أهلها قد دخلوا في بيعتهم ودانوا بطاعتهم واستقروا بها، وجددوا رسم الملك والسلطان إلى أن كان من خروجهم عنها ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن قدوم عامر بن محمد ومسعود بن ماساي من مراكش وما كان من وزارة ابن ماساي واستبداد عامر بن محمد بمراكش

كان السلطان أبو سالم لما استقل بملك المغرب، استعمل على جباية المصامدة وولاية مراكش محمد بن أبي العلاء بن أبي طلحة من أبناء العمال، وكان مضطلعاً بها، ونافس الكثير من ذوي عامر فأحفظه ذلك وربما تكررت سعايته في عامر عند السلطان ولم يقبل.

ولما بلغ عامر خبر مهلك السلطان أبي سالم وقيام عمر بالأمر، وكانت بينهما خلة بيت محمد بن أبي العلاء فتقبض عليه وامتحنه وقتله، واستقل بأمر مراكش وبعث إليه الوزير عمر بأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم يعتده لما توقع من حصار بني مرين إياه أن يجلب به عامر عليهم ويستنقذه كما ذكرناه.

ثم سرح مسعود بن ماساي كما ذكرناه، ولما أحاط بنو مرين بالبلد الجديد جمع عامر من إليه من الجند والحشود وزحف بأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم إلى أنفى، ونزل بوادي أم ربيع، ولما انفض جمعهم من على البلد الجديد، لحق به يحيى بن رحو، وكان له صديقاً ملاطفاً، فتنكر له توفية لعمر بن عبد الله وصاحبه مسعود، وبعثه إلى الجبل ولم يشهده الجمع، فذهب مغاضباً، ولحق بسجلماسة بالسلطان عبد الحليم وهلك في بعض حروبه مع العرب.

ولما انفض عبد المؤمن وأجفل عبد الحليم من تازى ولحقوا بسجلماسة، واستوسق الأمر لعمر بن عبد الله وفرغ من شأن المنازعين ومضايقتهم له، رجع إلى ما كان يؤمله من الاستظهار على أمره بمسعود بن رحو وإخوته وأقاربه لمكان الصهر الذي بينهما، فاستقدمه للوزارة مرضاة لبني مرين لما كانوا عليه من استمالتهم لجميع المذاهب والإغضاء عما نالوه به من النكاية.

وكان عامر بن محمد مجمعاً القدوم على السلطان فقدم في صحابته ونزل من الدولة بخير منزل، وعقد السلطان لمسعود بن رحو على وزارته بإشارة الوزير عمر واضطلع بها، ودفعه عمر إليها استنامة إليه وثقة بمكانه واستظهارا بعصابته.

وعقد مع عامر بن محمد الحلف على مقاسمة المغرب من تخم وادي أم ربيع وجعل إمارة مراكش لأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم إسعافاً بغرض عامر بن محمد في ذلك وأصهر عامر إليهم في بنت مولانا السلطان أبي يحيى المتوفى عنها السلطان أبو الحسن، فحملوا أولياءها على العقد له عليها وانكفأ راجعاً إلى مكان عمله بمراكش بحر الدنيا وراءه عزا وثروة وتابعاً لجمادى من سنة ثلاث وستين وسبعمائة وصرف عمر عزيمته إلى تشريد عبد الحليم واخيه من سجلماسة، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن زحف الوزير عمر بن عبد الله إلى سجلماسة

لما احتل عبد الحليم وإخوته بسجلماسة، اجتمع إليهم عرب المعقل بكافة حللهم.

واقتضوا خراج البلاد فوزعوه فيهم، واقتضوا على الطاعة رهنهم.

وأقطعهم جهات المختص بأسرها واعصوصبوا عليه.

واستحثه يحيى بن رحو ومن هنالك من مشيخة بني مرين إلى النهوض للمغرب، فأجمع أمره على ذلك.

وتدبر الوزير عمر أمره وخشي أن يضطرم جمره، فأجمع الحركة إليه، ونادى في الناس بالعطاء والصلة فاجتمعوا إليه وبث العطاء فيهم.

واعترض العساكر وأزاح العلل وارتحل من ظاهر فاس في شعبان من سنة ثلاث وستين وسبعمائة وارتحل معه ظهيره مسعود بن ماساي وبرز السلطان عبد الحليم إلى لقائهم.

ولما تراءت الفئتان بتاعزمطت عند فرج الجبل المفضي من تلول المغرب إلى الصحراء، هموا باللقاء.

ثم توافقوا أياماً وتمشت بينهم رجالات العرب في الصلح والتجافي لعبد الحليم عن سجلماسة تراث أبيه، فانعقد مسعود ما بينهما وافترقا، ورجع كل واحد منهما إلى عمله ومكانه من سلطانه.

ودخل عمر والوزير مسعود إلى البلد الجديد في رمضان من سنته، وتلقاهما سلطانهما بأنواع المبرة والكرامة.

ونزع الوزير محمد السبيع عن السلطان عبد الحليم إلى الوزير عمر وسلطانه فتقبل وحل محل الكرامة والردافة للوزارة واستقر كل بمكانه، وتودعوا أمرهم إلى أن كان من خلع عبد المؤمن لأخيه عبد الحليم، ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن بيعة العرب لعبد المؤمن وخروج عبد الحليم إلى المشرق

لما رجع عبد الحليم بعد عقد السلم مع الوزير عمر إلى سجلماسة واستقر بها وكان عرب المعقل من ذوي منصور فريقين: الأحلاف وأولاد حسين.

وكانت سجلماسة وطناً للأحلاف وفي مجالاتهم مذ أول أمرهم ودخولهم المغرب.

وكان من أولاد حسين في ممالأة الوزير عمر ما قدمناه، فكانت صاغية السلطان عبد الحليم إلى الأحلاف بسبب ذلك أكثر، فأسف ذلك أولاد حسين على الأحلاف وتجددت بينهما لذلك فتنة وتزاحفاً.

وأخرج السلطان عبد الحليم أخاه عبد المؤمن لرقع ما بينهما من الخرق ولأمته، فلما قدم على أولاد حسين دعوه إلى البيعة والقيام بأمره فأبى وأكرهوه عليها وبايعوه.

وزحفوا إلى سجلماسة في صفر من سنة أربع وستين وستمائة وبرز عبد الحليم إليهم في أوليائه من الأحلاف وتواقفوا ملياً وعقلوا رواحلهم ثم انكشف الأحلاف وانهزموا.

وهلك يحيى بن رحو كبير المشيخة من بني مرين يومئذ في حربهم.

وتغلبوا على سجلماسة، ودخل إليها عبد المؤمن وتخلى له أخوه عبد الحليم عن الأمر وخرج إلى المشرق لقضاء فرضه، فودعه وزوده بما أراد وارتحل إلى الحج وقطع المفازة إلى بلد مالي من السودان.

وصحب منها ركاب الحاج إلى مصر، ونزل على أميرها المتغلب على سلطانها يومئذ، وهو يلبغا الخاصكي وأنهى خبره إليه وعرف بمقامه، فاستبلغ في تكريمه بما يناسب بيته وسلطانه.

وقضى حجه وانصرف إلى المغرب، فهلك بقرب الإسكندرية سنة ست وستين وسبعمائة واستقل عبد المؤمن بأمر سجلماسة حتى كان من نهوض العساكر إليه ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نهوض ابن ماساي بالعساكر إلى سجلماسة واستيلائه عليها ولحاق عبد المؤمن بمراكش

لما افترقت كلمة أولاد السلطان أبي علي وخلع عبد المؤمن أخاه تطاول الوزير عمر إلى التغلب عليهم.

ونزع إليه الأحلاف عدو أولاد حسين وشيعة عبد الحليم المخلوع، فجهز العساكر وبث العطاء وأزاح العلل، وسرح ظهيره مسعود بن ماساي إلى سجلماسة، فنهض إليها في ربيع من سنة أربع وسبعمائة.

وتلقاه الأحلاف بحللهم وناجعتهم، وأغذ السير ونزع الكثير من أولاد حسين إلى الوزير مسعود.

وبعث عامر بن محمد عن عبد المؤمن فرحل عن سجلماسة، فتركها ولحق بعامر فتقبض عليه واعتقله بداره من جبل هنتاتة.

ودخل الوزير مسعود إلى سجلماسة واستولى عليها.

واقتلع منها جرثومة الشقاق باختلاع دعوة أولاد أبي علي منها.

وكرّ راجعاً إلى المغرب لشهرين من حركته، فاحتل بفاس إلى أن كان من خبره وانتقاضه على عمر وفساد ما بينهما ما نذكره.

الخبر عن انتقاض عامر ثم انتقاض الوزير ابن ماساي على أثره

لما استقل عامر بالناحية الغربية من جبال المصامدة ومراكش وما إلى ذلك من الأعمال واستبد بها، ونصب لأمره أبا الفضل ابن السلطان أبي سالم واستوزر له واستكتب، وصارت كأنها دولة مستقلة، فصرف إليه النازعون من بني مرين على الدولة وجوه مفرهم ولجأوا إليه، فأجارهم عن الدولة واجتمع إليه منهم ملأ.

وأشاروا عليه باستقدام عبد المؤمن وأنه أبلغ ترشيحاً من

أبي الفضل بنسبه وقيامه على أمره وصاغية بني مرين إليه، فاستدعاه وأظهر لعمر أنه يروم بذلك مصلحته والمكر لعبد المؤمن.

ونمي ذلك كله إلى عمر فارتاب به ونزع إليه آخر من نزع السبيع بن موسى بن إبراهيم الوزير.

كان لعبد الحليم فكشف عمر القناع في مطالبته وتجهيز العساكر إليه.

واستراب بأهل ولايته، وعثر على كتاب من الوزير مسعود بن ماساي إليه يخالصه ويبذل له النصيحة، فتقبض على حامله وأودعه السجن، فتنكر مسعود وأغراه صحابته الملابسون له من بني مرين بالخروج ومنازعة عمر في الأمر، ووعدوه النصر منه، فاضطرب معسكره بالزيتون من خارج فاس موريا بالنزعة إبان الربيع، وزخرف الأرض في شهر رجب من سنة خمس وسبعمائة.

وبنى أصحابه الفساطيط في معسكره حتى إذا استوفوا جمعهم واعتزم على الخروج، ارتحل مجاهراً بالخلاف، وعسكر بوادي النجا من كان يعده الخروج معه من بني مرين.

ثم ارتحل إلى مكناسة، وكتب إلى عبد الرحمن بن علي بن أبي يفلوسن، يستقدمه للبيعة، وكان بجهات تادلا قد خرج بها بعد انصرافهم من سجلماسة، وتخلفه عن أخيه عبد المؤمن.

وبعث عامر إليه بعثاً فهزموه ثم لحق ببني ونكاسن، فبعث إليه ابن ماساي وأصحابه، فقدم عليهم وبايعوه.

وأخرج عمر سلطانه محمد بن أبي عبد الرحمن وعسكر بكدية العرائس، وبث العطاء وأزاح العلل.

ثم ارتحل إلى وادي النجا، فبيته مسعود وقومه فثبت هو ومعسكره في مراكزهم حتى انجاب الظلام وفروا أمامهم، فاتبعوا آثارهم وانفض جمعهم وبدا لهم ما لم يحتسبوه من أصفاق الناس على السلطان ووزيره عمر واعتصامهم بطاعته، فانذعروا.

ولحق مسعود بن ماساي بن رحو بتادلا، ولحق الأمير عبد الرحمن ببلاد بنى ونكاسن، ورجع عمر والسلطان إلى مكانهم من الحضرة.

واستمال مشيخة بني مرين فرجعوا إليه وعفا لهم عنها واستصلحهم.

وتمسك أبو بكر بن حمامة بدعوة عبد الرحمن بن أبي يفلوسن وأقامها في نواحيه، وبايعه عليها موسى بن سيد الناس من بني علي أهل جبل دبدو من بني ونكاسن بما كان صهراً له.

وخالفه قومه إلى الوزير عمر وأغراه بالنهوض إلى أبي بكر بن حمامة، فنهض وغلبه على بلاده.

واقتحم حصنه إيكلوان وفر هو وصهره موسى وفارقوا سلطانهم عبد الرحمن ونبذوا إليه عهده.

ورجعوا إلى طاعة صاحب فاس، فلحق هو بتلمسان ونزل على السلطان أبي حمو فاستبلغ في تكريمه ولحق وزيره مسعود بن ماساي بدبدة ونزل على أميره محمد بن زكدان صاحب ذلك الثغر.

ثم بدا له في أمره وداخل صاحب الثغر وبعث عن الأمير عبد الرحمن من تلمسان ليطارد به لفرصة ظنها في المغرب ينتهزها وأبى عليه أبو حمو من ذلك، فركب مطية الفرار ولحق بابن ماساي وأصحابه، فنصبوه للأمر وأجلبوا على تازى.

ونهض الوزير إليهم في العساكر واحتل بتازى وتعرضوا للقائه، ففض جموعهم وردهم عل أعقابهم إلى جبل دبدو وسعى بينهم ونزمار بن عريف ولي الدولة في قبض عنانهم عن المنازعة والتجافي عن طلب الأمر، وأن يتحيزوا إلى الأندلس للجهاد فأجاز عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ووزيره ابن ماساي من غساسة فاتح سبع وستين وسبعمائة وخلا الجو من أجلابهم وعنادهم ورجع الوزير إلى فاس واحتشد إلى مراكش كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نهوض الوزير عمر وسلطانه إلى مراكش

لما فرغ عمر من شأن مسعود وعبد الرحمن بن أبي يفلوسن صرف نظره إلى ناحية مراكش وانتزاء عامر بن محمد بها.

وأجمع أمره على الحركة إليه فأفاض العطاء ونادى بالسفر إلى حرب عامر وأزاح العلل، وارتحل إليه لرجب من سنة سبع وسبعمائة وصعد عامر وسلطانه أبو الفضل إلى الجبل.

فاعتصم به وأطلق عبد المؤمن من معقله، ونصب له الآلة وأجلسه عل سرير حذاء سرير أبي الفضل يوهم أنه بايع له، وأنه قد حكم أمره، يجاجيء بذلك لبنى مرين لما علم من صاغيتهم إليه.

وخشي عمر مغبة ذلك، فألان له في القول ولاطفه في الخطاب، وسعى بينهما في الصلح حسون بن علي العبيحي فعقد له عمر من ذلك ما ابتغاه، وانقلب إلى فاس.

ورجع عامر عبد المؤمن إلى معتقله وأجرى الأحوال على ما كانت من قبل إلى أن بلغهم قتل الوزير عمر لسلطانه، كما

نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك السلطان محمد بن أبي عبد الرحمن وبيعة عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن

كان شأن هذا الوزير عمر في الاستبداد على سلطانه هذا عجباً حتى بلغ مبلغ الحجر للسنهاء من الصبيان.

وكان جعل عليه العيون والرقباء حتى من حرمه وأهل قصره.

وكان السلطان كثيراً ما يتنفس الصعداء من ذلك مع ندمائه ومن يختصه بذلك من حرمه إلى أن حدث نفسه باغتيال الوزير، وأمر بذلك طائفة من العبيد كانوا يختصون به، فنمي القول، وأرسل به إلى الوزير بعض الحرم كانوا عيناً له عليه، فخشي على نفسه، وكان من الاستبداد والدولة أن الحجاب مرفوع له عن خلوات السلطان وحرمه، ومكاشفة رتبه، فخلص إليه في حشمه وهو معاقر لندمائه، فطردهم عنه وتناوله غطّاً حتى فاض وألقوه في بئر بروض الغزلان.

واستدعى الخاصة فأراهم مكانه وأنه سقط عن دابته وهو ثمل في تلك البئر، وذلك في المحرم فاتح ثمان وستين وسبعمائة لست سنين من خلافته.

واستدعى من حينئذ عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن وكان في بعض الدور من القصبة بفاس تحت الرقباء والحراسة من الوزير لما كان السلطان محمد يروم الفتك به غيرة منه على الملك، لمكان ترشيحه، فحضر بالقصر وجلس على سرير الملك.

وفتحت الأبواب لبني مرين والخاصة والعامة فازدحموا على تقبيل يده معطين الصفقة بطاعته.

وكمل أمره وبادر الوزير من حينه إلى تجهيز العساكر إلى مراكش ونادى بالعطاء وفتح الديوان وكمل الاعتراض وارتحل بسلطانه من فاس في شهر شعبان، وأغذ السير إلى مراكش ونازل عامر بن محمد بمعقله من جبل هنتاتة ومعه الأمير أبو الفضل ابن السلطان أبي سالم وعبد المؤمن ابن السلطان أبي علي، أطلقه من الاعتقال أيضاً وأجلسه موازي ابن عمه، واتخذ له الآلة يموه به في شأنه الأول، ثم سعى بينه وبين عمر في الصلح، فانعقد بينهما وانكفأ راجعاً بسلطانه إلى فاس في شهر شوال، فكان حتفه إثر ذلك، كما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم.

الخبر عن مقتل الوزير عمر بن عبد الله واستبداد السلطان عبد العزيز بأمره

كان عمر قد عظم استبداده على السلطان عبد العزيز فحجره ومنعه من التصرف في شيء من أمره، ومنع الناس من التعرض له في شيء من أمورهم.

وكانت أمه حذرة عليه إشفاقا وحباً.

وكان عمر لما ملك أمره واستبد عليه، سما إلى الإصهار إليهم في بنت السلطان أبي عنان، واشترط لها - زعموا - تولية أخيه الأمير ونمي ذلك إلى السلطان، وأن عمر مغتاله لا محالة.

وقارن ذلك أن عمر أوعز إلى السلطان بالتحول عن قصره إلى القصبة، فركب أسنة الغدر لاضطراره واعتزم على الفتك به، وأكمن بزوايا داره جماعة من الرجال وأعدهم بالتوثب به.

ثم استدعاه إلى بيته للمؤامرة معه على سنته، فدخل معه وأغلق الموالي من الخصيان باب القصر من ورائه، ثم أغلظ له السلطان بالقول وعتبه.

ودلف الرجال إليه من زوايا الدار فتناولوه بالسيوف هبراً.

وصرخ ببطانته بحيث أسمعهم فحملوا على الباب وكسروا أغلاقه فألفوه مضرجاً بدمائه، فولوا الأدبار وانفضوا من القصر واندعروا وخرج السلطان إلى مجلسه فاقتعد أريكته واستدعى خاصته.

وعقد لعمر بن مسعود بن منديل بن حمامة من بني مرين وشعيب بن ميمون بن ودرار من الجشم ويحيى بن ميمون المصمود من الموالي، وكملت بيعته منتصف ذي القعدة سنة ثمان وستين وسبعمائة وتقبض على علي بن الوزير عمر وأخيه وعمه وحاشيتهم، وذويهم واعتقلهم حتى أتى القتل عليهم لليال.

واستأصل النكال شأفتهم وسكن وأمن ورد النافرين بأمانه وبسط لهم في وجه بشره ثم تقبض لأيام على سليمان بن داود ومحمد السبيع، وكانا في مخالصة عمر بمكان فاعتقلهما استرابة بهما ولشيء نمى له عنهما.

وأودعهما السجن إلى أن هلكا واعتقل معهما علال بن محمد والشريف أبا القاسم ريبة بصحابتهما.

ثم امتن عليهما بشفاعة ابن الخطيب وزير ابن الأحمر وأقصاه.

ثم أطلق عنانه في الاستبداد وقبض أيدي الخاصة والبطانة

عن التصرف في شيء من سلطانه إلا بإذنه وعن أمره، وهلك لأشهر من استبداد الوزير شعيب بن ميمون.

ثم هلك يحيى بن ميمون على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن انتزاء أبي الفضل بن المولى أبي سالم ثم نهوض السلطان إليه ومهلكه

لما فتك السلطان عبد العزيز بعمر بن عبد اللّه المتغلب عليه، سولت لأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم نفسه مثلها في عامر بن محمد، لمكان استبداده عليه، وأغراه بذلك بطانته، وتوجس لها عامر فتمارض بداره، واستأذنه في الصعود إلى معتصمه بالجبل ليمرضه هنالك حرمه وأقاربه، وارتحل بجملته، ويئس أبو الفضل من الاستمكان منه وأغراه حشمه بالراحة من عبد المؤمن.

ولليال من منصرف عامر ثمل أبو الفضل ذات ليلة، وبعث عن قائد الجند من النصارى، فأمره بقتل عبد المؤمن بمكان معتقله من قصبة مراكش فجاء برأسه إليه، وطار الخبر إلى عامر فارتاع وحمد اللّه أن خلص من غائلته.

وبعث ببيعته إلى السلطان عبد العزيز وأغراه بأبي الفضل ورغبه في ملك مراكش.

ووعده بالمظاهرة فأجمع السلطان أمره على النهوض إلى مراكش، ونادى في الناس بالعطاء، وقضى أسباب حركته وارتحل من فاس سنة تسع وستين وسبعمائة واستبد أبو الفضل بعد مهلك عبد المؤمن واستوزر طلحة السنوري وجعل علامته لمحمد بن محمد بن منديل الكناني، وجعل شوراه لمبارك بن إبراهيم بن عطية الخلطي.

ثم أشخص طلحة التينوري بسعاية الكناني، فقتله واعتمد بعساكره منازلة عامر.

ولما فصل لذلك من مراكش جاءه الخبر بحركة السلطان عبد العزيز إليه، فانفض معسكره ولحق بتادلا ليعتصم بها في معقل بني جابر.

وعاج السلطان إليها بعساكره عن مراكش إليها، فنازله وأخذ بمخنقه وقاتله، ففل عسكره وداخله بعض بني جابر في الإخلال بمصافه يوم الحرب مع مال بذله لهم، ففعلوا، وانهزمت عساكر أبي الفضل وجموعه، وتقبض على أشياعه.

وسيق مبارك بن إبراهيم إلى السلطان فاعتقله إلى أن قتله مع عامر عند مهلكه كما نذكره وفر الكناني إلى حيث لم يعلم مسقطه.

ثم لحق بعامر بن محمد ولحق أبو الفضل بقبائل صناكة من ورائهم.

وداخلهم أشياع السلطان من بني جابر وبذلوا لهم المال الدثر في إسلامه، فأسلموه وبعث السلطان إليهم وزيره يحيى بن ميمون، فجاء به أسيراً وأحضره السلطان فوبخه وقرعه واعتقله بفسطاط في جواره، ثم غط من الليل.

وكان مهلكه في رمضان من سنة تسع وستين وسبعمائة سنين من إمارته على مراكش، وبعث السلطان إلى عامر يختبر طاعته بذلك فأبى عليه وجاهر بالخلاف إلى أن كان من شأنه ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن نكبة الوزير يحيى بن ميمون بن المصمود ومقتله

كان يحيى بن ميمون هذا من رجالات دولتهم وربي في دولة السلطان أبي الحسن، وكان عمه علال عدواً له لعداوة أبيه.

ولما انتزى السلطان أبو عنان على ملك أبيه، استخلص يحيى هذا سائر أيامه، وهلك عمر يوم مهلكه كما ذكرناه.

واستعمل يحيى هذا ببجاية، فلم يزل بها إلى أن تقبض عليه الموحدون، لما استخلصوا بجاية من يده.

وسار إلى تونس واعتقل بها مدة، ثم صرفوه إلى المغرب أيام عمر، فاختص به.

ولما عقد له السلطان عبد العزيز على وزارته وكان قوي الشكيمة شديد الحزم وصعب العداوة مرهف الحد، وكان عمه علال بعد أن أطلقه السلطان من الاعتقال مكنه عن إذنه وأقامه متصرفاً بين يديه، فألقى إلى السلطان استبداد يحيى عليه وحذره من شأنه، ورفع إليه أنه يروم تحويل الدعوة لبعض القرابة من آل عبد الحق، وأنه داخل في ذلك قواد الجند من النصارى.

وأصاب الوزير وجع قعد به عن مجلس السلطان، فاختلف الناس إلى زيارته وعكف ببابه قواد النصارى، فاستراب بأمرهم وتيقن الأمر بعكوفهم، فأرسل السلطان من حشمه من تقبض عليه وأودعه السجن.

ثم جنب إلى مصرعه من الغد وقتل قعصاً بالرماح، وقتل المتهمون من القرابة وقواد الجند، واستلحموا جميعاً وصاروا مثلاً

في الآخرين، والأمر لله.

الخبر عن حركة السلطان إلى عامر بن محمد ومنازلته بجبله ثم الظفر به

لما فرغ السلطان من شأن أبي الفضل عقد على مراكش لعلي بن محمد بن أجانا من صنائع دولتهم.

وأوعز إليه بالتضييق على عامر والأخذ بمخنقه وإلجائه إلى الطاعة.

وانقلب إلى فاس، واعتزم على الحركة إلى تلمسان.

وبينما هو في الاستنفار كذلك إذ جاءه الخبر بأن علي بن أجانا نهض إلى عامر وحاصره أياماً، وأن عامراً زحف إليه.

ففض معسكره وتقبض على ابن أجانا والكثير من العسكر، فاعتقلهم، فقام السلطان في ركائبه وقعد، وأجمع أمره على النهوض إليه بكافة بني مرين وأهل المغرب، فبعث في الحشود وبث العطاء، وعسكر بظاهر البلد حتى استوفى الغرض وعقد على وزارته لأبي بكر بن الغازي بن يحيى بن الكاس، لما كان فيه من مخايل الرياسة والكفاية، ورفع محله.

وارتحل سنة سبعين وسبعمائة فاحتل بمراكش، ثم خرج إلى منازلته الجبل ونازله، وكان عامر بن محمد قد نصب بعض الأعياص من آل عبد الحق من ولد أبي ثابت بن يعقوب بن عبد ا لله اسمه تاشفين، ولحق به علي بن عمر ويغلان من شيوخ بني ورتاجن كبير بني مرين، وصاحب الشورى فيهم لعهده، فاشتد أزره به.

وتوافى به كثير من الجند النازعين عن السلطان رهبة من بأسه أو سخطة لحاله، أو رغبة فما عند عامر فرتبهم، وأمسك اللّه يده عن العطاء، فلم يسل بقطرة، وطال مثوى السلطان بساحته وعلى حصاره، وبوّأ المقاعد للمقاتلة وغاداه للقتال وراوحه.

وتغلب على حصونه شيئا فشيئاً إلى أن تغلق بأعلى جبل تامسكروط، وكان لأبي بكر بن غازي غناء مذكور، ويئس أصحاب عامر وأشياعه من عطائه.

وفسد ما بينه وبين علي بن عمر هذا، فدس إلى السلطان يطلب الأمان، وتوثق لنفسه ثم نزع إليه.

وداخله فارس بن عبد العزيز بن أخي عامر في القيام بدعوة السلطان والخلاف على عمه، لما كان يوصف به من إرهاف الحد وتفضيل ابنه أبي بكر عليه فبلغ خبره إلى السلطان واقتضى له وثيقة من الأمان والعهد بعث به إليه فثار بعمه.

واستدعى القبائل من الجبل إلى طاعة السلطان فأجابوه واستحث السلطان للزحف إليهم، فزحفت العساكر، الجنود واستولت على معتصم الجبل.

ولما استيقن عامر أن قد أحيط به أوعز إلى ابنه أن يلحق بالسلطان مموهاً بالنزوع، فألقى بنفسه إليه وبذل له الأمان وألحقه بجملته.

وانتبذ عامر عن الناس وذهب لوجهه ليخلص إلى السوس فرده الثلج.

وقد كانت السماء أرسلت به منذ أيام برداً وثلجاً حتى تراكم بالجبل بعضه على بعض، وسد المسالك فاقتحمه عامر وهلك فيه بعض حرمه ونفق مركوبه.

وعاين الهلكة العاجلة فرجع مخفياً أثره إلى غار أوى إليه مع أدلاء بذل لهم المال يسلكون به ظهر الجبل إلى الصحراء بالسوس، وأقاموا ينتظرون إمساك الثلج، وأغرى السلطان بالبحث عنه فدلهم عليه بعض البربر عثروا عليه فسيق إلى السلطان وأحضره بين يديه ووبخه فاعتذر ونجع بالطاعة.

ورغب في الإقالة واعترف بالذنب، فحمل إلى مضرب بني له بإزاء فسطاط السلطان، واعتقل هنالك.

وتقبض يومئذ على محمد بن الكناني فاعتقل وانطلقت الأيدي على معاقل عامر وديارة، فانتهب من الأموال والسلاح والذخيرة والزرع والأقوات والخرثي ما لا عين رأت ولا خطر على قلب أحد منهم.

واستولى السلطان على الجبل ومعاقله في رمضان من سنة إحدى وسبعين وسبعمائة لحول من يوم حصاره.

وعقد على هنتاتة لفارس بن عبد العزيز بن محمد بن علي وارتحل إلى فاس واحتل بها آخر رمضان ودخلها في يوم مشهود برز فيه الناس.

وحمل عامر وسلطانه تاشفين على جملين وقد أفرغ عليهما الرث وعبثت بهما أيدي الإهانة فكان ذلك عبرة لمن رآه ولما قضى منسك الفطر أحضر عامراً فقرعه بذنوبه وأوتي بكتابه يخطه يخاطب فيه أبا حمو ويستنجده على السلطان فشهد عليه وأمر به السلطان فامتحن ولم يزل يجلد حتى انتثر لحمه، وضرب بالعصي حتى ورمت أعضاؤه، وهلك بين يدي الوزعة، وأحضر الكناني

ففعل به مثله.

وجنب تاشفين سلطانه إلى مصرعه فقتل قعصاً بالرماح وجنب مبارك بن إبراهيم من محبسه بعد طول الاعتقال، فألحق بهم ولكل أجل كتاب وصفا الجو للسلطان من المنازعين، وفرغ لغزو تلمسان كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن ارتجاع الجزيرة الخضراء

قد تقدم لنا ذكر تغلب الطاغية الهنشة على الجزيرة سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة وأنه نازل بعدها جبل الفتح سنة إحدى وخمسين وسبعمائة وهلك بالطاعون وهو محاصر له عندما استفحل أمره، واشتدت شوكته.

فكفى الله شأنه وولي أمر الجلالقة بعده ابنه بطرة، وعدا على سائر إخوته.

وفر أخوه القمط ابن حظية أبيه المسماة بلغتهم الريق بهمزة إلى قمص برشلونة فأجاره وأنزله خير نزل.

ولحق به من الزعماء المركش ابن خالته وغيره من أقماصهم وبعث إليه بطرة ملك قشتالة في إسلام أخيه فأبى من إخفار جواره.

وحدثت بينهما بسبب ذلك الفتنة الطويلة افتتح بطرة فيها كثيراً من معاقل صاحب برشلونة وأوطأ عساكره نواحي أرضه، وحاصر بلنسية قاعدة شرق الأندلس مراراً وأرجف عليها بعساكره، وملأ البحر إليها بأساطيله إلى أن ثقلت على النصرانية وطأته وساءت فيهم ملكته، فانتقضوا عليه ودعوا القمط أخاه فزحف إلى قرطبة.

وثار على بطرة أهل إشبيلية وتيقن صاغية النصارى إليه، ففر عن ممالكه ولحق بملك الإفرنج وراء جليقية وفي الجوف عنها وهو صاحب انكلطرة، واسمه ألفنس غالس.

ووفد عليه صريخاً سنة سبع وستين وسبعمائة فجمع قومه وخرج في صريخه إلى أن استولى على ممالكه، ورجع ملك الإفرنج فعاد النصارى إلى شأنهم مع بطرة.

وغلب القمط على سائر الممالك فتحيز بطرة إلى ثغوره ممايلي بلاد المسلمين، ونادى صريخه بابن الأحمر فانتهز فيها الفرصة.

ودخل بعساكر المسلمين فأثخن في أرض النصرانية، وخرب معاقلهم ومدنهم مثل أبدة وجيان وغيرهما من أمهات أمصارهم.

ثم رجع إلى غرناطة، ولم تزل الفتنة قائمة بين بطرة وأخيه القمط إلى أن غلب عليه القمط وقتله.

وفي خلال هذه الفتن بقيت ثغورهم مما يلي أرض المسلمين عورة.

وتشوف المسلمون إلى ارتجاع الجزيرة التي قرب عهدهم بانتظامها في ملكة المسلمين.

وكان صاحب المغرب في شغل عن ذلك بما كان فيه من انتقاض أبي الفضل ابن أخيه وعامر بن محمد، فراسل صاحب الأندلس في أن يزحف إليه بعساكره على أن عليه عطاءهم وإمداده بالمال والأساطيل وعلى أن يكون مثوبة جهادهاخالصة له، فأجاب إلى ذلك وبعث إليه أحمال المال.

وأوعز إلى أساطيله بسبتة فعمرت وأقلعت إلى مرسى الجزيرة لحصارها وزحف ابن الأحمر بعساكر المسلمين على أثرها بعد أن قسم فيهم العطاء وأزاح العلل، واستعد الآلة للحصار، فنازلها أياماً قلائل.

ثم أيقن النصارى بالهلكه لبعدهم عن الصريخ ويأسهم من مدد ملوكهم وألقوا باليد وسألوا النزول على حكم السلم فأجابهم السلطان عليه ونزلوا عن البلد وأقيمت فيها شعائر الإسلام ومراسمه، ومحيت منها كلمة الكفر وطواغيته، وكتب الله أجرها لمن أخلص في معاملته وكان وذلك سنة سبعين وسبعمائة وولى ابن الأحمر عليها من قبله.

ولم تنزل لنظره إلى أن تمحض النظر عن هدمها خشية استيلاء النصرانية عليها، فهدمت أعوام ثمانين وسبعمائة وأصبحت خاوية كأن لم تغن بالأمس، والبقاء لله وحده.

الخبر عن حركة السلطان إلى تلمسان واستيلائه عليها وعلى سائر بلادها وفرار أبي حمو عنها

كان عرب المعقل موطنين بصحراء المغرب من لدن السوس ودرعة وتافيلالت وملوية وصا.

وكان بنو منصور منهم أولاد حسين والأحلاف مختصين بطاعة بني مرين وفي وطنهم.

وكانوا مغلّبين للدولة تحت قهر من سلطانها، ولما ارتجع بنو عبد الواد ملكهم، بتلمسان على يد أبي حمو، وكان الاحتلاف

بالمغرب، عاث هؤلاء المعقل وأكثروا في الوطن الفساد.

ولما استقلت الدولة من عثرها تحيزوا إلى بني عبد الواد واقطعوهم في أوطانهم.

واستقروا هنالك من لدن نزوع عبد اللّه بن مسلم العامل كان بدرعة إلى أبي حمو ووزارته له، وفسد ما بين سلطان المغرب وبين أبي حمو من جراء ذلك.

ونهض أبو حمو سنة ست وستين وسبعمائة إلى المغرب، وعاث في نواحي دبدو ثغر المغرب فنشبت لذلك نار العداوة بينه وبين صاحب الثغر محمد بن زكدان فكان داعية لعداء صاحب المغرب على الأيام.

ولما استبد السلطان عبد العزيز وهلك صاحبهم عبد اللّه بن مسلم، وترددت الرسل بين أبي حمو وبين السلطان عبد العزيز، كان فما اشترط عليه التجافي عن قبول المعقل عرب وطنه، لما فيه من الاستكثار بهم عليه.

وأبى عليهم أبو حمو منها لاستظهاره بهم على زغبة من أهل وطنه وغيرهم.

وكثر التلاحي في ذلك وأحفظ السلطان وهم بالنهوض إليه سنة سبعين وسبعمائة وأقصر لما أخذ بحجزته من خلاف عامر.

وصاحب الثغر محمد بن زكدان أثناء ذلك يحرضه على الحركة إلى أبي حمو ببرغبه في ملك تلمسان.

ولما قضى السلطان من حركة مراكش وفرغ من شأن عامر ورجع إلى فاس، وافاه بها أبو بكر بن عريف أمير سويد في قومه من بني مالك بحللهم وناجعتهم، صريخاً على أبي حمو لما نال منهم.

وتقبض على أخيهم محمد ورؤساء بني مالك جزاء بما يعرف لهم ولسلفهم من ولاية صاحب المغرب.

ووفد عليه مهعم رسل أهل الجزائر ببيعتهم يستحثون السلطان لاستنقاذهم من هواته.

ووامر السلطان بذلك وليه ونزمار بن عرير ومحمد بن زكدان صاحب دبدو فزعموا له بالغناء في ذلك واعتزم على النهوض إلى تلمسان وبعث الحاشرين إلى مراكش للاحتشاد، وتوافى الناس ببابه على طبقاتهم أيام منى من سنة إحدى وسبعين وسبعمائة وأفاض العطاء وأزاح العلل، ولما قضى منسكه في الأضحى اعترض العساكر وارتحل إلى تلمسان، واحتل بتازى.

وبلغ خبر نهوضه إلى أبي حمو، فجمع من إليه من زناتة الشرق وبني عامر من عرب زغبة.

وتوافت جموعه بساحة تلمسان واضطرب هنالك معسكره واستعرض جنوده واعتزم على الزحف للقاء بني مرين ثقة بمكان المعقل.

وتحيز من كان معه من عرب المعقل الأحلاف وعبيد اللّه إلى السلطان عبد العزيز بمداخلة وليهم ونزمار.

واجتمعوا إليه وسرح معهم صنائعه فارتحلوا بين يديه وسلكوا طريق الصحراء.

وبلغ خبر تحيزهم وإقبالهم إلى أبي حمو فأجفل هو وجنوده وأشياعه من بني عامر وسلكوا على البطحاء.

ثم ارتحلوا عنها وعاجوا على منداس وخرجوا إلى بلاد الديالم.

ثم لحقوا بوطن رياح فنزلوا على أولاد سباع بن علي بن يحيى.

وارتحل السلطان عبد العزيز من تازى وقدّم بين يديه وزيره أبا بكر بن غازي، فدخل تلمسان وملكها.

ورحل السلطان على أثره واحتل بتلمسان يوم عاشوراء من سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة، فدخلها في يوم مشهود واستولى عليها وعقد لوزيره أبي بكر بن غازي على العسكر من بني مرين والجنود والعرب من المعقل وسويد، وسرحه في اتباعهم وجعل شوراه إلى وليه ونزمار وفوض إليه في ذلك.

وارتحلوا من تلمسان آخر المحرم وكنت وافداً على أبي حمو، فلما أجفل عن تلمسان ودعته وانصرفت إلى هنين للإجازة إلى الأندلس.

ووشى بعض المفسدين عند السلطان بأني احتملت مالاً للأندلس، فبعث جريدة من عسكره للقبض علي، وافوه بوادي الزيتون قبل مدخله إلى تلمسان فأحضرني وسألني، وتبين كذب الواشين فأطلقني وخلع علي وحملني.

ولما ارتحل الوزير في اتباع أبي حمو استدعاني وأمرني بالنهوض إلى رياح والقيام فيهم بطاعته، وصرفهم عن طاعة أبي حمو وصريخه، فنهضت لذلك، ولحقت بالوزير بالبطحاء، وارتحلت معه إلى وادي وراك من بلاد العطاف فودعته وذهبت لوجهي وجمعت رياحاً على طاعة السلطان ونكبت بهم عن صريخ أبي حمو فنكبوا عنه.

وخرج أبو زيان من محل بؤرته بحصين، فلحق بأولاد محمد

بن علي بن سباع من الدواودة.

وارتحل أبو حمو من المسيلة فنزل بالدوسن وتلوم بها، وأوفدت من الدواودة على الوزير ونزمار فكانوا أدلاءهم في النهوض إليه، ووافوه بمكانه من الدوسن في معسكره من زناتة وحلل بني عامر، والوزير في التعبية، وأمم زناتة والعرب من المعقل وزغبة ورياح محدقة به، فأجهضوه عن ماله ومعسكره، فانتهب بأسره.

واكتسحت أموال العرب الذين معه، ونجا بدمه إلى مصاب.

وتلاحق به ولده وقومه متفرقين على كل مفازة، وتلوم الوزير بالدوسن أياماً.

ووافاه بذلك انحاف بني مزني وانقلب إلى المغرب.

ومر على قصور بني عامر بالصحراء فاستباحها، وشردهم عنها إلى قاصية القفر ومفازة العطش، ولحق بتلمسان في ربيع الثاني.

ووفدت أنا بالدواودة على السلطان ورئيسهم أبو الدينار بن علي بن أحمد، فبر السلطان مقدمه ورعى له سوابقه عند أبيه، وخلع عليه وحمله وخلع على الوفد كافة وانصرفوا إلى مواطنهم.

وبعث السلطان عماله في الأمصار، وعقد لصنائعه على النواحي، وجهز الكتائب مع وزيره عمر بن مسعود بن منديل بن حمامة، لحصار حمزة بن علي بن راشد من آل ثابت بن منديل، كان ربي في حجر الدولة ونشأ في جو نعمتها وسخط حاله لديهم، فنزع إلى وطن سلفه من بلاد مغراوه.

ونزل بجبل بني بو سعيد فأجاروه وبايعوه على الموت دونه.

وسرح السلطان وزيره إلى الأخذ بمخنقهم، فنزل عليهم وقاتلهم وامتنعوا في رأس شاهق لهم، فأوطن الوزير بالخميس من وادي شلف وأحجرهم بمعتصمهم.

وتوافت لديه الأمداد من تلمسان، فجمرها كتائب وبوأهم المقاعد للحصار، وأقام هنالك واستولى السلطان على سائر الوطن من الأمصار والأعمال، وعقد عليها واستوسق له ملك المغرب الأوسط كما كان لسلفه.

والله تعالى أعلم.والملك بيد الله يؤيته من يشاء من عباده.

الخبر عن اضطراب المغرب الأوسط ورجوع أبي زيان إلى تيطرى وأجلاب العرب بأبي حمو على تلمسان إلى أن غلبهم السلطان جميعاً على الأمر واستوسق له الملك

لما خلص أبو حمو من واقعة الدوسن هو وأحياء بني عامر وأشياعه، لحقوا بالصحراء وأبعدوا فيها عن قصورهم قبلة جبل راشد.

ورجع الوزير ونزمار بن عريف بأحياء العرب كافة من زغبة والمعقل.

وكان السلطان لما احتل بتلمسان طلب العرب منه إطلاق أيديهم على ما أقطعهم أبو حمو إياه من الوطن على الزبون والاعتزاز عليه، فاستنكف من ذلك لعظم سلطانه واستبداد ملكه، فسخطوا أحواله ورجوا أن يكون لأبي حمو ظهور ينالون به من ذلك ما أملوه.

فلما انهزم وفلت عساكره، وظهر السلطان ظهوراً لاكفاء له فيئسوا، وأزمع رحو بن منصور بن يعقوب أمير الخوارج من عبيد الله إحدى بطون المعقل الخروج على السلطان، ولما خرج العرب إلى مشاتيهم لحق بأبي حمو وأحياء بني عامر وكاثرهم وقادهم إلى العيث في الأوطان، وأجلبوا على ممالك السلطان ونازلوا وجدة في رجب من سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة وصمد نحوهم العساكر من تلمسان، فأجفلوا وعادوا إلى البطحاء فاكتسحوا أوطانهم.

ونهض إليهم الوزير في العساكر ففروا أمامه، واتبع آثارهم إلى أن أصحروا.

واستنسر خلال ذلك بغاث حمزة بن علي بن راشد، فبيت معسكر الوزير بمكانه من حصاره بشلف، ففض جموعه ولحق مفلولاً بالبطحاء وبلغ الخبر إلى حصين وكانوا راهبين من السلطان، لما اشتهر عنهم من الخلاف على الدول والقيام بأمر الخوارج، فجاؤوا بأبي زيان الثائر كان عندهم من مكانه بأحياء أولاد يحيى بن علي بن سباع من الدواودة، فلحق بهم وأجلبوا على ضواحي المدية ونازلوا عسكر السلطان بها، واضطرم المغرب الأوسط ناراً، واتصل ذلك به مدة.

ولما كان سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة واستمال السلطان

رحو بن منصور عن أبي حمو وبذل له مالاً وأقطعه ما أحب من الضواحي، وفعل ذلك بسائرهم وملأ صدورهم ترغيباً.

واعتزم على تجهيز العساكر معهم لحسم أدواء الفساد وإخراج الثوار من النواحي.

واتهم وزيره عمر بن مسعود بالمداهنة في أمر المغراوي، فسرّح من دويه من تقبض عليه وأشخصه إلى حضرته مقيداً.

واعتقله بفاس وجهز عساكره واعترض جنوده، وعقد لوزيره أبي بكر بن غازي على حرب الثوار والخوارج، فنهض من تلمسان في رجب سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة واعتمد حمزة بن علي بن راشد في معتصمه بجبل بني بو سعيد، وألح عليهم بالقتال فعضتهم الحرب بنابها وداخلهم الرعب وأوفدوا مشيختهم على الوزير بالطاعة، ونبذ العهد إلى حمزة فعقد لهم ما ابتغوه.

ولحق حمزة بأبي زيان بمكانه من حصين، ثم أثنى عزمه عن ذلك ورجع إلى ضواحي شلف.

وبيته بعض الحامية بتيمروغت فثبتوا في مراكزهم وانفض جمعه وتقبض عليه وسيق إلى الوزير فاعتقله وبعث إلى السلطان في شأنه، فأمر بقتله، فاحتز رأسه ورؤوس أشياعه وبعث بهم إلى السلطان وعلق أشلاءهم بأسوار مليانة.

ثم زحف إلى حصين فأحجرهم بمعقلهم بتيطري، واجتمعت إليه أحياء زغبة كافة.

فأحاط بهم من كل جانب وطاولهم الحصار وغاداهم الحرب، وخاطبني السلطان بمكاني من الزاب، وأوعز إلي بنفير رياح كافة إلى معسكر الوزير واستنفرتهم بأحيائهم وناجعتهم، ونازلنا الجبل من جانب الصحراء مما يلي ضواحي رياح، فأصابهم الجهد وداخلهم الرعب، وانفضوا من المعقل واندعروا في الجهات في المحرم فاتح أربع وسبعين وسبعمائة ولحق أبو زيان بواركلي، واستولى الوزير على المعقل وانتهب ما فيه، واقتضى رهن حصين على الطاعة وقرر عليهم الوضائع والمغارم، فأعطوها عن يد.

وكان أبو حمو في خلال ذلك قد أجلب على تلمسان ينتهز الفرصة في انتباذ العساكر عن السلطان.

وكان وليه خالد بن عامر أمير بني عامر من زغبة مريد الطاعة، لما اتهم أبو حمو به من ولاية رديفة عبد الله بن عسكر بن معروف دونه، فأسخطه ذلك، وداخل السلطان عبد العزيز في الإنحراف إليه عن أبي حمو على مال إليه، فنزع عنه.

وجهز له السلطان عسكراً لحرب أبي حمو واشياعه في ذي القعدة من سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة من بني عامر وأولاد يغمور من المعقل، وعقد عليهم لمحمد بن عثمان من قرابة أبي بكر بن غازي وتعرضوا للقائهم، فانفض جمعهم ومنحوا أكتافهم وأحيط بمعسكر أبي حمو وحلل العرب فاكتسح ما فيها واستولى بنو مرين على أمواله وحرمه وولده، فاستاقوهم إلى السلطان فأشخصهم إلى فاس فأنزلهم بقصوره.

وتقبض على مولاه عطية بن موسى صاحب شلف، فامتن عليه وألحقه بجملته.

ونجا أبو حمو وألقى بنفسه إلى عبد الله بن صغير مستميتاً، فامتن عليه وبعث معه الأدلاء إلى تيكورارين من بلاد القبلة، فنزلها وكان ذلك بين يدي فتح تيطرى بليال.

واستوت قدم السلطان في ملكه واستولى على المغرب الأوسط، ودفع الثوار والخوارج عنه، واستمال كافة العرب إلى طاعته فأتوها راغبين راهبين.

ووفد عليه الوزير أبو بكر بن غازي من قاصية الشرق ومعه مشيخة العرب من كل حي من أحيائهم فوصلهم واحتفى بقدومهم، وركب للقاء الوزير وطلب المشيخة في الرهن على الطاعة والاستحثاث لتشريد أبي حمو من تيكورارين، وأوسع حفايتهم وبرهم وانصرفوا إلى مشاتيهم معتملين في أسباب الحركة إلى تيكورارين إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن قدوم الوزير ابن الخطيب على السلطان بتلمسان نازعاً إليه عن سلطانه ابن الأحمر صاحب الأندلس

أصل هذا الرجل من لوشة على مرحلة من غرناطة من البسيط الذي فيه ساحتها المسمى بالمرج على وادي شنجيل، ويقال: شنبيل المنحرف في ذلك البسيط من الجنوب إلى الشمال، كان له بها سلف معدود في وزارتها.

وانتقل أبو عبد الله إلى غرناطة واستخدم لملوك بني الأحمر، واستعمل على مخازن الطعام، ونشأ ابنه محمد هذا بغرناطة وقرأ وتأدب على مشيختها واختص بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هذيل، وأخذ عنه العلوم الفلسفية وبرز في الطب وانتحل الأدب.

وأخذ عن أشياخه وامتلأ من خوض اللسان من نظمه ونثره مع انتقاء الجيد منه، ونبغ في الشعر والترسل حيث لا يجارى فيهما.

وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بني الأحمر لعصره وملأ الدولة بمدائحه وانتشرت في الآفاق، فرقاه السلطان إلى خدمته وأثبته في ديوان الكتاب ببابه مرؤوساً بأبي الحسن بن الجياب شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية.

وكاتب السلطان بغرناطة من لدن أيام محمد المخلوع من سلفه، عندما قتل وزيره محمد بن الحكيم المستبد عليه كما مر في أخبارهم.

فاستبد ابن الجياب برياسة الكتاب من يومئذ إلى أن هلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة، فولى السلطان أبو الحجاج حينئذ محمد بن الخطيب هذا رياسة الكتاب ببابه مثناة بالوزارة، ولقبه بها فاستقل بذلك.

وصدرت عنه غرائب من الترسل في مكاتبات جيرانهم من ملوك العدوة.

ثم داخله السلطان في تولية العمال على يديه بالمشارطات، فجمع له بها أموالاً، وبلغ في المخالصة إلى حيث لم يبلغ بأحد ممن قبله.

وسفر عنه إلى السلطان أبي عنان ملك بني مرين بالعدوة مقربا بأبيه السلطان أبي الحسن فجلّى في أغراض سفارته.

ثم هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمائة عدا عليه بعض الزعانف يوم الفطر بالمسجد في سجوده للصلاة، وطعنه فأشواه وفاض لوقته، وتعاورت سيوف الموالي المعلوجي هذا القاتل فمزقوه أشلاء.

وبويع ابنه محمد بالأمر لوقته، وقام بأمره مولاهم رضوان الراسخ القدم في قيادة عساكرهم وكفالة الأصاغر من ملوكهم.

واستبد بالدولة، وأفرد ابن الخطيب بوزارته كما كان لأبيه، واتخذ لكتابته غيره، وجعل ابن الخطيب رديفاً له في أمره ومشاركاً في استبداده معنى، فجرت الدولة على أحسن حال وأقوم طريقة.

ثم بعثوا الوزير ابن الخطيب سفيراً إلى السلطان أبي عنان مستمداً له على عدوهم الطاغية على عادتهم مع سلفه.

فلما قدم على السلطان ومثل بين يديه، تقدم الوفد الذين معه من وزراء الأندلس وفقهائها واستأذنه في إنشاد شيء من الشعر يقدمه بين يدي نجواه، فأذن له، وأنشد وهو قائم:

خليفة اللّه ساعد القدرُ ... علاك ما لاح في الدجى قمر

ودافعت عنك كف قدرته ... ما ليس يستطيع دفعه البشر

وجهك في النائبات بدر ... لنا وفي المحل كفك المطر

والناس طراً بأرض أندلس ... لولاك ما أوطنوا ولا عمروا

وجملة الأمر أنه وطن ... في غير علياك ماله وطر

ومن به مذ وصلت حبلهم ... ما جحدوا نعمة ولا كفروا

وقد أهمتهم نفوسهم ... فوجهونى إليك وانتظروا

فاهتز السلطان لهذه الأبيات وأذن له في الجلوس، وقال له قبل أن يجلس: ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم.

ثم أثقل كاهلهم بإحسانه، وردهم بجميع ما طلبوه.

وقال لي شيخنا القاضي أبو القاسم الشريف وكان معه في ذلك الوفد: لم يسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا، ومكثت دولتهم هذه بالأندلس خمس سنين.

ثم نازلهم محمد الرئيس ابن عم السلطان شركه في جده الرئيس أبي سعيد، وتحين خروج السلطان إلى متنزهه خارج الحمراء.

وتسور دار الملك المعروفة بالحمراء وكبس رضواناً في بيته، فقتله، ونصب للملك إسماعيل ابن السلطان أبي الحجاج، لما كان صهره على شقيقته، وكان معتقلاً بالحمراء، فأخرجه وبايعه وقام بأمره مستبداً عليه.

وأحس السلطان محمد بقرع الطبول وهو بالبستان، فركب ناجياً إلى وادي آش وضبطها.

وبعث بالخبر إلى السلطان أبي سالم إثر ما استولى على ملك آبائه بالمغرب، وقد كان مثواه أيام أخيه أبي عنان عندهم بالأندلس.

واعتقل الرئيس القائم بالدولة هذا الوزير ابن الخطيب وضيق عليه في محبسه.

وكانت بينه وبين الخطيب ابن مرزوق مودة استحلمت أيام مقامه بالأندلس كما مر.

وكان غالباً على هوى السلطان أبي سالم، فزين له استدعاء هذا السلطان المخلوع من وادي آش يعده زبوناً على أهل الأندلس، ويكف به عادية القرابة المرشحين هنالك متى طمحوا إلى ملك المغرب، فقبل ذلك منه.

وخاطب أهل الأندلس في تسهيل طريقه من وادي آش إليه.

وبعث من أهل مجلسه الشريف أبا القاسم التلمساني، وحمله مع ذلك الشفاعة في ابن الخطيب، وحل معتقله.

فانطلق، وصحب الشريف أبا القاسم إلى وادي آش وسار في ركاب سلطانه.

وقدموا على السلطان أبي سالم فاهتز لقدوم ابن الأحمر وركب في موكب لتلقيه، وأجلسه إزاء كرسيه، وأنشد ابن الخطيب قصيدته كما مر يستصرخ السلطان لنصره، فوعده وكان يوماً مشهوداً وقد مر ذكره.

ثم أكرم مثواه وأرغد نزله، ووفر أرزاق القادمين في ركابه وانتظر به، وأرغد عيش ابن الخطيب في الجراية والأقطاع.

ثم استأنس واستأذن السلطان في التحول إلى جهات مراكش والوقوف على آثار الملك بها، فأذن له وكتب إلى العمال باتحافه، فتبارزوا في ذلك وحصر منه على حظ وعندما مر بسلا في قفوله من سفره، دخل مقبرة الملوك بشالة ووقف على قبر السلطان أبي الحسن وأنشد قصيدة على روي الراء الموصولة يرثيه ويستجير به في استرجاع ضياعه بقرطبة مطلعها:

إن بان منزله وشطت داره قامت مقام عيانه أخباره

قسِّم زمانك عبرة أو عبرة هذا ثراه وهذه آثاره

فكتب السلطان أبو سالم في ذلك إلى أهل الأندلس بالشفاعة، فشفعوه، واستقر هو بسلا منتبذاً عن سلطانه طول مقامه بالعدوة.

ثم عاد السلطان محمد المخلوع إلى مكانه بالأندلس سنة ثلاث وستين وسبعمائة كما مر في أخباره.

وبعث عن مخلفه بفاس من الأهل والولد والقائم بالدولة يومئذ عمر بن عبد الله بن علي فاستقدم ابن الخطيب من سلا وبعثهم لنظره.

وسر السلطان بقدومه ورده إلى منزلته كما كان مع رضوان كافله.

وكان عثمان بن يحيى بن عمر شيخ الغزاة وابن شيوخهم قد لحق بالطاغية في ركاب أبيه عندما أحس بالشر من الرئيس صاحب غرناطة.

وأجاز يحيى من هنالك إلى العدوة وأقام عثمان بدار الحرب، فصحب السلطان في مثوى اغترابه هنالك، وتقلب في هذا مذاهب خدمته، وانحرفوا عن الطاغية عندما يئسوا من الفتح على يديه، فتحولوا عنه إلى ثغور بلاده، وخاطبوا عمر بن عبد الله في أن يمكنهم من بعض الثغور الغربية التي لطاعتهم بالأندلس، يرتقبون منها الفتح.

وخاطبني السلطان المخلوع في ذلك، وكانت بيني وبين عمر بن عبد الله ذمة مرعية ومخالصة متأكدة، فوفيت للسلطان بذلك من عمر بن عبد الله.

وحملته على أن يرد عليه مدينة رندة إذ هي تراث سلفه، فقبل إشارتي في ذلك، وتسوغها السلطان المخلوع، ونزل بها وعلى بن يحيى في جملته، وهو مقدم في بطانته، ثم غزوا منها مالقة، فكانت ركاباً للفتح.

وملكها السلطان واستولى بعده على دار ملكها بغرناطة، وعثمان بن يحيى مقدم القوم في الدولة عريق في المخالصة، وله على السلطان دالة واستبداد على هواه.

فلما وصل ابن الخطيب بأهل السلطان وولده، وأعاده السلطان إلى مكانه في الدولة من علو يده وقبول إشارته، فأدركته الغيرة من عثمان، ونكر على السلطان الاستكفاء به، والتخوف من هؤلاء الأعياص على ملكه، فحذره السلطان وأخذ في التدبير عليه حتى نكبه وأباه وإخوته في رمضان سنة أربع وستين وسبعمائة وأودعهم المطبق.

ثم غربهم بعد ذلك، وخلا لابن الخطيب الجو وغلب على هوى السلطان ودفع إليه تدبير الدولة، وخلط بينه بندمائه وأهل خلوته، وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد وانصرفت إليه الوجوه وعلقت عليه الآمال، وغشي بابه الخاصة والكافة.

وغصت به بطانة السلطان وحاشيته، فتفننوا على السعايات فيه وقد صم السلطان عن قبولها، ونمي الخبر بذلك إلى ابن الخطيب، فشمر عن ساعده في التقويض عنهم.

واستخدم للسلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ملك العدوة يومئذ في التقبض على ابن عمه عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي.

كانوا قد نصبوه شيخاً على الغزاة بالأندلس لما أجاز من العدوة بعدما جاس خلالها لطلب الملك، وأضرم بها نار الفتنة في كل ناحية وأحسن دفاعه الوزير عمر بن عبد الله القائم حينئذ بدولة بني مرين، فاضطر إلى الإجازة إلى الأندلس، فأجاز هو ووزيره مسعود بن ماسي ونزلوا على السلطان المخلوع أعوام سبع وستين وسبعمائة فأكرم نزلهم، وتوفي علي بن بدر الدين شيخ الغزاة، فقدم عبد الرحمن مكانه.

وكان السلطان عبد العزيز قد استبد بملكه بعد قتله الوزير عمر بن عبد الله، فغص بما فعله السلطان المخلوع من ذلك، وتوقع انتقاض أمره منهم.

ووقف على مخاطبات ابن عبد الرحمن يسربها في بني مرين، فجزع لذلك.

وداخله ابن الخطيب في اعتقال ابن أبي يفلوسن وابن ماساي وإراحة نفسه من شغبهم، على أن يكون له المكان من دولته متى نزع إليه، فأجابه إلى ذلك وكتب له العهد بخطه، على يد سفيره إلى الأندلس، وكاتبه أبي يحيى بن أبي مدين وأغرى ابن الخطيب سلطانه بالقبض على ابن أبي يفلوسن وابن ماسي فتقبض عليهما، واعتقلهما وفي خلال ذلك استحكمت نفرة ابن الخطيب لما بلغه عن البطانة من القدح فيه والسعاية.

وربما تخيل له أن السلطان مال إلى قبولها وأنهم قد أحفظوه عليه، فأجمع التحول عن الأندلس إلى المغرب، واستأذن السلطان في تفقد الثغور الغربية، وسار إليها في لمة من فرسانه، ومعه ابنه علي الذي كان خالصة السلطان وذهب لطبنة.

فلما حاذى جبل الفتح فرضة الجواز إلى العدوة، مال إليه وسرح إذنه بين يديه، فخرج قائد الجبل لتلقيه.

وقد كان السلطان عبد العزيز قد أوعز إليه بذلك، وجهز إليه الأسطول من حينه، فأجاز إلى سبتة وتلقاه ولاتها بأنواع التكرمة وامتثال المراسيم.

ثم سلك لقصد السلطان، فقدم عليه سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة بمقامته من تلمسان، فاهتزت له الدولة.

وأركب السلطان خاصته لتلقيه، وأحله بمجلسه بمحل الأمن والغبطة، ومن دولته بمكان الشرف والعزة.

وأخرج لوقته كاتبه أبا يحيى بن أبي مدين سفيراً إلى الأندلس في طلب أهله وولده، فجاء بهم على أكمل الحالات من الأمن والتكرمة.

ثم لغط المنافسون له في شأنه وأوعزوا سلطانه بتتبع عثراته، وأبدى ما كان كامناً في نفسه من سقطات دالته، وإحصاء عصابته.

وشاع على ألسنة أعدائه كلمات منسوبة إلى الزندقة أحصوها عليه ونسبوها إليه، ورفعت إلى قاضي الحضرة الحسن بن الحسن، فاسترعاها وسجل عليه بالزندقة، وراجع صاحب الأندلس رأيه فيه.

وبعث القاضي أبو الحسن إلى السلطان عبد العزيز في الانتقام منه بتلك السجلات، وإمضاء حكم الله فيه، فصم لذلك وأنف لذمته أن تخفر ولجواره أن يرد وقال لهم: هلا انتقمتم وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه؟ وأما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان في جواري.

ثم وفر الجراية والأقطاع له ولبنيه ولمن جاء من فرسان الأندلس في جملته.

فلما هلك السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين وسبعمائة ورجع بنو مرين إلى المغرب وتركوا تلمسان، سار هو في ركاب الوزير أبي بكر بن غازي القائم بالدولة، فنزل بفاس واستكثر من شراء الضياع وتأنق في بناء المساكن واغتراس الجنات، وحفظ عليه القائم بالدولة الرسوم التي رسمها له السلطان المتوفي.

واتصلت حاله على ذلك إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك السلطان عبد العزيز وبيعة ابنه السعيد واستبداد أبي بكر بن غازي عليه ورجوع بني مرين إلى المغرب

كان السلطان منذ أول نشأته قد أزمنت به الحمى بما أصابه من مرض النحول، ولأجل ذلك تجافى السلطان أبو سالم على احتماله مع الأبناء إلى رندة، ولما شب أفاق من مرضه وصلح بدنه، ثم عاوده وجعه في مثواه بتلمسان وتزايد نحوله.

ولما كمل الفتح واستفحل الأمر واشتد به الوجع وصابر المرض وكتمه عن الناس خشية الإرجاف، واضطرب معسكره خارج تلمسان للحاق بالمغرب، ولما كان ليلة الثاني والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وسبعمائة قضى متودعا بين أهله وولده ودس الخدم بالخبر إلى الوزير، فخرج على الناس وقد احتمل محمد السعيد ابن السلطان على كتفه فعزى الناس عن خليفتهم لسبع سنين من خلافته، وألقى ابنه بين أيديهم فازدحموا عليه باكين متفجعين، يعطونه الصفقة ويقبلون يديه للبيعة، وأخرجوه إلى المعسكر.

ثم أخرج الوزير شلو السلطان على أعواده وأنزله بفساطيطه وأيقظ بالليل بحراسة العسكر، وأذن في الناس بالرحيل، فخرجوا أفواجاً إلى المحلة.

ثم ارتحلوا لثلاث، وأغذوا السير إلى المغرب واحتلوا بتازى ثم أغذوا السير إلى فاس، واحتل ابن السلطان بدار ملكه وجلس للبيعة العامة بقصره، وتوافت وفود الأمصار ببيعاتهم على العادة.

واستبد عليه الوزير أبو بكر بن غازي، وحجبه بقصره

وحجره عن التصرف في شيء من سلطانه، ولم يكن في سن التصرف، واستعمل على الجهات وجلس بمجلس الفضل، واشتغل بأمر المغرب إبراماً ونقضاً إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن استيلاء أبي حمو على تلمسان والمغرب الأوسط

لما فصل بنو مرين من تلمسان إثر مهلك السلطان عبد العزيز واحتلوا بتازى اجتمع المشيخة وعقدوا على تلمسان لإبراهيم ابن السلطان أبي تاشفين كان ربي في كفالة دولتهم منذ مهلك أبيه، فآثروه بذلك لخلوصه، وبعثوه مع رحو بن منصور أمير عبيد الله من المعقل، وسرحوا معهما من كان بالمغرب من مغراوة إلى وطن ملكهم بشلف.

وعقدوا عليهم لعلي بن هارون بن منديل بن عبد الرحمن وأخيه رحمون وانصرفوا إلى بلادهم.

وكان عطية بن موسى مولى أبي حمو قد صار إلى السلطان عبد العزيز وألحقه بجملته وبطانته، فلما هلك السلطان خرج من القصر واختفى بالبلد حتى إذا فصل بنو مرين من معسكرهم ظاهر البلد، خرج من مكان اختفائه، وقام بدعوة مولاه أبي حمو، واجتمع إليه شيعة من أهل البلد مع من تأشب إليهم من الغوغاء، وحملوا الخاصة على البيعة لأبي حمو، ووصلهم إبراهيم بن أبي تاشفين مع رحو بن منصور وقومه من عبيد الله، فنابذوه وامتنعوا عليه، فرجع عنهم إلى المغرب، وطير أولاد يغمور أولياء أبي حمو من عبيد الله بالخبر إليه وهو بمثواه من تيكورارين.

واتصل بابنه أبي تاشفين وهو بحي بني عامر فبادر إلى تلمسان ودخلها ومن معه من بني عبد الواد، وتساقط إليه فلهم من كل جانب، ووصل السلطان على إثرهم بعد اليأس منه، فدخلها في جمادى من سنة أربع وسبعين وسبعمائة واستقل بملكه، وتقبض على بطانته الذين آسفوه في اغترابه، ونمي له عنهم السعي عليه، فقتلهم، ورجع ملك بني عبد الواد وسلطانهم، ونهض إلى مغراوة أولياء بني مرين بمكانهم من شلف، فغلبهم عليه بعد مطاولة وحروب سجال هلك فيها رحمون بن هارون، ومحا دعوة بني مرين من ضواحي المغرب الأوسط وأمصاره، واستقل بالأمر حسبما ذكرناه في أخباره، واتصل الخبر بالوزير أبي بكر بن غازي فهم بالنهوض إليه، ثم ثنى عزمه ما كان من خروج الأمير عبد الرحمن بناحية بطوية فشغله شأنه عن ذلك.

الخبر عن إجازة الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن إلى المغرب واجتماع بطوية إليه وقيامهم بدعوته

كان محمد المخلوع ابن الأحمر قد رجع من رندة إلى ملكه بغرناطة في جمادى من سنة ثلاث وستين وسبعمائة وقتل له الطاغية عدوة الرئيس المنتزي على ملكه حين هرب من غرناطة إليه وفاءً بعهد المخلوع، واستوى على كرسيه واستقل بملكه، ولحق به كاتبه وكاتب أبيه محمد بن الخطيب فاستخلصه وعقد له على وزارته، وفوض إليه في القيام بملكه فاستولى عليه وملك هواه.

وكانت عينه ممتدة إلى المغرب وسكناه إلى أن نزلت به آفة في رياسته، فكان لذلك يقدم السوابق والوسائل عند ملوكه، وكان لأبناء السلطان أبي الحسن كلهم غيرة من ولد عمهم السلطان أبي علي ويخشونهم على أمرهم.

ولما لحق الأمير عبد الرحمن بالأندلس اصطفاه ابن الخطيب واستخلصه لنجواه، ورفع في الدولة رتبته وأعلى منزلته، وحمل السلطان على أن عقد له على الغزاة المجاهدين من زناتة مكان بني عمه من الأعياص، فكانت له آثار في الاضطلاع بها، ولما استبد السلطان عبد العزيز بأمره واستقل بملكه، وكان ابن الخطيب ساعياً في مرضاته عند السلطان، فدس إليه باعتقال عبد الرحمن بن كأبي يفلوسن ووزيره المطارد به مسعود بن ماساي، وأدار ابن الخطيب في ذلك مكره وحمل السلطان عليهما إلى أن سطا بهما ابن الأحمر واعتقلهما سائر أيام السلطان عبد العزيز وتغير الجومن بين ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب وأظلم فتنكر له، فنزع عنه إلى عبد العزيز إلىسلطان المغرب سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة لما قدم من الوسائل ومهد من السوابق فتقبله السلطان وأحلة من مجلسه محل الاصطفاء والقرب.

وخاطب ابن الأحمر في أهله وولده، فبعثهم إليه واستقر في جملة السلطان.

ثم تأكدت العداوة بينه وبين ابن الأحمر فرغب السلطان في ملك الأندلس وحمله عليه وتواعدوا لذلك عند مرجعه من تلمسان إلى المغرب.

ونمي ذلك إلى ابن الأحمر فبعث إلى السلطان بهدية لم يسمع بمثلها، انتقى فيها من متاع الأندلس وماعونها وبغالها الفارهة ومعلوجي السبي وجواريه، وأوفد بها رسله يطلب إسلام وزيره

ابن الخطيب إليه وأبى السلطان من ذلك ونكره، ولما هلك واستبد الوزير ابن غازي بالأمر تحيز إليه ابن الخطيب وداخله وخاطبه ابن الأحمر فيه بمثل ما خاطب السلطان، فلجّ واستنكف عن ذلك وأقبح الرد، وانصرف رسوله إليه، وقد رهب سطوته، فأطلق ابن الأحمر لحينه عبد الرحمن بن أبي يفلوسن وأركبه الأسطول وقذف به إلى ساحل بطوية ومعه الوزير مسعود بن ماسي ونهض إلى جبل الفتح ونازله بعساكره.

ونزل عبد الرحمن ببطوية في ذي القعدة من سنة أربع وسبعين وسبعمائة، ومعه وزيره مسعود بن ماساي، فاجتمع قبائل بطوية إليه وبايعوه على القيام بدعوته والموت دونه، واتصل الخبر بالوزير أبي بكر بن غازي فعقد لابن عمه محمد بن عثمان على سبتة وبعثه لسد ثغورها لما خشي عليها من ابن الأحمر، ونهض من فاس بالعساكر والإلة ونازل عبد الرحمن ببطوية، فامتنع عليه فقاتله أياماً ثم رجع إلى تازي ثم إلى فاس، ودخل الأمير عبد الرحمن تازى واستولى عليها، ودخل الوزير إلى فاس وقعد بمجلس الفصل، وهو مجمع العودة إلى تازى لتشريد عدوه إلى أن جاءه الخبر ببيعة السلطان أبي العباس أحمد بن السلطان أبي سالم حسبما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن بيعة السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم واستقلاله بالملك وما كان خلال ذلك من الأحداث

لما نزل محمد بن عثمان بالثغر من سبتة لسد فروجها، ومدافعة ما يخشى من عادية ابن الأحمر عليها، وكان قد طاول حصار جبل الفتح واخذ بمخنقه، وتكررت المواصلة بينه وبين محمد بن عثمان بالعتاب، فاستعتب له وقبح ما جاء به ابن عمه من الاستغلاظ له، فوجد ابن الأحمر بذلك السبيل إلى غرضه، وداخله في البيعة لابن السلطان أبي سالم من الأبناء الذين كانوا بطنجة تحت الرقبة والحوطة، وأن يقيمه للمسلمين سلطاناً مستبداً يجول بسياجهم ويدافع عنهم ولا يتركهم فوضى وهملاً.

ويجب بيعة الصبي الذي لم تنعقد بيعته شرعاً، واختص هذا بالسلطان من بين أولئك الأولاد وفاءً بحقوق أبيه، ووعده بالمظاهرة على ذلك، واشترط عليه أن ينزلوا له عن الجبل إذا انعقد أمرهم، ويشخصوا إليه بيعة الأبناء والقرابة من طنجة ليكونوا في إيالته وتحت حوطته، وأن يبعثوا إليه بابن الخطيب متى قدروا عليه، وبعثوا إليه بقية الأبناء والقرابة فتقبل محمد بن عثمان شرطه وكان سفيره في ذلك أحمد الرعيني من طبقة كتاب الأشغال بسبتة، كان السلطان أبو الحسن تزوج أمه ليلة إجازته من واقعة طريف وافتقاد حظاياه، حتى لحق به الحرم من فاس، فردها إلى أهلها ونشأ الرعيني في توهم هذه الكفالة، فانتفخ نحره لذلك ويحسبها وصلة إلى أبناء السلطان أبي الحسن، وكان سفيراً بين محمد بن عثمان وابن الأحمر، فأمل رياسة في هذه الدولة، ركب محمد بن عثمان من سبتة إلى طنجة، وقصد مكان اعتقالهم.

واستدعى أبا العباس أحمد ابن السلطان أبي سالم من مكانه مع الأبناء فبايع له، وحمل الناس على طاعته، واستقدم أهل سبتة بكتاب البيعة، فقدموا وخاطب أهل الجبل فبايعوا، وأفرج ابن الأحمر عنهم.

وبعث إليه محمد بن عثمان بالنزول له عن جبل الفتح، وخاطبوا أهله بالرجوع إلى طاعته، فارتحل من مالقة إليه ودخله واستولى عليه، ومحا دعوة بني مرين مما وراء البحر، وأهدى للسلطان أبي العباس وأمده بعسكر من غزاة الأندلس وحمل إليه مالاً للإعانة على أمره.

وكان محمد بن عثمان عند فصوله من فاس، وودعه الوزير ابن عمه وفاوضه في شأن السلطان، وأن يقدم للناس إماماً يرجعون إليه ويترك لهم أمرهم وأمره في ذلك، ولم يفترقا على مبرم من أمرهم.

فلما ارتكب هذا المرتكب وجاء بهذا الأمر، خاطب الوزير يموه عليه بأنه فعل بمقتضى المؤامرة، وأنه عن إذنه والله أعلم بما دار بينهما ولج الوزير في تكذيبه والبراءة للناس مما رمى به ولاطفه في نقض ذلك الأمر، ورد أبا العباس إلى مكانه مع الأبناء تحت الحوطة، وأبي محمد بن عثمان من ذلك ودافعه باجتماع الناس وانعقاد الأمر.

وبينما الوزير يروم ذلك جاءه الخبر بأن محمد بن عثمان أشخص الأبناء المعتقلين كلهم إلى الأندلس، وأنهم حصلوا في كفالة ابن الأحمر، فوجم وأعرض عن ابن عمه وسلطانه، ونهض إلى تازى ليفرغ من عدوه إليهم، فنازله الأمير عبد الرحمن وأخذ بمخنقه، واهتبل محمد بن عثمان الغرة في ملك المغرب، ووصله مدد السلطان ابن الأحمر وعسكره تحت رايته، عقدها عليهم لبوسف بن سليمان بن عثمان ين أبي العلاء من مشيخة الغزاة المجاهدين، وعسكر آخر من رجال الأندلس الناشبة يناهزون سبعماية.

وبعث ابن الأحمر رسله إلى الأمير عبد الرحمن باتصال اليد بابن عمه السلطان أبي العباس أحمد، ومظاهرته على ملك سلفه بفاس واجتماعهما لمنازلتهما، وعقد بينهما الاتفاق والمواصلة وأن يختص عبد الرحمن بملك سلفه فتراضيا، وزحف محمد بن عثمان وسلطانه إلى فاس خالفوا إليه الوزير وانتهوا إلى قصر ابن عبد الكريم، وبلغ الخبر إلى الوزير بمكانه من حصار تازى فانفض معسكره ورجع إلى فاس ونزل بكدية العرائس.

وانتهى السلطان أبو العباس أحمد إلى زرهون، فصمد إليه الوزير بعساكره، وصمم نحوه بمكانه من قنة الجبل، فاختل مصافه وانهزمت ساقة العسكر من ورائه، ورجع على عقبه مفلولاً وانتهب المعسكر ودخل إلى البلد الجديد وجأجأ بالعرب من أولاد حسين أن يعسكروا له بالزيتون ظاهر فاس، ويخرج بمجموعه إلى حللهم، فنهض إليهم الأمير عبد الرحمن من تازى بمن كان معه من العرب الأحلاف وشردهم إلى الصحراء، وشارف السلطان أبا العباس أحمد بمجموعة من العرب وزناتة، وبعثوا إلى والي سلفهم ونزمار بن عريف بمكانه من قصر مرادة الذي اختطه بملوية فجاءهم وأطلعوه على كامن أسرارهم، فأشار عليهم بالاجتماع والاتفاق فاجتمعوا بوادي النجا.

وحضر لعقدهم واتفاقهم وحلفهم على اتصال اليد على عدوهم ومنازلته بالبلد الجديد حتى تمكن اللّه إليه منه وارتحلوا بزحفهم إلى كدية العرائس في ذي القعدة من سنة خمس وسبعين وسبعمائة وبرز إليهم الوزير بعساكره فدارت الحرب وحمي الوطيس واشتد القتال ملياً.

ثم زحف إليه العسكران بساقتهما وآلتهما فاختل مصافه وانهزمت جيوشه وجموعه وأحيط به، وخلص إلى البلد الجديد بعد عصب بالريق.

وأضرب السلطان أبو العباس معسكره بكدية العرائس، ونزل الأمير عبد الرحمن بأزائه، وضربوا على البلد الجديد سياجاً بالبناء للحصار وأنزلوا بها أنواع القتال والإرهاب.

ووصلهم مدد السلطان ابن الأحمر من الرجالة الإندلسية.. حصارها، واحتكموا في ضياع ابن الخطيب بفاس، فهدموها وعاثوا فيها.

ولما كان فاتح سنة ست وسبعين وسبعمائة داخل محمد بن عثمان ابن عمه أبا بكر في النزول عن البلد الجديد والبيعة للسلطان، لما كان الحصار قد اشتد به ويئس من الصريخ، وأعجزه المال فأجاب واشترط عليهم الأمير عبد الرحمن التجافي عن أعمال مراكش، وأن يدينوه بها من سجلماسة فعقدوا له على كره، وطووا على المكر.

وخرج الوزير أبو بكر إلى السلطان أبي العباس أحمد، وبايعه واقتضى عهده بالأمان وتخلية سبيله من الوزارة فبذله.

ودخل السلطان أبو العباس إلى البلد الجديد سابع المحرم، وارتحل الأمير عبد الرحمن يومئذ إلى مراكش واستولى عليها، وارتحل معه علي بن عمر بن ويغلان شيخ بني مرين والوزير ابن ماساي، ثم نزع عنه ابن ماساي ألفاس لعهد كان قد اقتضاه من السلطان أبي العباس، وأجاز البحر إلى الأندلس واستقر بها في إيالة ابن الأحمر، واستقل السلطان أبو العباس ابن السلطان أبي سالم بملك المغرب ووزيره محمد بن عثمان بن ألكاس، وفوض إليه شؤونه وغلب على هواه.

وصار أمر الشورى إلى سليمان بن داود، كان نزع إليه من البلد الجديد من جملة أبي بكر بن غازي بعد أن كان أطلقه من محبسه، واستخلصه.

وجعل إليه مرجع إبرامه ونقضه فتركه أحوج ما كان إليه، ولحق بالسلطان أبي العباس بمكانه من حصار البلد الجديد.

فلما استوسق ملكه ألقى الوزير محمد بن عثمان إليه بمقاد الدولة، وصار إليه أمر الشورى ورياسة المشيخة.

واستحكمت المودة بينهم وبين السلطان ابن الأحمر وتأكدت المداخلة، وجعلوا إليه المرجع في نقضهم وإبرامهم لمكان الأبناء المرشحين في إيالته.

ولما ارتحل الأمير عبد الرحمن إلى مراكش نبذوا إليه العهد وتعللوا عليه بأن العقد الأول له: إنما كان على ملك سلفه ومراكش إنما ألجأهم إلى العقد عليها إلجاء، واعتزموا على النهوض إليه ثم أقصروا وانعقدت بينهم السلم سنة ست وسبعين وسبعمائة وجعلوا التخم بينهما أزمور وعقدوا على ثغرها لحسون بن علي الصبيحي فلم يزل عليها إلى أن هلك كما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن مقتل ابن الخطيب

ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد دار ملكه فاتح ست وسبعين وسبعمائة واستقل بسلطانه والوزير محمد بن عثمان مستبد عليه، وسليمان بن داود من أعراب بني عسكر رديف له، وقد كان الشرط وقع بينه وبين السلطان ابن الأحمر

عندما بويع بطنجة على نكبة ابن الخطيب وإسلامه إليه لما نمي إليه عنه أنه كان يغري السلطان عبد العزيز بملك الأندلس.

فلما زحف السلطان أبو العباس من طنجة ولقي الوزير أبو بكر بن غازي بساحة البلد الجديد، فهزمه السلطان ولاذ منه بالحصار، آوى معه ابن الخطيب إلى البلد الجديد خوفاً على نفسه، فلما استولى السلطان على البلد الجديد أقام أياماً، ثم أغراه سليمان بن داود بالقبض عليه فقبضوا عليه وأودعوه السجن وطيروا بالخبر إلى السلطان ابن الأحمر وكان سليمان بن داود شديد العداوة لابن الخطيب بما كان سليمان بن داود قد بايعه السلطان ابن الأحمر على مشيخة الغزاة بالأندلس، متى أعاده اللّه إلى ملكه.

فلما استقر له سلطانه أجاز إليه سفيراً عن عمر بن عبد اللّه ومقتضياً عهده من السلطان.

فصده ابن الخطيب عن ذلك بأن تلك الرياسة لأعياص الملك من آل عبد الحق، لأنهم يعسوب زناتة فرجع سليمان يائساً وحقد ذلك لابن الخطيب.

ثم جاور الأندلس بمحل إمارته من جبل الفتح، فكانت تقع بينه وبين ابن الخطيب مكاتبات ينفس كل واحد منهما بصاحبه بما يحفظه لما كمن في صدورهما.

وحين بلغ الخبر بالقبض على ابن الخطيب إلى السلطان ابن الأحمر بعث كاتبه ووزيره بعد ابن الخطيب، وهو أبو عبد اللّه بن زمرك، فقدم على السلطان أبي العباس وأحضر ابن الخطيب بالشورى في مجلسه الخاصة وأهل الشورى، وعرض عليه بعض كلمات وقعت له في كتابة، فعظم عليه النكير فيها فوبخ ونكل وامتحن بالعذاب بمشهد ذلك الملأ من الناس تل إلى محبسه، واشتوروا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه، وأفتى بعض الفقهاء فيه ودس سليمان بن داود إليه لبعض الأوغاد من حاشيته بقتله، فطرقوا السجن ليلاً ومعهم زعانفة جاؤوا في لفيف الخدم مع سفراء السلطان ابن الأحمر، وقتلوه خنقاً في محبسه، وأخرجوا شلوه من الغد فدفن في مقبرة باب المحروق، ثم أصبح من الغد على شافة قبره طريحاً وقد جمعت له أعواد وأضرمت عليه ناراً، فاحترق شعره واسود بشره، فأعيد إلى حفرته، وكان في ذلك انتهاء محنته وعجب الناس من هذه الشنعاء التي جاء بها سليمان واعتدوها من هناته وعظم النكير فيها عليه وعلى قومه وأهل دولته، واللّه الفعال لما يريد وكان عفا اللّه عنه أيام امتحانه بالسجن يتوقع مصيبة الموت، فتُجيش هواتفه لشعر يبكي نفسه ومما قال في ذلك:

بعدنا وإن جاورتنا البيوت ... وجثنا لوعد ونحن صموت
وأنفاسنا سكنت دفعةً ... كجهر الصلات تلاه القنوت
وكنا عظاماً فصرنا عظاماً ... وكنا نقوت فها نحن قوت
وكنا شموس سماء العلا ... عربن فباحت علينا السمون
فكم جدّلت ذا الحسام الظبا ... وذو البحث كم جذلته
وكم سيق للقبر في خرقةٍ ... فتى ملئت من كساه
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب ... وفات فمن ذا الذي لا يفوت
ومن كان يفرح منهم له ... فقل يفرح اليوم من لا يموت

الخبر عن إجازة سليمان بن داود الأندلس ومقامه بها إلى أن هلك

كان سليمان بن داود هذا منذ عضته الخطوب واختلفت عليه النكايات يروم الفرار بنفسه إلى الأندلس للمقامة مع الغزاة المجاهدين من قومه.

ولما استقر السلطان ابن الأحمر بفاس عند خلعه ووفادته على السلطان أبي سالم سنة إحدى وستين وسبعمائة داخله سليمان بن داود في تأميل الكون عنده، فعاهده على ذلك وأن يقدمه على الغزاة المجاهدين.

فلما عاد إلى ملكه وفد عليه سليمان بن داود بغرناطة في سبيل السفارة عن عمر بن عبد اللّه سنة ست وستين وسبعمائة وأن يؤكد عقده من السلطان، فحال دون ابن الخطيب وثنى رأي السلطان عن ذلك بأن شياخة الغزاة مخصوصة بأعياص الملك من بني عبد الحق لمكان عصابتهم بالأندلس، فأخفق أمل سليمان حينئذ وحقدها على ابن الخطيب ورجع إلى مرسله، ثم كانت نكبته أيام السلطان عبد العزيز فلم يخلص منها إلا بعد مهلكه، أطلقه أبو بكر بن غازي الأمر من بعده، ليعتضد بمكانه على شأنه.

فلما اشتد الحصار على ابن غازي خرج عنه سليمان ولحق بالسلطان أبي العباس ابن المولى أبي سالم بمكانه من ظاهر البلد الجديد، فكان ذلك من أسباب الفتح، ولما دخل السلطان إلى دار ملكه من البلد الجديد فاتح سنة ست وسبعين وسبعماية واستوسق أمره، رفع مجلس سليمان وأحله محل الشورى، واعتضد به وزيره محمد بن عثمان واستخلصه كما ذكرناه.

وكان يرجع إلى رأيه وهو في خلال ذلك يحاول اللحاق بالأندلس، فكان من أول أمره التقرب إلى السلطان ابن الأحمر بإغراء الوزير محمد بن عثمان بقتل ابن الخطيب مشنوئه، فتم ذلك لأول الدولة.

وجرت الأمور بعدها على الاعتمال في مرضاته إلى أن حاول السفارة إليه في أغراض سلطانه، سنة ثمان وسبعماية في صحبة ونزمار بن عريف، فتلقاهما السلطان ابن الأحمر بما يتلقى به أمثالهما وأغرب في تكرمتهما.

وأما ونزمار فانقلب راجعاً لأول بداية الرسالة، اقتضى من السلطان خطته لقواد أسطوله بتسهيل الإجازة متى رامها.

وخرج يتصيد فلحق بمرسى مالقة ودفع أمر السلطان بخطه إلى قائد الأسطول، فأجازه إلى سبتة ولحق بمكانه.

وأما سليمان فاعتزم على المقام عند ابن الأحمر وأقام هنالك خالصة ونجياً ومشاوراً، إلى أن هلك سنة إحدى وثمانين وسبعماية.

الخبر عن شأن الوزير أبي بكر بن غازي وما كان من تغريبه إلى مايرقة ثم رجوعه وانتقاضه بعد ذلك ومهلكه

لما اشتد الحصار بالوزير أبي بكر بن غازي وفنيت أمواله وأموال السلطان، وظن أنه أحيط به، داخله الوزير محمد بن عثمان من مكانهم بحصاره بالنزول عن البلد على الأمان والإبقاء فأجاب وخرج إلى السلطان أبي العباس بن أبي سالم، فعقد له أماناً بخطه، وتحول إلى داره بفاس وسلم سلطانه المنصوب للأمر، فتسلمه منه الوزير محمد بن عثمان، واشتد في الاحتياط عليه إلى أن بعثه إلى السلطان ابن الأحمر، فكان في جملة الأبناء عنده، ودخل السلطان أبو العباس إلى دار ملكه واقتعد سريره ونفذت في الممالك أوامره.

وأقام أبو بكر بن غازي على حاله بداره والخاصة يباكرونه والنفوس منطوية على تأميله، فغض به أهل الدولة وترددت فيه السعاية، وتقبض عليه السلطان وأشخصه إلى غساسة، وركب منها السفين إلى ميورقة آخر ست وسبعين وسبعمائة فأقام بها شهراً ومخاطباته مترددة إلى الوزير محمد بن عثمان.

ثم عطفته عليه رحم، فأذن له في القدوم على المغرب والمقامة بغساسة فقدمها أوائل سنة سبع وسبعين وسبعمائة واستبد بإمارتها، وبدا له رأي في تأميل الرتبة وظهر ما كان يخفيه لابن عمه من المنافسة، فخاطب السلطان ابن الأحمر من وراء البحر ولاطفه بالتحف والهدايا.

فكتب إلى ابن عمه محمد بن عثمان يحضه على إعادته إلى مكانه دفعاً لغوائله، فأبى من ذلك، وداخله ونزمار بن عريف في بعضها كذلك، فلج في الامتناع وعمل سلطانه على نبذ العهد إلى أبي بكر بن غازي، فتنكر له وأجمع المسير إليه بعساكر العرب، فخرج من فاس سنة تسع وسبعين وسبعمائة وبلغ الخبر إلى أبي بكر بن غازي فاستجاش بالعرب وأستحثهم للوصول، فوصل إليه الأحلاف من المعقل، وسرب فيهم أمواله، وخرج من غساسة فالقى بينهم، وعمد إلى بعض العرب الطارئين فنصبه للأمر مشبهاً ببعض أولاد السلطان أبي الحسن.

وزحف إليه السلطان حتى نزل بتازى، فأجفلت أحياء العرب أمام العساكر من بني مرين والجند، ونجا ابن غازي منهم ندمائه.

ثم داخله ونزمار بن عريف في الإذعان للسلطان عن شق الخلاف، فأجاب ووصل به إلى سدة الملك، فبعث به السلطان محتاطاً عليه إلى فاس فاعتقل بها.

ونزلت مقدمات العساكر بوادي ملوية، وداخل صاحب تلمسان منها رعب، فأوفد على السلطان من قومه وكبار مجلسه ملاطفاً ومدارياً، فتقبل منه وعقد له السلم، وأصدر به كتابه وعهده بخطه، وانكفأ راجعاً إلى حضرته بعد أن بعث العمال في تلك النواحي على جبايتها، فجمعوا له منها ما رضي.

ولما احتل بدار ملكه، أنفذ أمره بقتل أبي بكر بن غازي فقتل بمحبسه طعناً بالخناجر وذهب مثلاً في الأيام، واستوسق للسلطان أمره.

وأحكم العقد مع الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن صاحب مراكش واتصل بينهما، وترددت المهاداة منهما بعض إلى بعض، وإلى صاحب الأندلس وإليهما منه فامتلأت المغرب هدنة وأمناً، وانبعثت الآمال بساطاً وغبطة والحال متصلة على ذلك لهذا العهد آخر سنة إحدى وثمانين وسبعمائة أيام إشرافنا على هذا التأليف، والله مقدّر الليل والنهار.

الخبر عن انتقاض الصلح بين الأمير عبد الرحمن صاحب مراكش والسلطان أبي العباس صاحب فاس واستيلاء عبد الرحمن على أزمور ومقتل عاملها حسون بن علي

كان علي بن عمر كبير بني ورتاجن وشيخ بني ويغلان منهم، قد تحيز إلى الأمير عبد الرحمن منذ إجازته من الأندلس واستيلائه على تازى ثم زحفه إلى حصار البلد الجديد مع السلطان أبي العباس كما مر.

فوصل في جملته إلى مراكش، وكان صاحب شوراه وكبير دولته.

وكان يضطغن على خالد بن إبراهيم المبدازي شيخ حاحة من قبائل المصامدة ما بين مراكش وبلاد السوس، وقد كان علي بن عمر انتقض على ابن غازي الوزير المستبد بعد السلطان عبد العزيز، ولحق بالسوس.

ومر بخالد بن إبراهيم هذا فاعترضه في طريقه وأخذ الكثير من أثقاله ورواحله، وخلص هو إلى منجاته بالسوس، وقد حقد ذلك لخالد.

ثم بعث عن شيوخ المعقل عندما أجاز الأمير عبد الرحمن من الأندلس إلى نواحي تازى يروم اللحاق بهم، فوفدوا عليه.

وسار معهم إلى أحيائهم وأقام معهم وهو في طاعة الأمير عبد الرحمن ودعوته إلى أن اتصل به بين يدي حصاره البلد الجديد مع السلطان أبي العباس.

فلما فتح السلطان البلد الجديد أول سنة ست وسبعين وسبعماية واستولى على ملكهم بها، وفصل عبد الرحمن إلى مراكش كما كان الوفاق بينهم، وسار علي بن عمر في جملة الأمير عبد الرحمن إلى مراكش، واستأذنه في قتل خالد صاحبه، فلم يأذن له، فأحفظه ذلك وطوى عليه، وبعد أيام صعد إلى جبل وريكة في غرض من أغراض الدولة، وتقدم إلى حافده عامر ابن ابنه محمد بقتل خالد، فقتله في بعض الأيام بظاهر مراكش، ولحق بجده علي بن عمر بوريكة، فتلطف له الأمير عبد الرحمن وأرسله بالملاينة والاستعطاف.

ثم ركب إليه بنفسه واستخلصه ونزل به إلى مراكش فأقام معه أياماً.

ثم ارتاب ولحق بازمور وعاملها يومئذ حسون بن علي الصبيحي وأغراه بالإجلاب على عمل مراكش، وزحفوا جميعاً إلى عمل صنهاجة.

وسرح الأمير عبد الرحمن لمدافعتهم كبير دولته يومئذ وابن عمه عبد الكريم بن عيسى بن سليمان بن منصور بن بي مالك، وهو عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق، فخرج في العساكر ومعه منصور مولى الأمير عبد الرحمن، فلقوا علي بن عمر وهزموه وأخذوا سواده، ونجا إلى أزمور، ثم وفد هو وحسون بن علي إلى السلطان بفاس.

ووقعت أثناء ذلك المراسلة بين السلطانين، وانعقد بينهما الصلح.

فأقام علي بن عمر بفاس ورجع حسون بن علي إلى مكان عمله بأزمور، ثم انتقض ما بين السلطانين ثانياً.

وكان للأمير عبد الرحمن أخوان من ولد محمد بن يعقوب بن حسان الصبيحي وهما علي وأحمد، جرثوما بغي وفساد، وعدا على كبيرهما علي ابن عمه علي يعقوب بن علي بن حسان فقتله، واستعدى أخوه موسى عليه السلطان فأعداه.

وأذن له أن يثأر منه بأخيه فيقتله فجزع لذلك أحمد أخو علي، وهم بقتل موسى، فاستجار موسى بيعقوب بن موسى بن سيد الناس كبير بني ونكاسن، وصهر الأمير عبد الرحمن.

وأقام أياماً في جواره، ثم هرب إلى أزمور فلفحت نار الفتنة.

ونهض الأمير عبد الرحمن إلى أزمور فلم يطق حسون بن علي دفاعه فملكها عليه وقتله واستباحها.

وبلغ الخبر إلى السلطان بفاس فنهض في عساكره وانتهى إلى سلا.

ورجع الأمير عبد الرحمن إلى مراكش، وسار السلطان في اتباعه حتى نزل بفحص أكمليم قريباً من مراكش، وأقام هنالك نحواً من ثلاثة أشهر والقتال يتردد بينهم.

ثم سعى بين السلطانين في الصلح، فاصطلحوا على حدود العمالات أولاً، وانكفأ صاحب فاس إلى بلاده.

وبعث الحسن بن يحيى بن حسون الصنهاجي عاملاً على الثغر بأزمور، فأقام بها، وكان أصله من صنهاجة أهل وطن أزمور، وله سلف في خدمة بني مرين منذ أول دولتهم، وكان أبوه يحيى في دولة السلطان أبي الحسن عاملاً في الجباية بأزمور وغيرها.

وهلك في خدمته بتونس أيام مقام السلطان بها، وترك ولده

يستعملون في مثل ذلك، ونزع الحسن هذا منهم إلى الجندية فلبس شارتها وتصرف في الولاية المناسبة لها، واتصل بخدمة السلطان أبي العباس لأول بيعته بطنجة.

وكان يومئذ عاملاً بالقصر الكبير فدخل في دعوته وصار في جملته، وشهد معه الفتح واستعمله في خطط السيف، حتى ولاه أزمور هذه الولاية فقام بها كما ذكرناه.

وأما الصبيحيون فالخبر عن أوليتهم أن جدهم حسان من قبيلة صبيح من أفاريق سويد، جاء مع عبد اللّه بن كندوز الكمي من بني عبد الواد حين جاء من تونس وافداً على السلطان يعقوب بن عبد الحق إليه بتنجداع كما مر، وكان حسان من رعاة إبله.

فلما استقر عبد اللّه بن كندوز بناحية مراكش وأقطعه السلطان يعقوب في أعمالها، وكان الظهر الذي يحمل عليه السلطان متفرقاً في شاوية المغرب، فجمعه وجعله لنظر عبد اللّه بن كندوز، فجمع له الرعاة وكبيرهم يومئذ حسان الصبيحي، فكان يباشر السلطان في شأن ذلك الظهر ويطالعه في مهماته، فحصلت له بذلك مداخلة وأجتلبت إليه الحظ، حتى ارتفع وكبر.

ونشأ ولده في ظل الدولة وعزها وتصرفوا في الولايات فيها، وانفردوا بالشاوية فلم تزل ولايتها متوارثة فيهم منقسمة بينهم لهذا العهد إلى ما كانوا يتصرفون فيه من غير ذلك من الولايات، وكان لحسان من الولد علي ويعقوب وطلحة وغيرهم، ومن حسان هذا تفرعت شعوبهم في ولده، وهم لهذا العهد متصرفون في الدولة على ما كان سلفهم من ولاية الشاوية والنظر في رواحل السلطان والظهر الذي يحمل من الإبل، ولهم عدد وكثرة ونباهة في الدولة، واللّه أعلم.

الانتقاض الثاني بين صاحب فاس وصاحب مراكش ونهوض صاحب فاس إليه وحصاره ثم عودهما إلى الصلح

لما رجع السلطان إلى فاس على ما استقر من الصلح، طلب الأمير عبد الرحمن أن يدخل عمالة صنهاجة ودكاكة في أعماله، وكتب السلطان إلى الحسن بن يحيى عامل أزمور وتلك العمالة بأن يتوجه إليه ويسد المذاهب دونه في ذلك.

وكان الحسن بن يحيى مضطغناً على الدولة، فلما وصل إليه داخله في الخلاف وأن يملكه تلك العمالة، فازداد الأمير عبد الرحمن بذلك قوة على أمره، وتعلل على صاحب فاس بأن يكون حدوداً بين الدولتين ووادي أم ربيع.

واستمر صاحب فاس على الإباية من ذلك، فنهض الأمير عبد الرحمن من مراكش، ودخل الحسن بن يحيى في طاعته فملكها، وبعث مولاه منصوراً في العساكر إلى أنف فاستولى عليها وصادر أعيانها وقاضيها ووواليها وبلغ الخبر إلى السلطان، فنهض من فاس في عساكره، وانتهى إلى سلا، فهرب منصور من أنف وتركها.

ولحق بمولاه عبد الرحمن فأجفل من أزمور إلى مراكش، والسلطان في أثره حتى انتهى إلى قنطرة الوادي، على غلوة من البلد، وأقام خمسة أشهر يحاصرها، واتصل الخبر بالسلطان ابن الأحمر صاحب الأندلس، فبعث خالصته الوزير أبا القاسم ابن الحكيم الرندي ليعقد الصلح بينهما، فعقده على أن استرهن السلطان أولاد الأمير عبد الرحمن وحافدا أبي الحسن، وانكفأ السلطان راجعاً إلى سلا.

ولحق به جماعة من جملة الأمير عبد الرحمن من بني مرين وغيرهم، نزعوا عنه، وكان منهم أحمد بن محمد بن يعقوب الصبيحي لقي في طريقه مولى الأمير عبد الرحمن، جاء به مكرهاً إلى السلطان.

وكان من النازعين أيضاً يعقوب بن سيد الناس كبير بني ونكاسن، وأبو بكر بن رحو بن الحسن بن علي بن أبي الطلاق، ومحمد بن مسعود الإدريسي وزيان بن علي بن عمر الوطاسي وغيرهم من المشاهير.

وقدموا على السلطان بسلا فتقبلهم وأحسن كرامتهم، ورحل راجعاً إلى فاس. واللّه أعلم.

انتقاض علي بن زكريا شيخ الهساكرة على الأمير عبد الرحمن وفتكه بمولاه منصور ومقتل الأمير عبد الرحمن

لما رجع السلطان إلى فاس وبدا من الخلل في دولة الأمير عبد الرحمن وانتقاض الناس عليه ما قدمناه، نزع يده من التعويد على العساكر، وشرع في تحصين البلد.

وضرب الأسوار على القصبة وحفر الخنادق وتبين بذلك اختلال أمره.

وكان علي بن زكريا شيخ هسكورة كبير المصامدة في دعوته منذ دخل مراكش فتلافى أمره مع صاحب فاس، ومد إليه يداً من

طاعته.

ثم انتقض على الأمير عبد الرحمن ودخل في دعوة السلطان، وبعث إليه الأمير عبد الرحمن مولاه منصوراً يستألفه، فأرصد إليه في طريقه من حاشيته من قتله، ثم بعث برأسه إلى فاس، فنهض السلطان في عساكره إلى مراكش.

واعتصم الأمير عبد الرحمن بالقصبة وقد كان أفردها عن المدينة بالأسوار.

وخندق عليها فملك السلطان المدينة ورتب على القصبة المقاتلة من كل جهة، ونصب الآلة وأدار عليها من جهة المدينة حائطاً وأقام يحاصرها سبعة أشهر يغاديها بالقتال ويراوحها.

وكان أحمد بن محمد الصبيحي من الذين بوّئوا المقاعد لقتالها، فهم بالانتقاض وحدثته نفسه بغدرة السلطان والتوثب به.

وسعى بذلك إلى السلطان، فتقبض عليه وحبسه.

وبعث السلطان بالنفير إلى أعماله فتوافت الأمداد من كل ناحية، وبعث صاحب الأندلس إليه مدداً من العسكر.

فلما اشتد الحصار بالأمير عبد الرحمن ونفذت الأقوات، وأيقن أصحابه بالهلاك، وأهمتهم أنفسهم.

فهرب عنه وزيره نحُو بن العلم من بقية محمد بن عمر شيخ الهساكرة والمصامدة لعهد السلطان أبي الحسن وابنه، وقد مر ذكره.

فلما لحق هذا بالسلطان وعلم أنه إنما جاء مضطراً قبض عليه وحبسه.

ثم انفض الناس عن الأمير عبد الرحمن ونزلوا من الأسوار ناجين إلى السلطان.

وأصبح في قصبته منفرداً، وقد بات ليلته يراوض ولديه على الاستماتة وهما: أبو عامر وسليم.

وركب السلطان من الغد في التعبية وجاء إلى القصبة فاقتحمها بمقدمته، ولقيهم الأمير عبد الرحمن وولداه بأسارك الميدان الذي بين أبواب دورهم، فجالوا معهم جولة قتل فيها هو وولداه، تولى قتلهم علي بن إدريس الثنالقي وزيان بن عمر الوطاسي وطالما عما كان زيان يمتري يدي نعمهم ويجر ذيله خيلاء في جاههم، فذهب مثلا في كفران النعمة وسوء الجزاء، والله لا يظلم مثقال ذرة.

وكان ذلك خاتم جمادى الآخرة سنة أربع وثمانين وسبعماية.

ثم رحل السلطان منقلباً إلى فاس، وقد استولى على سائر أعمال المغرب، وظفر بعدوه ودفع النازعين عن ملكه، والله أعلم.

اجلاب العرب على المغرب في مغيب السلطان بقريبه من ولد أبي علي وبأبي تاشفين بن أبي حمو صاحب تلمسان ومجيء أبي حمو على أثرهم

كان أولاد حسين من عرب المعقل مخالفين على السلطان من قبل مسيره إلى مراكش.

وكان شيخهم يوسف بن علي بن غانم قد حدثت بينه وبين الوزير القائم على الدولة محمد بن عثمان منافرة وفتنة.

وبعث العساكر إلى سجلماسة، فخرب ما كان له بها من العقار والأملاك، وأقام منتقضاً بالقفر.

فلما حاصر السلطان الأمير عبد الرحمن بمراكش وأخذ بمخنقه أرسل أبا العشائر ابن عمه منصور إلى يوسف بن علي وقومه، ليجلبوا به على المغرب ويأخذوا بحجزة السلطان عن حصاره، فسار لذلك ولما قدم على يوسف سار به إلى تلمسان مستجيشاً بالسلطان أبي حمو لذلك القصد، بما كان بينه وبين الأمير عبد الرحمن من العهد على ذلك.

فبعث أبو حمو معهم ابنه أبا تاشفين في بعض عساكره، وسار في الباقين على أثرهم.

وسار أبو تاشفين وأبو العشائر إلى أحياء العرب، فدخلوا إلى أحواز مكناسة وعاثوا فيها.

وكان السلطان عند سفره إلى مراكش استخلف على دار ملكه بفاس علي بن مهدي العسكري في جماعة من الجند.

واستنجد بونزمار بن عريف شيخ سويد وولي الدولة المقيم بأحيائه بنواحي ملوية، فخالف بين العرب المعقل واستألف منهم العمارنة والمنبات وهم الأحلاف واجتمع مع علي بن مهدي، وساروا لمدافعة العدو بنواحي مكناسة فصدوهم عن مرامهم ومنعوهم من دخول البلاد فأقاموا متواقفين أياماً.

وقصد أبو حمو في عسكره مدينة تازى وحاصرها سبعاً، وخرب قصر الملك هنالك ومسجده المعروف بقصر تازورت.

وبينما هم على ذلك بلغ الخبر اليقين بفتح مراكش وقتل الأمير عبد الرحمن، فأجفلوا من كل ناحية.

وخرج أولاد حسين وأبو العشائر وأبو تاشفين والعرب الأحلاف في اتباعهم، وأجفل أبو حمو عن تازى راجعاً إلى تلمسان ومر بقصر ونزمار في نواحي بطوية المعروف بمرادة، فهدمه ووصل السلطان إلى فاس وقد تم له الظهور والفتح إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

نهوض السلطان إلى تلمسان وفتحها وتخريبها

كان السلطان لما بلغه ما فعل العرب وأبو حمو بالمغرب لم بشغله ذلك عن شأنه، ونقم على أبي حمو ما أتاه من ذلك، وأنه نقض عهده من غير داع إلى النقض.

فلما احتل بدار ملكه بفاس أراح أياماً، ثم أجمع عزمه على النهوض إلى تلمسان.

وخرج في عساكره على عادتهم وانتهى إلى تاوريرت.

وبلغ إلى أبي حمو، فاضطرب في أمره واعتزم على الحصار، وجمع أهل البلد عليه واستعدوا له.

ثم خرج في بعض تلك الليالي بولده وأهله وفي خاصته، وأصبح مخيماً بالصفصف وانفض أهل البلد إليه بعضهم بعياله وولده مستمسكين به، متفادين من معرة هجوم عساكر المغرب ولم يزعه ذلك عن قصده، وارتحل ذاهباً إلى البطحاء.

ثم قصد بلاد مغراوة فنزل في بني بو سعيد قريباً من شلف، وأنزل ولده الأصاغر وأهله بحصن تاجحمومت.

وجاه السلطان إلى تلمسان فملكها واستقر بها أياماً.

ثم هدم أسوارها وقصور الملك بها، بإغراء وليه ونزمار جزاء بما فعله أبو حمو في تخريب قصر تازروت وحصن مرادة.

ثم خرج من تلمسان في اتباع أبي حمو، ونزل على مرحلة منها.

وبلغه الخبر هنالك بإجازة السلطان موسى ابن عمه أبي عنان من الأندلس إلى المغرب وأنه خالفه إلى دار الملك، فانكفأ راجعاً وأغذ السير إلى المغرب كما نذكر.

ورجع أبو حمو إلى تلمسان واستقر في ملكه بها، كما تقدم في أخباره.

إجازة السلطان موسى ابن السلطان أبي عنان من الأندلس إلى المغرب واستيلائه على الملك وظفره بابن عمه السلطان أبي العباس وإزعاجه إلى الأندلس

قد تقدم أن السلطان محمد بن الأحمر المخلوع، كان له تحكم في دولة السلطان أبي العباس بن أبي سالم صاحب المغرب بما كان من إشارته على محمد بن عثمان ببيعته وهو معتقل بطنجة، ثم بما أمده من مدد العساكر والأموال، حتى تمّ أمره واستولى على البلد الجديد كما قدمناه في أول خبره، وبما كان له من الزبون عليهم بالقرابة المرشحين الذين كانوا معتقلين بطنجة مع السلطان أبي العباس من أسباط السلطان أبي الحسن من ولد أبي عنان وأبي سالم والفضل وأبي عامر وأبي عبد الرحمن وغيرهم.

وكانوا متعاهدين في معتقلهم أن من أتاح الله له الملك منهم فيخرجهم من الاعتقال ويجيزهم إلى الأندلس.

فلما بويع السلطان أبو العباس وفى لهم بهذا العهد وأجازهم، فنزلوا على السلطان ابن الأحمر أكرم نزل، أنزلهم بقصور ملكه بالحمراء وقرب لهم المراكب، وأفاض عليهم العطاء ووسع لهم الجرايات والأرزاق وأقاموا هنالك في ظل ظليل من كنفه فكان له بهم زبون على ملك المغرب وكان الوزير القائم بها محمد بن عثمان يقدر له قدر ذلك كله فيجري في أغراضه وقصوده وتحكمه في الدولة ما شاء ا لله أن يحكمه، حتى توجهت الوجوه إلى ابن الأحمر وراء البحر من شيوخ بني مرين والعرب، وأصبح المغرب كأنه من بعض أعمال الأندلس.

ولما نهض السلطان إلى تلمسان خاطبوه وأوصوه بالمغرب، وأنزل محمد بن عثمان بدار الملك كاتبه محمد بن الحسن، كان مصطنعاً عنده من بقية شيع الموحدين ببجاية، فاختصه ورقاه واستخلفه في سفره هذا على دار الملك.

فلما انتهوا إلى تلمسان وحصل له من الفتح ما حصل، كتبوا بالخبر إلى السلطان ابن الأحمر مع شيطان من ذرية عبو بن قاسم المزواد كان بدارهم وهو عبد الواحد بن محمد بن عبو كان يسمو بنفسه إلى العظائم التي ليس لها بأهل ويتربص لذلك بالدولة.

وكان ابن الأحمر مع كثرة تحكمه فيهم يجني عليهم بعض الأوقات بما يأتونه من تقصير في شفاعة أو مخالفة في أمر لا يجدون

عنها وليجة، فيضطغن لهم ذلك.

فلنا قدم عليه عبد الواحد هذا بخبر الفتح وقص عليه القصص، دس له أن أهل الدولة مضطربون على سلطانهم ومستبدلون به لو وجدوا، وأبلغ من ذلك ما حمل ولم يحمل.

وأشار له بخلاء المغرب من الحامية جملة وأن دار الملك ليس بها إلا كاتب حضري لا يحسن المدافعة، وهو أعرف به، فانتهز ابن الأحمر الفرصة وجهز موسى ابن السلطان أبي عنان من الأسباط المقيمين عنده.

واستوزر له مسعود بن رحو بن ماساي من طبقة الوزراء من بني مرين ومن بني فودود من أحلافهم.

وله في ذلك سلف وقد كان بعثه من قبل وزيراً للأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن حين أجاز إلى المغرب أيام استبداد أبي بكر بن غازي، فلم يزل معه حتى كان حصار البلد الجديد واستيلاء السلطان أبي العباس عليها.

وذهب الأمير عبد الرحمن إلى مراكش فاستأذنه مسعود في الانصراف إلى الأندلس، فأذن له ورجع عنه إلى فاس.

ثم فارقهم وأجاز إلى الأندلس متودعاً ومتوداً للكل ومعولاً على ابن الأحمر، فتلقاه بالقبول وأوسع له بالنزول والجراية وخلطه بنفسه وأحضره مع ندمائه، ولم يزل كذلك إلى أن جهزه وزيراً للمغرب مع موسى ابن السلطان أبي عنان وبعث معهم عسكراً، ثم ركب معهم السفين إلى سبتة وكانت بينه وبين شرفائها ورؤساء الشورى بها مداخلة، فقاموا بدعوة السلطان موسى وأدخلوه وقبضوا على عاملها رحو بن الزعيم المكدولي وجاؤوا به إلى السلطان فملكها غرة صفر من سنة ست وثمانين وسبعمائة وسلمها إلى ابن الأحمر، فدخلت في طاعته وسار هو إلى فاس، فوصلها لأيام قريبة، وأحاط بدار الملك، واجتمع إليه الغوغاء، ونزل الدهش بمحمد بن الحسن فبادر بطاعته.

ودخل السلطان موسى إلى دار الملك، وقبض عليه لوقته، وذلك في عاشر ربيع الأول من السنة.

وجاء الناس بطاعتهم من كل جانب، وبلغ الخبر إلى السلطان أبي العباس بمكانه من نواحي تلمسان بأن السلطان موسى قد نزل بسبتة، فجهز علي بن منصور ترجمان الجند النصارى ببابه مع طائفة منهم، وبعثهم حامية لدار الملك فانتهوا إلى تازى وبلغهم خبر فتحها فأقاموا هنالك.

وأغذ السلطان أبو العباس السير إلى فاس، فلقيه خبر فتحها بتاوريرت فتقدم إلى ملوية وتردد في رأيه بين المسير إلى سجلماسة مع العرب أو قصد المغرب.

ثم استمر عزمه، ونازل بتازى وأقام بها أربعاً، وتقدم إلى الركن، وأهل دولته خلال ذلك يخوضون في الانتقاض عليه ميلاً إلى ابن عمه السلطان موسى المستولي على فاس، ويوم أصبح من الركن مرتحلاً أرجفوا به، ثم انفضوا عنه طوائف قاصدين فاس، ورجع هو إلى تازى بعد أن انتهب معسكره وأضرمت النار في خيامه وخزائنه.

ثم صبح تازى من ليلته فدخلها، وعاملها يومئذ الخير من موالي السلطان أبي الحسن.

وذهب محمد بن عثمان إلى ولي الدولة ونزمار بن عريف وأمراء المغرب من المعقل.

ولما دخل السلطان أبو العباس إلى تازى كتب إلى ابن عمه السلطان موسى يذكره العهد بينهما، وقد كان السلطان ابن الأحمر عهد إليه أن يبعث به إليه إن ظفر به، فبادر السلطان موسى باستدعائه مع جماعة من وجوه بني عسكر، أهل تلك الناحية، وهم زكريا بن يحيى بن سليمان ومحمد بن سليمان داود بن عراب، ومعهم العباس بن عمر الوسناني فجاؤوا به وأنزلوه بالزاوية بغدير الحمص من ظاهر فاس، فقيد هنالك ثم بعثه إلى الأندلس موكلاً به مع عمر بن رحو أخي الوزير مسعود بن ماساي.

واستصحب معه ابنه أبا فارس وترك سائرهم بفاس وأجاز البحر من سبتة فأنزله السلطان ابن الأحمر بقلعة ملكه الحمراء، وفك قيوده ووكل به، ووسع له الجراية وأقام هنالك محتاطاً به إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

نكبة الوزير محمد بن عثمان ومقتله

أصل هذا الوزير من بني الكاس إحدى بطون بني ورتاجن، وكان بنو عبد الحق عندما تأثلوا ملكهم بالمغرب يستعملون منهم في الوزارة.

وربما وقعت بينهم وبين الحشم وبني فودود المختصين بالوزارة عندهم مزاحمة، أجازوا بسببها إلى الأندلس، وربما وقع بينهم هنالك وبين بني إدريس وبني عبد الله منافسات، قتلوا فما بعض بني الكاس، منهم في دولة السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن، وتهذب بالخلال ثم استوزره السلطان أبو الحسن بعد مهلك وزيره يحيى بن طلحة ابن محلى بمكانه من حصار تلمسان، وقام بوزارته أعواماً، وحضر معه واقعة طريف سنة إحدى

وأربعين وسبعماية من هذه المائة، واستشهد فيها، ونشأ ابنه أبو بكر في ظل الدولة ممتعاً بحسن الكفالة وسعة الرزق، وكانت أمه أم ولد، وخلفه عليها ابن عمه محمد بن عثمان هذا الوزير، فنشأ أبو بكر في حجره.

وكان أعلى رتبة منه بأولية أبيه وسلفه، حتى إذا بلغ أشده واستوى سمت به الخلال، وجالت أبصار الملوك في اختياره وترشيحه، حتى استوزره السلطان عبد العزيز كما قلناه.

وقام بوزارته أحسن قيام، وأصبح محمد بن عثمان هذا رديفه.

وهلك السلطان عبد العزيز فنصب الوزير أبو بكر ابنه السعيد للملك صبياً لم يثغر، وكان من انتقاض أمره وحصاره بالبلد الجديد واستيلاء السلطان أبي العباس عليه ما قدمناه، وقام محمد بن عثمان بوزارة السلطان أبي العباس مستبداً عليه، ودفع إليه أمور ملكه، وشغل بلذاته، فعانى محمد بن عثمان من أمور الدولة ما عاناه حتى كان من استيلاء السلطان موسى على ملكهم ما مر.

وانفض بنو مرين عن السلطان أبو العباس وفارقه محمد بن عثمان إلى ولي الدولة ونزمار بن عريف وهو مقيم بظاهر تازى، وتذمم له فتجهم له ونزمار وأعرض عنه، فسار مغذاً إلى أحياء المنبات من عرب المعقل.

كانوا هنالك قبلة تازى لذمة صحابة كانت بينه وبين شيخهم أحمد ابن عبو فنزل عليه متذمماً، فخادعه وبعث بخبره إلى السلطان، فجهز إليه عسكراً مع المزوار عبد الواحد بن محمد بن عبو بن قاسم وزروق بن توقريطت والحسن أوافو من الموالي فتبرأ منه العرب وأسلموه إليهم، فجاؤوا به وأشهره يوم دخوله إلى فاس.

واعتقل أياماً وامتحن في سبيل المصادرة حتى استصفى، ثم قتل ذبيحاً بمحبسه، واللّه وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوراثين.

الخبر عن خروج الحسن بن الناصر بغمارة ونهوض الوزير ابن ماساي إليه بالعساكر

لما استقل السلطان موسى بملك المغرب وقام مسعود بن ماساي بوزارته مستبداً عليه، وكان من تغريبهم السلطان أبا العباس إلى الأندلس ونكبتهم وزيره محمد بن عثمان وقتلهم إياه وافتراق أشياع الوزير محمد بن عثمان من قرابته وبطانته، فطلبوا بطن الأرض ولحق منهم ابن أخيه العباس بن المقداد بتونس، فوجد هنالك الحسن بن الناصر ابن السلطان أبي علي قد لحق بها من مقره بالأندلس في سبيل طلب الملك فثاب له رأي في الرجوع به إلى المغرب لطلب الأمر هنالك، فسرح به من تونس وقطع المفاوز والمشاق إلى أن انتهى إلى جبل غمارة، ونزل على أهل الصفيحة منهم، فأكرموا مثواه وتلقيه، وأعلنوا بالقيام بدعوته، واستوزر العباس بن المقداد.

وبلغ الخبر إلى مسعود ابن ماساي بفاس، فجهز العساكر مع أخيه مهدي بن ماساي، فحاصرها بجبل الصفيحة أياماً، وامتنع عليهم، فتجهز الوزير مسعود بن ماساي بالعساكر لطلبه من دار الملك وساروا لحصاره، ثم رجع من طريقه لما بلغه من وفاة السلطان بعد واللّه أعلم.

وفاة السلطان موسى والبيعة للمنتصر ابن السلطان أبي العباس

كان السلطان موسى لما استقل بملك المغرب استنكف من استبداد ابن ماساي عليه وداخل بطانته في الفتك به.

وأكثر ما كان يفاوض في ذلك كاتبه وخالصته محمد ابن كاتب أبيه، وخالصته محمد بن أبي عمر.

وكان للسلطان موسى ندمان يطلعهم كل الكثير من أموره منهم العباس بن عمرو بن عثمان الوسناقي، وكان الوزير مسعود بن ماساي قد خلف أباه عمر على أمه وربي في حجر، فكان يدلي إليه بذلك،ويشي له بما يدور في مجلس السلطان في شأنه.

فحصلت للوزير بسبب ذلك نفرة طلب لأجلها البعد عن السلطان، وبادر للخروج لمدافعة الحسن القائم بغمارة واستخلف على دار الملك أخاه يعيش بن رحو بن ماساي.

فلما انتهى إلى القصر الكبير لحقه الخبر بوفاة السلطان موسى، وكانت وفاته في شهر جمادى الآخرة طرقه المرض فهلك ليوم وليلة حتى.

كان الناس يرمون يعيش أخا الوزير بأنه سمه، وبادر يعيش فنصب ابن أخيه للملك، وهو المنتصر ابن السلطان أبي العباس، وانكفأ الوزير مسعود راجعاً من القصر، وقتل السبيع محمد بن موسى بن إبراهيم موسى من طبقة الوزراء، وقد مر ذكره وذكر قومه، وكان اعتقله أيام السلطان موسى فقتله بعد وفاته،

واستمرت أمور الدولة في استقلاله والله أعلم.

إجازة الواثق محمد بن أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن من الأندلس والبيعة له بفاس

كان الوزير مسعود بن ماساي لما استوحش من السلطان موسى بعث ابنه يحيى وعبد الواحد المزوار إلى السلطان ابن الأحمر يسأل منه إعادة السلطان أبي العباس إلى ملكه فأخرجه ابن الأحمر من الاعتقال وجاء به إلى جبل الفتح يروم إجازته إلى العدوة.

فلما توفي السلطان موسى بدا للوزير مسعود في أمره، ودس للسلطان ابن الأحمر بردّه، وأن يبعث إليه بالواثق محمد بن أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن من القرابة المقيمين عنده.

ورآه أليق بالاستبداد والحجر، فأسعفه ابن الأحمر في ذلك، ورد السلطان أحمد إلى مكانه بالحمراء، وجاء بالواثق فحضر بجبل الفتح عنده وفي خلال ذلك وصل جماعة من أهل الدولة انتقضوا على الوزير مسعود، ولحقوا بسبتة وأجازوا إلى السلطان ابن الأحمر وهم يعيش بن علي بن فارس الياباني وسيور بن يحياتن بن عمر الونكاسني وأحمد بن محمد الصبيحي، فرفع إليهم الواثق، ورجعوا به إلى المغرب على أنهم في خدمة الوزير، حتى إذا انتهوا إلى جبل زرهون المطل على مكناسة أظهروا الخلاف على الوزير وصعدوا إلى قبائل زرهون واعتصموا بجبلهم.

ولحق بهم من كان على مثل دينهم من الخلاف على ابن ماساي وصاروا معهم يداً مثل طلحة بن الزبير الورتاجني وسيور بن يحياتن بن عمر الونكاسني ومحمد التونسي من بني أبي الطلاق وفارح بن مهدي من معلوجي السلطان، وأصله من موالي بني زيان ملوك تلمسان.

وكان أحمد بن محمد الصبيحي من حين جاء مع الواثق قد استطال عل أصحابه فأظهر الاستبداد بما كان من طائفة الجند المستخدمين، فغض به أهل الدولة وتبرأوا منه للسلطان الواثق، فأظهر لهم البراءة منه، فوثبوا به وقتلوه عند باب خيمة السلطان، وتولى كبر ذلك يعيش بن علي بن فارس الياباني كبير بني مرين، فذهب مثلاً في الغابرين، ولم تبك عليه سماء ولا أرض.

وكان رروق ابن توقريطت من موالي بني علي بن زيان من شيوخ بني وانكاسن وكان من أعيان الدولة ومقدمي الجند، قد انتقض على الدولة أيام السلطان موسى ولحق بأحياء أولاد حسين من عرب المعقل المخالفين منذ أيام السلطان موسى، ونزل على شيخهم موسى بن بن غانم لذمة صحابة بينهما من جوارهم في المواطن.

وكان معه في ذلك الخلاف محمد بن يوسف بن علال، كان أبوه يوسف من صنائع السلطان أبي الحسن، ونشأة دولته استوحشا من الوزير، فلحقا بالمغرب فلما جاء هذا السلطان الواثق قدما عليه، فلقيهما بالتكرمة وأحلهما في مقامهما من الدولة، وخرج الوزير مسعود بن ماساي في العساكر، ونزل قبالتهم بجبل مغيلة وقاتلهم هناك أياماً وداخل الذين مع الواثق واستمالهم.

وبعث عساكر إلى مكناسة فحاصروها، وكان بها يومئذ عبد الحق بن الحسن بن يوسف الورتاجني، فاستنزله منها وملكها، وترددت المراسلات بينه وبين الواثق وأصحابه على أن ينصبه للأمر.

وبعث بالمنتصر المنصوب عنده إلى أبيه السلطان أبي العباس بالأندلس وانعقد الأمر بينهم على ذلك.

وسار الواثق في أصحابه إلى الوزير ابن ماساي فنزل عليه، ومضى يعيش بن علي بن فارس عنهم ذاهباً لوجهه.

وسار الوزير بالواثق إلى دار الملك، فبايعه في شوال سنة ثمان وثمانين وسبعماية بعد أن اشترط عليه لنفسه وأصحابه ما شاء.

وأجاز سلطانه المنتصر إلى أبيه السلطان أبي العباس بالأندلس وقبض على جماعة ممن كان مع الواثق مثل المزوار عبد الواحد وقتله، وعلى فارح بن مهدي وحبسه، وعلى الخير مولى الأمير عبد الرحمن وامتحنه، وعلى آخرين سواهم.

ثم قبض على جماعة من بطانة السلطان موسى كانوا يداخلونه في الفتك به، فحبسهم وقتل بعضهم.

وعلى جند الأندلس الذين جاؤوا مدداً للواثق، وعلى قوادهم من معلوجي ابن الأحمر فأودعهم السجون.

ثم قبض على كاتب السلطان موسى بن أبي الفضل بن أبي عمر مرجعه من السفارة عن سلطانه إلى الأندلس، فاعتقله وصادره ثم أخلى سبيله ثم بعث إلى الحسن بن الناصر الثائر بجبل الصفيحة من غمارة مع إدريس بن موسى بن يوسف الياباني، فخادعه باستدعائه للملك والبيعة له، فخدعه واستنزله وجاء به فاعتقله الوزير أياماً ثم أجازه إلى الأندلس، واستقر الأمر على ذلك، والله أعلم.

الفتنة بين الوزير ابن ماساي وبين السلطان ابن الأحمر واجازة السلطان أبي العباس إلى سبتة لطلب ملكها واستيلاؤه عليها

لما بلغ الوزير ابن ماساي للواثق ورأى أنه قد استقل بالدولة ودفع عنها الشواغب وصرف نظره إلى استرجاع ما فرط من أعمال الدولة، وافتتح أمره بسبتة، كان السلطان موسى لأول إجازته أعطاها لابن الأحمر كما مر.

فبعث إليه الآن الوزير ابن ماساي في ارتجاعها منه على سبيل الملاطفة، فاستشاط لها ابن الأحمر ولج في الرد، فنشأت الفتنة لذلك، وجهز ابن ماساي العساكر لحصار سبتة مع العباس بن عمر بن عثمان الوسناني ويحيى بن علال بن أمصمود، والرئيس محمد بن محمد الأبكم من بني الأحمر.

ثم من بيت السلطان الشيخ فاتح أمرهم ومهد دولتهم، وراسل السلطان إشبيلية والجلالقة من بني أدفونش وراء البحر، بأن يبعث إليهم ابن عم السلطان ابن الأحمر محمد بن إسماعيل مع الرئيس الأبكم ليجلبا من ناحيته على الأندلس.

وجاءت عساكر الوزير إلى سبتة فحاصروها ودخلوها عنوةً.

واعتصم حامية الأندلس الذين كانوا بها بالقصبة، واتصلت الجولة بين الفريقين وسط البلد، وأوقد أهل القصبة النيران بالجبل علامة عل أمرهم ليراها ابن الأحمر، وكان مقيماً بمالقة، فبادر بتجهيز الأسطول مشحوناً بالمقاتلة مدداً لهم.

ثم استدعى السلطان أبا العباس من مكانه بالحمراء، وأركبه اسفين إلى سبته، فأصبح إلى القصبة في غرة صفر سنه تسع وثمانين وسبعماية وأشرف عليهم من الغد وناداهم من السور يدعوهم إلى طاعته.

فلما رأوه اضطربوا وافترقوا وخرج إليهم، فنهب سوادهم ودخلوا في طاعته متسايلين، ورجع جمهور العرب ومقدموهم إلى طنجة واستولى السلطان على مدينة سبتة.

وبعث إليه ابن الأحمر بالنزول عنها، وردها إليه فاستقرت في ملكه وكملت بها بيعته، وكان يوليه أمور الضيفان الواردين والله تعالى أعلم.

مسير السلطان أبي العباس من سبتة لطلب ملكه بفاس ونهوض ابن ماساي لدفاعه ورجوعه منهزماً

ولما استولى السلطان أبو العباس على سبتة وتم له ملكها، واعتزم على المسير لطلب ملكه بفاس، وأغراه ابن الأحمر بذلك ووعده بالمداد لما كان من مداخلة ابن ماساي لجماعة من بطانته في أن يقتلوه ويملكوا الرئيس الأبكم يقال: إن الذي داخله في ذلك من بطانة ابن الأحمر يوسف بن مسعود البلنسي، ومحمد ابن الوزير أبي القاسم بن الحكيم الرندي وشعر بهم السلطان ابن الأحمر وهو يومئذ على جبل الفتح يطالع أمور السلطان أبي العباس، فقتلهم جميعاً وإخوانهم.

ويقال: إن ذلك كان بسعاية القائم على دولته مولاه خالد، كان يغص بهم ويعاودهم، فاحتال عليهم بهذه.

وتمت سعايته بهم، فاستشاط ابن الأحمر غضباً على ابن ماساي، وبعث إلى السلطان أبي العباس يستنفره للرحلة إلى طلب ملكه، فاستخلف على سبتة رحو ابن الزعيم المكدودي عاملها من قبل كما مر وسار إلى طنجة وعاملها من قبل الواثق صالح بن حمو الياباني ومعه بها الرئيس الأبكم من قبل العساكر، فحاصرها أياماً وامتنعت عليه فجمر عليها عسكراً وسار معها إلى أصيلا، فدخلت في دعوته وملكها.

ونهض الوزير ابن فاس في العساكر بعد أن استخلف أخاه يعيش على دار الملك وسار.

ولحقت مقدمته بأصيلا ففارقها السلطان أبو العباس، وصعد إلى جبل الصفيحة، فاعتصم به وجاء الوزير ابن ماساي فتقدم إلى حصاره بالجبل، وجمع عليه رماة الرجل من الأندلس الذين كانوا بطنجة، وأقام يحاصره بالصفيحة شهرين.

وكان يوسف بن علي بن غانم شيخ أولاد حسين من عرب المعقل، مخالفاً على الوزير مسعود وداعية إلى السلطان أبي العباس وشيعة له، وكان يراسل ابن الأحمر في شأنه.

فلما سمع باستيلائه على سبتة وإقباله على فاس، جمع أشياعه من العرب، ودخل إلى بلاد المغرب ونزل ما بين فاس ومكناسة، وشن الغارات على البسائط واكتسحها، وأرجف الرعايا وأجفلوا إلى الحصون، وكان ونزمار بن عريف ولي الدولة شيعة للسلطان، وكان يكاتبه وهو بالأندلس ويكاتب ابن الأحمر في

شأنه.

فلما اشتد الحصار على السلطان بالصفيحة، بعث ابنه أبا فارس إلى ونزمار بمكانه من نواحي تازى، وبعث معه سيور بن يحياتن بن عمر، فقام ونزمار بدعوته، وسار به إلى مدينة تازى، وعاملها سليمان بن بوجيه الفودوي من قرابة الوزير ابن ماساي.

فلما نزل به أبو فارس ابن السلطان بادر إلى طاعته، وأمكنه من البلد، فاستولى عليها واستوزر سليمان هذا.

وسار إلى صفروي ومعه ونزمار للاجتماع بعرب المعقل وأصفاقهم على حصار فاس.

وكان محمد بن الدمعة عاملا على ورغة، فبعث إليه السلطان عسكراً مع العباس بن المقداد ابن أخت الوزير محمد بن عثمان فقتلوه وجاؤوا برأسه، ونجم الخلاف على يعيش نائب البلد الجديد من كل جهة، وطير يعيش بن ماساي النائب بدار الملك بالخبر بذلك كله إلى أخيه بمكانه من حصار السلطان بالصفيحة، فانفضت عنه العساكر وأجفل راجعاً إلى فاس.

وسار السلطان في اتباعه ودخل في طاعته عامل مكناسة، الخير مولى الأمير عبد الرحمن ولقيه يوسف بن علي بن غانم ومن معه من أحياء العرب، وساروا جميعا إلى فاس.

وكان أبو فارس ابن السلطان قد رحل من تازى إلى صفروي للقاء أبيه، فاعترضه الوزير ابن ماساي في العساكر ورجا أن يفله.

ولقيه ببني بهلول فنزع أهل العسكر إلى أبي فارس ورجع الوزير منهزماً ودخل البلد الجديد، فاعتصم بها وبلغ خبره إلى السلطان وهو بمكناسة، فارتحل يغذ السير إلى فاس، وسار ابنه أبو فارس للقائه على وادي النجا.

وصبحوا البلد الجديد فنزلوا عليه بجموعهم وقد اعتصم به الوزير في أوليائه وبطانته، ومعه يغمراسن بن محمد الثنالقني ورهائن بني مرين الذين استرهنهم عند مسيره للقاء السلطان بأصيلا، والله أعلم.

ظهور دعوة السلطان أبي العباس في مراكش واستيلاء أوليائه عليها

كان الوزير مسعود بن ماساي قد ولى على مراكش وأعمال المصامدة أخاه عمر بن رحو وكانت منتظمة في طاعته.

فلما بلغ الخبر بوصول السلطان إلى سبتة واستيلائه عليها تطاولت رؤوس أوليائه إلى إظهار دعوته بجبل الهساكرة وشيخهم علي بن زكريا.

وبعث الوزير مسعود من مكانه في حصار السلطان بالصفيحة في إمداده بالعساكر من مراكش، فزحف إليه مخلوف بن سليمان الوارتني صاحب الأعمال ما بين مراكش والسوس، وقعد الباقون عن قصده وتفرقوا.

وصعد أبو ثابت حافد علي بن عمر إلى جبل الهساكرة ومعه يوسف بن يعقوب بن علي الصبيحي، فاستمد من علي بن زكريا ورجع إلى مراكش مجلبا على عمر بن رحو مناوشة القتال ساعة، ثم غلبه على البلد وملكها من يده ونزل بقصبة الملك، وحبس عمر بن رحو بها.

وكتب للسلطان بذلك، وهو بمكناسة متوجهاً إلى فاس، فكتب إليه بأن يصله بعساكر مراكش لحصار دار الملك فجمع العساكر واستخلف على قصبة مراكش بعض بني عمه ولحق بالسلطان، وأقام معه في حصار البلد الجديد، والله أعلم.

ولاية المنتصر ابن السلطان أبي علي على مراكش واستقلاله بها

كان السلطان أبو العباس حين ملك المغرب بعث ابنه المنتصر في البحر إلى سلا واستوزر له عبد الحق بن الحسن بن يوسف فوصل إلى سلا وأقام بها، ومر به زورق بن توقريطت راجعاً من دكالة، وقد بلغه نزول السلطان على البلد الجديد، فتلطف في استدعائه، ثم قبض عليه وبعث به إلى أبيه مقيداً فأودعه السجن وقتل بعد ذلك في محبسه.

ثم بعث السلطان إلى ابنه المنتصر بولاية مراكش وأن يسير إليها فلما وصل امتنع النائب بالقصبة من أن يمكنه من البلد إلا أن يدخل إليه منفرداً عن أصحابه وبطانته وكان علي بن عبد العزيز شيخ هنتانه مداخلاً لنائب القصبة، فدس لعبد الحق وزير المنتصر أن النائب قد هم بقتله، وحينئذ تمكن المنتصر من القصبة.

فأجفل بالمنتصر وصعد إلى جبل هنتاتة، وطير بالخبر إلى السلطان، فتغير لأبي ثابت وأمره أن يكاتب نائبه بتمكين ابنه من القصبة.

واستوزر له سعيد بن عبدون وبعثه بالكتاب، وعزل عبد

الحق عن وزارة ابنه، واستدعاه إلى فاس، فوصل سعيد بن عبدون إلى مراكش، ودفع إلى النائب بالقصبة كتاب مستخلفه فأجاب إلى الامتثال، وأمكنه من القصبة واعتزل عنها فدخلها.

وبعث عن المنتصر ابن السلطان، واستولوا عليها، وقبضوا على نائب عامر الذي كان بها وسائر شيعته وبطانته، وامتحنوهم واستصفوهم إلى أن كان ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

حصار البلد الجديد وفتحها ونكبة الوزير ابن ماساي ومقتله

لما نزل السلطان على البلد الجديد واجتمع إليه سائر قبيله وأوليائه وبطانته، داخل الوزير مسعود الحنق على وجوه بني مرين لانتباذهم عنه.

وهم بقتل أبنائهم الذين استرهنهم على الوفاء له، فلاطفه يغمراسن السالفي في المنع من ذلك، فأقصر عنه وضيق السلطان مخنقه بالحصار ثلاث أشهر حتى دعا إلى النزول والطاعة، فبعث السلطان إليه ولي الدولة ونزمار بن عريف وخالصته محمد بن يوسف بن علال فعقد معهم الأمان لنفسه ولمن معه على أن يستمر على الوزارة ويبعث بسلطانه الواثق إلى الأندلس، واستحلفهم على ذلك وخرج معهم السلطان فدخل السلطان البلد الجديد خامس رمضان سنة تسع وثمانين وسبعماية لثلاثة أعوام وأربعة أشهر من خلعه.

ولحين دخوله قبض على الواثق وبعث به معتقلاً إلى طنجة وقتل بها بعد ذلك، ولما استوى على أمره قبض على الوزير ابن مسعود ليومين من دخوله وعلى إخواته وحاشيته وامتحنهم جميعاً فهلكوا في العذاب.

ثم سلط على مسعود من العذاب والانتقام ما لا يعبر عنه، ونقم عليه ما فعله في بدور بني مرين النازعين إلى السلطان فإنه كان متى هرب منه أحد منهم يعمد إلى بيوته فينهبها ويخربها فأمر السلطان بعقابه في أطلالها فكان يؤتى به إلى كل بيت منها، فيضرب عشرين سوطاً إلى أن أفحش فيه العذاب وتجاوز الحد.

ثم أمر به فقطع الثانية من الأربعة، فهلك عند قطع الثانية.

فذهب مثلاً في الآخرين.

وزارة محمد بن هلال

كان أبوه يوسف بن هلال من نشأة الدولة وصنيعة السلطان أبي الحسن، وربي في داره.

ولما ضخم أمره سما به إلى ولاية الأعمال، فولاه على درعة فأثرى وأنجب وباهى أولياء الدولة، ثم ولاه السلطان أبو عنان أمر مطبخه ومائدته وضيوفه واستكفى في ذلك، وولاه أخوه أبو سالم بعده كذلك.

ثم بعثه إلى سجلماسة فعانى بها من أمور العرب مشقة، وعزله عنها، فهلك بفاس وكان له جماعة من ولد قد نشأوا في ظل هذه النعمة، وحدثت النجابة بمحمد منهم.

فلما ولي السلطان أبو العباس استعمله في أمور الضياف والمائدة كما كانت لأبيه، ثم رقاه إلى المخالصة وخلطه بنفسه، فلما خلع السلطان واستولى الوزير ابن ماساي على المغرب، وكانت بينه وبين أخيه يعيش بن ماساي إحن قديمة، فسكن لصولتهم حتى إذا اضطرمت نار الفتنة بالمغرب وأجلب عرب في المعقل الخلاف، واستوحش محمد هذا فلحق بأحيائهم مع زروق بن توقريطت كما مر ذكره ونزلا على يوسف بن علي بن غانم شيخ أولاد حسين، وأقاما معه في خلافه، حتى إذا أجاز السلطان الواثق من الأندلس ووصل مع أصحابه إلى جبل زرهون، وأظهروا الخلاف على الوزيرابن ماساي بادر محمد هذا وزروق إلى السلطان، ودخلا في طاعته متبرئين من النفاق الذي حملهم عليه عداوة الوزير ابن ماساي.

فما كان إلا أن انعقد الصلح بين الواثق وابن ماساي وسار به وبأصحابه إلى فاس، وحصلوا في قبضة ابن ماساي فعفا لهم عما كان منهم، واستعملهم في معهود ولايتهم.

ثم جاء الخبر بإجازة السلطان أبي العباس إلى سبتة فاضطرب محمد بن يوسف وذكر لخالصة السلطان ومنافرة بني ماساي، فأجمع أمره ولحق بسبتة فتلقاه السلطان بالكرامة، وبر بمقدمه ودفعه إلى القيام بأمر دولته، فلم يزل متصرفاً بين يديه إلى أن نزل على البلد الجديد.

ولأيام من حصارها خلع عليه للوزارة ودفعه إليها، فقام بها أحسن قيام، ثم كان الفتح وانتظمت أمور الدولة، ومحمد هذا يصرف الوزارة على أحسن أحوالها إلى أن كان ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

ظهور محمد بن السلطان عبد الحليم بسجلماسة

قد تقدم لنا ذكر السلطان عبد الحليم ابن السلطان أبي علي، وكان يدعى حلى كيف، بايع له بنو مرين وأجلبوا به على عمر بن عبد الله سنة ثلاث وستين وسبعماية أيام بيعته للسلطان أبي عمر ابن السلطان أبي الحسن.

وحاصروا معه البلد الجديد حتى خرج لدفاعهم وقاتلهم، فانهزموا وافترقوا.

ولحق السلطان عبد الحليم بتازى وأخوه عبد المؤمن بمكناسة، ومعه ابن أخيهما عبد الرحمن بن أبي يفلوسن.

ثم بايع الوزير عمر بن عبد الله لمحمد بن أبي عبد الرحمن ابن السلطان أبي الحسن واستبدل به من أبي عمر لما كان بنو مرين يرمونه به من الجنون والوسوسة، فاستدعى محمد بن أبي عبد الرحمن من مطرح اغترابه بإشبيلية وبايع له وخرج في العساكر لمدافعة عبد المؤمن وعبد الرحمن عن مكناسة فلقيهما وهزمهما ولحقا بالسلطان عبد الحليم بتازى وساروا جميعاً إلى سجلماسة فاستقروا فيها والسلطان لعبد الحليم، وقد تقدم خبر ذلك كله في أماكنه.

ثم كان الخلاف بين عرب المعقل أولاد حسين والأحلاف وخرج عبد المؤمن للإصلاح بينهم، فبايع له أولاد حسين ونصبوه كرهاً للملك.

وخرج السلطان عبد الحليم إليهم في جموع الأحلاف فقاتلوه وهزموه، وقتلوا كبار قومه، كان منهم يحيى بن رحو بن تاشفين بن معطي شيخ بني تيربيغن وكبير دولة بني مرين، أجلت المعركة عن قتله، ودخل عبد المؤمن البلد منفرداً بالملك.

وصرف السلطان أخاه عبد الحليم إلى المشرق لقضاء فرضه لرغبته في ذلك، فسار على طريق القفر مسلك الحاج من التكرور إلى أن وصل القاهرة، والمستبد بها يومئذ يلبغا الخاصكي، على الأشرف شعبان بن حسين من أسباط الملك الناصر محمد بن قلاوون، فأكرم وفادته ووسع نزله وجرايته، وأدر لحاشيته الأرزاق، ثم أعانه على طريقه إلى الحج بالأزواد والآنية والظهر من الكراع والخف.

ولما انصرف من حجه زوده لسفر المغرب، وهلك بتروجه سنة سبع وستين وسبعماية ورجع حاشيته إلى المغرب بحرمه وولده.

وكان ترك محمداً هذا رضيعاً، فشب متقلباً من الدول من ملك إلى آخر، منتبذاً عن قومه لغيرة بني السلطان أبي الحسن من بنى عمهم السلطان أبي علي.

وكان أكثر مما يكون مقامه عند أبي حمو سلطان بني عبد الواد بتلمسان لما يروم به من الأجلاب على المغرب، ودفع عادية بني مرين عنهم.

فلما وقع بالمغرب من انتقاض عرب المعقل على الوزير مسعود بن ماساي سنة تسع وثمانين وسبعماية ما وقع واستمروا على الخلاف عليه، انتهز أبو حمو الفرصة، وبعث بمحمد بن علي بن عبد الحليم هذا إلى المعقل ليجلبوا به على المغرب، ويمزقوا من ملكه ما قدروا عليه، فلحق بأحيائهم ونزل على الأحلاف الذين هم أمس رحماً بسجلماسة وأقرب موطناً إليها.

وكان الوزير مسعود بن ابن ماساي قد ولى عليها من قرابته علي بن إبراهيم بن عبو بن ماساي، فلما ظهر عليه السلطان أبو العباس وضيق مخنقه بالبلد الجديد، دس إلى الأحلاف وإلى قريبه علي بن إبراهيم أن ينصبوا محمد ابن السلطان أبي العباس عنه، وينفسوا من خناقه، ففعلوا ذلك.

ودخل محمد إلى سجلماسة فملكها، وقام علي بن إبراهيم بوزارته حتى إذا استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد، وفتك بالوزير مسعود بن ماساي وبإخوته وسائر قرابته، اضطرب علي بن إبراهيم وفسد ما بينه وبين سلطانه محمد، فخرج عنه من سجلماسة وعاد إلى أبي حمو سلطان تلمسان كما كان.

ثم زادت هواجس على بن إبراهيم وارتيابه فخرج عن سجلماسة وتركها، ولحق بأحياء العرب، وسارت طائفة منهم معه إلى أن أبلغوه مأمنه.

ونزل على السلطان أبي حمو إلى أن هلك، فسار إلى تونس وحضر وفاة السلطان أبي العباس بها سنة ست وتسعين وسبعماية ولحق محمد ابن السلطان عبد الحليم بعد مهلك أبي حمو بتونس.

ثم ارتحل بعد وفاة السلطان أبي العباس إلى المشرق في سبيل جولة ومطاوعة واغتراب لحجة، والله تعالى أعلم.

نكبة ابن أبي عمرو ومهلكه وحركات ابن حسون

لما استقل السلطان بملكه واقتعد سريره، صرف نظره إلى أولياء تلك الدولة ومن يرتاب منه، وكان محمد بن أبي عمرو قد

تقدم ذكره وأوليته، من جملة خواصه وندمائه.

وكان السلطان يقسم له من عنايته وجميل نظره ويرفعه عن نظرائه.

فلما ولي السلطان موسى نزعت به إليه نوازع المخالصة لأبيه من السلطان أبي عنان فقد كان أبوه من أعز بطانته كما مر، فاستخلصه السلطان موسى للشورى ورفعه على منابر أهل الدولة.

وجعل إليه كتابه علامته على المراسم السلطانية، كما كان لأبيه.

وكان يفاوضه في مهماته ويرجع إليه في أموره حتى غص به أهل الدولة ونمي عنه للوزير مسعود بن ماساي أنه يداخل السلطان في نكبته.

وربما سعى عند سلطانه في جماعة من بطانة السلطان أحمد، فأتى عليهم النكال والقتل لفلتات كانت بينهم وبينه في مجالس المنادمة عند السلطان حقدها لهم.

فلما ظفر بالحظ من سلطانه، سعى بهم فقتلهم.

وكان القاضي أبو إسحاق إبراهيم اليزناسي من بطانة سلطانه وكان يحضر مع ندمائه فحقد له ابن أبي عمرو بعض الكلمات، وأغرى به سلطانه فضربه وأطافه، وجاء بها شنعاء غريبة في القبح.

وسفر عن سلطانه إلى الأندلس، وكان يمر بمنزل السلطان هذا ومكان اعتقاله، وربما تلقاه فلم يلم ولا بتحيه، ولا يوجب له حقاً، فأحفظ ذلك السلطان.

ولما فرغ من أمر ابن ماساي قبض على ابن أبي عمر ووأودعه السجن، ثم امتحنه بعد أيام إلى أن هلك ضرباً بالسياط، عفا الله عنه.

وحمل إلى داره، وبينما أهله يجهزونه إلى قبره إذا بالسلطان قد أمر بأن يسحب في نواحي البلد إبلاغاً في التنكيل، فحمل من نعشه وقد ربط حبل برجله، وسحب في سائر أنحاء المدينة، ثم ألقي على بعض الكثبان، من اطرافها وأصبح مثلاً في الآخرين ثم قبض على حركات ابن حسون النياطي وكان مخباً في الفتنة، موضعاً وكان العرب المخالفون من المعقل، ولما أجاز السلطان إلى سبتة وحركات هذا بتدلا، أرادوه على طاعة السلطان فامتنع أولاً، ثم أكرهوه وجاؤوا به إلى السلطان فطوى له على ذلك حتى استقام أمره.

وملك البلد الجديد فقبض عليه وامتحنه، إلى أن هلك، والله وارث الأرض ومن عليها.

خلاف علي بن زكريا بجبل الهساكرة ونكبته

لما ملك السلطان البلد الجديد واستوى على ملكه، وفد عليه علي بن زكرياء شيخ هسكورة مستصباً بما قدم من سوابقه.

وقد كان حضر معه حصار البلد الجديد واستدعاه، فجاء بقومه وعساكر المصامدة وأبلى في حصارها، فرعى السلطان سوابقه وولاه الولاية الكبرى على المصامدة على عادة الدولة في ذلك.

ثم وفد بعده محمد بن إبراهيم المبرازي من شيوخ المصامدة وكانت له ذمة صهر مع الوزير محمد بن يوسف بن علال على أخته، فولاه السلطان مكان علي بن زكريا فغضب لها علي واستشاط وبادر إلى الانتقاض والخلاف.

ونصب بعض القرابة من بني عبد الحق، فجهز إليه السلطان العساكر مع محمد بن يوسف بن علال وصالح بن حمو الياباني وأمر صاحب درعة وهو يومئذ عمر بن عبد المؤمن بن عمر أن ينهد إليه بعساكر درعة من جهة القبلة، فساروا إليه وحاصروه في جبلة، وجاولوه مرات ينهزم في جميعها حتى غلبوه على جبلة.

وسار إلى إبراهيم بن عمران الصناكي المجاور له في جبلة فاستذم به.

وخشي إبراهيم معرة الخلاف والغلب، ورغبه الوزير محمد بن يوسف بمال بذله له، فأمكنه منه، وقبض عليه الوزير وجاء به إلى فاس، فأدخله في يوم مشهود وشهره، واعتقل فلم يزل في الاعتقال إلى أن هلك السلطان أبو العباس، وارتاب به أهل الدولة بعده فقتلوه، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفادة أبي تاشفين على السلطان أبي العباس صريخاً على أبيه ومسيره بالعساكر ومقتل أبيه السلطان أبي حمو

كان أبو تاشفين ابن السلطان أبي حمو قد وثب على أبيه آخر ثمان وثمانين وسبعماية بممالأته لغيره من إخوته واعتقله بوهران.

وخرج بالعساكر لطلب إخوته المنتصر وأبي زيان وعمر فامتنعوا عند حصين بجبل تيطري فحاصرهم أياماً، ثم تذكر غائلة أبيه، فبعث ابنه أبا زيان في جماعة من بطانته منهم موسى ابن الوزير عمران بن موسى وعبد اللّه بن جابر الخراساني، فقتلوا بعض ولده بتلمسان، ومضوا إليه وهو بمحبسه في وهران.

فلما شعر بهم أشرف من الحصن ونادى في أهل المدينة متذمماً بهم، فهرعوا إليه.

وتدلى إليهم في عمامته وقد احتزم بها فأنزلوه وأحدقوا به وأجلسوه على سريره.

وتولى كبر ذلك خطيب البلد ابن خزروت ولحق أبو زيان بن أبي تاشفين ناجياً إلى تلمسان، واتبعه السلطان أبو حمو ففر منها إلى أبيه.

ودخل أبو حمو تلمسان وهي طلل وأسوارها خراب، فأقام فها رسم دولته.

وبلغ الخبر إلى أبي تاشفين فأجفل من تيطري وأغذ السير فدخلها، واعتصم أبوه بمئذنة المسجد، فاستنزله منها وتجافى عن قتله.

ورغب إليه أبو حمو في رحلة المشرق لقضاء فرضه، فاسعفه وأركبه السفين مع بعض تجار النصارى إلى الإسكندرية موكلاً به.

فلما حاذى مرسى بجاية لاطف النصارى في تخلية سبيله فأسعفه وملك أمره.

وبعث إلى صاحب الأمر ببجاية يستأذنه في النزول، فأذن له.

وسار منها إلى الجزائر، واستخدم العرب واستصعب عليه أمر تلمسان، فخرج إلى الصحراء.

وجاء إلى تلمسان من جهة المغرب فهزم عساكر ابنه أبي تاشفين وملكها.

وخرج أبو تاشفين هارباً منها، فلحق بأحياء سويد في مشاتيهم.

ودخل أبو حمو تلمسان في رجب سنة تسعين وسبعماية، وقد تقدم شرح هذه الأخبار كلها مستوعبة.

ثم وفد أبو تاشفين مع محمد بن عريف شيخ سويد على السلطان أبي العباس صريخاً على أبيه، ومؤملاً الكرة بإمداده.

فتقبله السلطان وأجمل عليه المواعيد وقام أبو تاشفين في انتظارها والوزير محمد بن يوسف بن علال يعده ويمنيه ويحلف له على الوفاء.

وبعث السلطان أبو حمو إلى السلطان ابن الأحمر لما يعلم من استطالته على دولة بني مرين كما مر، يتوسل إليه في أن يصدهم عن صريخ أبي تاشفين وإمداده عليه فخلا ابن الأحمر في ذلك وجعلها من أهم حاجاته.

وخاطب السلطان أبا العباس في أن يجيز إليه أبا تاشفين، فتعلل عليه في ذلك بأنه استجار بابنه أبي فاس واستذم به.

ولم يزل الوزير ابن علال يفتل لسلطانه ولابن الأحمر في الذروة والغارب، حتى تم أمره وأنجز له السلطان بالنظر موعده.

وبعث ابنه الأمير أبا فارس والوزير ابن علال في العساكر صريخين له، وانتهوا إلى تازى.

وبلغ الخبر إلى أبي حمو فخرج من تلمسان في عساكره، واستألف أولياءه من عبيد اللّه.

ونزل بالغيران من وراء جبل بني ورتيد المطل على تلمسان، وأقام هنالك متحصناً بالجبل، وجاءت العيون إلى عساكر بني مرين بتازى من مكانه هو وأعرابه من الغيران، فأجمعوا غزوه.

وسار الوزير علال وأبو تاشفين وسلكوا القفر ودليلهم سليمان بن ناجي من الأحلاف، حتى صبحوا أبا حمو ومن معه من أحياء الخراج في مكانهم من القيران.

فجاولوهم ساعة، ثم ولوا منهزمين، وكبا بالسلطان أبي حمو فرسه فسقط، وأدركه بعض أصحاب أبي تاشفين فقتلوه قعصاً بالرماح، وجاؤوا برأسه إلى ابنه أبي تاشفين والوزير ابن علال، فبعثوا به إلى السلطان، وجيء بابنه عمير أسيراً، فهم أخوه أبو تاشفين بقتله، فمنعه بنو مرين أياماً.

ثم أمكنوه منه فقتله، ودخل تلمسان آخر إحدى وتسعين وسبعماية وختم الوزير وعساكر بني مرين بظاهر البلد، حتى دفع إليهم ما شارطهم عليه من المال.

ثم قفلوا إلى المغرب وأقام أبو تاشفين بتلمسان يقيم دعوة السلطان أبي العباس صاحب المغرب ويخطب له على منابر تلمسان وأعمالها، ويبعث إليه بالضريبة كل سنة، كما اشترط على نفسه.

وكان أبو حمو لما ملك تلمسان ولى ابنه أبا زيان على الجزائر، فلما بلغه مقتل أبيه امتعض ولحق بأحياء حصين ناجياً وصريخاً، وجاءه وفد بني عامر من زغبة يدعونه للملك.

فسار إليهم.

وقام بدعوته شيخهم المسعود بن صغير، ونهضوا جميعاً إلى

تلمسان في رجب سنة اثنتين وتسعين وسبعماية فحاصروها أياماً.

ثم سرب أبو تاشفين المال في العرب فافترقوا عن أبي زيان، وخرج إليهم أبو تاشفين فهزمه في شعبان من السنة.

ولحق بالصحراء واستألف أحياء المعقل، وعاود حصار تلمسان في شوال.

وبعث أبو تاشفين ابنه صريخاً إلى المغرب، فجاءه بمدد من العساكر.

ولما انتهى إلى تاوريرت، أفرج أبو زيان عن تلمسان وأجفل إلى الصحراء.

ثم أجمع رأيه على الوفادة إلى صاحب المغرب، فوفد عليه صريخاً فتلقاه وبر مقدمه ووعده النصر من عدوه.

وأقام عنده إلى حين مهلك أبي تاشفين، والله أعلم.

وفاة أبي تاشفين واستيلاء صاحب المغرب على تلمسان

لم يزل هذا الأمير أبو تاشفين مملكاً على تلمسان ومقيماً فيها لدعوة صاحب المغرب أبي العباس ابن السلطان أبي سالم، ومؤدياً الضريبة التي فرضها عليه منذ ملك، وأخوه الأمير أبو زيان عند صاحب المغرب ينتظر وعده بالنصر عليه، حتى تغير السلطان أبو العباس على أبي تاشفين في بعض النزعات الملوكية، فأجاب داعي أبي زيان وجهزه بالعساكر لملك تلمسان، فسار لذلك منتصف سنة خمس وتسعين وسبعماية

وانتهى إلى تازى، وكان أبو تاشفين قد طرقه مرض أزمنه، ثم هلك منه في رمضان من السنة.

وكان القائم بدولته أحمد بن العز من صنائعهم وكان يمت إليه بخولة، فولى بعده مكانه صبياً من أبنائه، وأقام بكفالته.

وكان يوسف بن أبي حمو وهو ابن الزابية والياً على الجزائر من قبل أبي تاشفين، فلما بلغه الخبر أغذ السير مع العرب فدخل تلمسان، وقتل أحمد بن العز والصبي المكفول ابن أخيه أبي تاشفين، فلما بلغ الخبر إلى السلطان أبي العباس صاحب المغرب خرج إلى تازى، وبعث من هنالك ابنه أبا فارس في العساكر ورد أبا زيان بن أبي حمو إلى فاس، ووكل به.

وسار ابنه أبو فارس إلى تلمسان فملكها وأقام فيها دعوة أبيه.

وتقدم وزير أبيه صالح بن أبي حمو إلى مليانة، فملكها وما بعدها من الجزائر وتدلس إلى حدود بجاية.

واعتصم يوسف بن الزابية بحصن تاجمومت وأقام الوزير صالح يحاصره.

وانقرضت دعوة بني عبد الواد من المغرب الأوسط، والله غالب على أمره.

وفاة أبي العباس صاحب المغرب واستيلاء أبي زيان بن أبي حمو على تلمسان والمغرب الأوسط

كان السلطان أبو العباس بن أبي سالم لما وصل إلى تازى وبعث ابنه أبا فارس إلى تلمسان فملكها، وأقام هو بتازى يشارف أحوال ابنه ووزيره صالح الذي تقدم لفتح البلاد الشرقية.

وكان يوسف بن علي بن غانم أمير أولاد حسين من المعقل قد حج سنة ثلاث وتسعين وسبعماية واتصل بملك مصر من الترك الملك الظاهر برقوق.

وتقدمت إلى السلطان فيه وأخبرته بمحله من قومه، فأكرم تلقيه وحمله بعد قضاء حجه هدية إلى صاحب المغرب، يطرفه فيها بتحف من بضائع بلده على عادة الملوك.

فلما قدم يوسف بها على السلطان أبي العباس أعظم موقعها وجلس في مجلس حفل لعرضها والمباهاة بها.

وشرع في المكافأة عليها بتجهيز الجياد والبضائع والثياب، حتى استكمل من ذلك ما رضيه.

واعتزم على إنفاذها مع يوسف بن علي حاملها الأول.

وأنه يرسله من تازى أيام مقامته تلك، فطرقه هنالك مرض كان فيه حتفه في شهر محرم سنة ست وتسعين وسبعماية واستدعوا ابنه أبا فارس من تلمسان فبايعوه بتازى وولوه مكانه، ورجعوا به إلى فاس.

وأطلقوا أبا زيان بن أبي حمو من الاعتقال، وبعثوا به إلى تلمسان أميراً عليها، وقائماً بدعوة السلطان أبي فارس فيها، فسار إليها وملكها، وكان أخوه يوسف بن الزابية قد اتصل بأحياء بني عامر يروم ملك تلمسان والإجلاب عليها، فبعث إليهم أبو زيان عندما بلغه ذلك وبذل لهم عطاء جزيلاً على أن يبعثوا به إليه، فأجابوه إلى ذلك، وأسلموه إلى ثقات أبي زيان.

وساروا به فاعترضهم بعض أحياء العرب ليستنقذوه منهم، فبادروا بقتله، وحملوا رأسه إلى أخيه أبي زيان فسكنت أحواله وذهبت الفتنة بذهابه، واستقامت أمور دولته، وهم على ذلك لهذا العهد، واللّه غالب على أمره، وهو على كل شيء قدير.

وقد انتهى بنا القول في دولة بني عبد الواد من زناتة الثانية، وبقي علينا خبر الرهط الذين تحيزوا منهم إلى بني مرين من أول الدولة.

وهم بنو كمي من فصائل علي بن القاسم إخوة طاع اللّه بن علي، وخبر بني كندوز أمرائهم بمراكش.

فلنرجع إلى ذكر أخبارهم، وبها نستوفي الكلام في أخبار بني عبد الواد، واللّه وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن القرابة المرشحين من آل عبد الحق من الغزاة المجاهدين بالأندلس الذين قاسموا ابن الأحمر في ملكه وانفردوا برياسة جهاده

كانت الجزيرة الأندلسية وراء البحر منذ انقراض أمر بني عبد المؤمن وقيام ابن الأحمر بأمرها، قليلة الحامية، ضعيفة الأحوال إلا من يلهمه اللّه لعمل الجهاد من قبائل زناتة المؤملين كرة الملك والمقتسمين ممالك المغرب، وخصوصاً بني مرين أهل المغرب الأقصى لاتصال عدوة الأندلس ببسائطه ولتعدد الفراض ببحر الزقاق القريب العدوتين.

وما زال هذا الزقاق على قديم الزمان لأجل ذلك فرضة دون سواحل المغرب.

ولما استولى بنو مرين على ممالكه، وضاقت أحوال المسلمين بالأندلس، وأخذ بمخنقهم الطاغية حتى ألجأهم إلى سيف البحر واستأثر بالفزنتيرة وما وراءها.

واستأثر بنو القمص أهل برشلونة وقطلوسة بشرق الأندلس.

وانتشر في الأقطار ما كان من أمر قرطبة وأختيها إشبيلية وبلنسية، وامتعض لذلك المسلمون وتنافسوا في الجهاد وإمداد الأندلس بأموالهم وأنفسهم، وسابق الناس إلى ذلك الأمير أبو زكرياء بن أبي حفص بما كان صاحب الوقت والمؤمل للكرة، فاستنفذ الكثير من أمواله ومقرباته في إمدادهم بعد أن كانوا آثروا القيام بدعوته، وأوفدوا عليه المشيخة ببيعتهم.

وكان ليعقوب بن عبد الحق أمل في الجهاد وحرص عليه.

فاعتزم في سلطان أخيه أبي يحيى على الإجازة لذلك، فمنعه ضنة به على الاغتراب عنه.

وأوعز إلى صاحب سبتة يومئذ أبي علي بن خلاص بمنعه منها، فوعر له السبيل وسد عليه المذاهب.

ولم ينشب يعقوب بن عبد الحق أن قام بسلطان المغرب بعد أخيه أبي يحيى وشغل بشأنه.

وأهمه شأن ابن أخيه إدريس بن الحق بما كان فيهم من الترشيح والمنافسة لبنيه واستأذنه عامر بن إدريس منهم في الجهاد بعد العدوة، فاغتنمها منه وعقد له من مطوعة زناتة على ثلاثة آلاف أو يزيدون، وأجاز معه رحو ابن عمه عبد اللّه بن عبد الحق.

وفصلوا إلى الأندلس سنة إحدى وستين وستماية فحسنت آثارهم في الجهاد وكرمت مقاماتهم.

ثم رجع عامر بن إدريس إلى المغرب وكثر انتقاض القرابة.

ونافسهم أقيال زناتة في مثلها، فاجتمع أبناء الملوك بالمغرب الأوسط مثل عبد الملك ويغمراسن بن زيان وعايد بن منديل بن عبد الرحمن وزيان بن محمد ابن عبد القوي فتعاقدوا على الإجازة إلى الأندلس إلى الجهاد، وأجازوا فيمن خف معهم من قومهم سنة ست وسبعين وستماية، فامتلأت الأندلس بأقيال زناتة وأعياص الملك منهم.

وكان فيمن أجاز من أعياصهم بنو عيسى بن يحيى بن وسناف بن عبو ابن أبي بكر بن حمامة.

ومنهم سليمان وإبراهيم وكانت لهما آثار في الجهاد ومقامات محمودة، وكان موسى بن رحو لما نازله السلطان وبنو عبد اللّه بن عبد الحق بحصن علودان ونزلوا على عهده لحق بتلمسان.

وكان بنو عبد اللّه بن عبد الحق وإدريس بن عبد الحق عصبة من بين سائرهم، لأن عبد اللّه وإدريس كانا شقيقين لسوط النساء بنت عبد الحق، فاقتفى أثر يعقوب بن عبد الحق بن عبد اللّه محمداً ابن عمه إدريس، وخرج على السلطان بقصر كتامة سنة ثلاث وستين وستماية، ثم استرضاه عمه واستنزله.

وبقي يعقوب بن عبد اللّه في انتقاضه ينتقل في الجهات إلى أن قتله طلحة بن محلى من أولياء السلطان سنة ثمان وستين

وستماية بجهات سلا، فكفى السلطان شأنه.

ولما كان من عهد السلطان لابنه أبي مالك ما قدمناه نفس عليه هؤلاء القرابة هذا الشأن، فانتفضوا ولحق محمد ابن ادريس بحصن علودان.

ولحق موسى بن رحو بن عبد اللّه بجبال غمارة ومعه أولاد عمه أبي عياد بن عبد الحق، ونازلهم السلطان حتى نزلوا على عهده، وأجازهم إلى الأندلس سنة سبعين وستماية، فأقاموا بها للجهاد سوقاً ونافسهم أقيال زناتة في مثلها بتلمسان، وأجاز منها إلى الأندلس سنة سبعين وستماية، فولاه السلطان ابن الأحمر على جميع الغزاة المجاهدين هنالك، لما كان كبيرهم ومحل سؤلهم.

ولم يلبث أن عاد إلى المغرب، فولى السلطان مكانه أخاه عبد الحق.

ثم رجع عنه مغاضباً إلى تلمسان، فولي مكانه على الغزاة المجاهدين إبراهيم بن عيسى بن يحيى بن وسناف إلى أن كان ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

الخبر عن موسى بن رحو فاتح هذه الرياسة بالأندلس وخبر أخيه عبد الحق من بعده وابنه حمو بن عبد الحق بعدهما

لما هلك السلطان الشيخ بن الأحمر وولى ابنه السلطان الفقيه، ووفد على السلطان يعقوب بن عبد الحق صريخاً للمسلمين، فأجاز إليه أول إجازته سنة ثلاث وسبعين وستماية وأوقع بجيوش النصرانية.

وقتل الزعيم دنته واستولى له الغلب على الأندلس، وبدا لابن الأحمر في أمره وخشي مغبته، وتوقع أن يكون شأنه معه شأن يوسف بن تاشفين والمرابطين مع ابن عياد.

وكان بالأندلس قرابته بنو أشقيلولة قد قاسموه في ممالكها، وانفردوا بوادي آش ومالقة وقمارش، حسبما ذكرناه في أخباره مع السلطان، وانتقض عليه أيضاً من رؤساء الأندلس ابن عبدويل وابن الدليل، فكانوا يجلبون على بلاد المسلمين.

وكانوا قد استنجدوا جيوش النصرانية ونازلوا غرناطة، وعاثوا في الجهات، فلما استوت قدم السلطان يعقوب بن عبد الحق بالأندلس، وصل هؤلاء الثوار به أيديهم، فخشيهم ابن الأحمر جميعاً على نفسه.

وقلب للسلطان ليوسف ظهر المجن، واستظهر عليه بالأعياص من قرابته.

وكان هؤلاء القرابة من أولاد رحو بن عبد اللّه بن عبد الحق وإدريس بن عبد ا لله وإدريس بن عبد الحق، وينسبون جميعاً إلى سوط النساء كما ذكرناه، ومن أولاد أبي عياد بن عبد الحق لما أوجسوا الخيفة من السلطان واستشعروا النكير منه، لحقوا بالأندلس تورية بالجهاد، وانتبذوا عن الشول فراراً من محله.

وقد كان السلطان أبو يوسف متى أحسَّ بريبة منه في ذلك إذا انتقضوا عليه أشخصهم إلى الأندلس، فاجتمع منهم عند ابن الأحمر عصابة من أولاد عبد الحق كما قلناه، وأولاد وسناف وأولاد نزول وتاشفين بن معطي كبير بني تيريغين من بني محمد.

وتبعهم أولاد محلى أخوال السلطان أبي يوسف، وكان ابن الأحمر كثيراً ما يعقد لهم على الغزاة المجاهدين من زناتة لدار الحرب، فعقد أولاً لموسى بن رحو سنة ثلاث وسبعين وستماية ولأخيه عبد الحق بعد انصرافه إلى المغرب، ثم لإبراهيم بن عيسى بعد انصرافهما معاً كما قلناه.

ثم رجعا فعقد لموسى بن رحو ثانية على أشياخه، اثبت له قدما في الرياسة ليحسن به دفاع السلطان أبي يوسف عنهم، ثم تداولت الإمارة فيهم ما بينهم وبين عمومتهم.

وربما عقد قبل ذلك أزمان الفترة لعلي بن أبي عياد بن عبد الحق في بعض الغزوات، ولتاشفين بن معطي في أخرى سنة تسع وسبعين وستماية ومعه طلحة بن محلى، فاعترضوا الطاغية دون حصر المسلمين وربما كان لهم الظهور.

ثم حدثت الفتنة بينه وبين السلطان أبي تاشفين وعقد ابن الأحمر في بعض حروبه معه لعلي بن أبي عياد على زناتة جميعاً، وحاشهم إلى رايته، فانفضت جموع أبي يوسف، وظهروا عليه، وتقبضوا في المعركة على ابنه منديل، واستاقوه أسيراً إلى أن أطلقه السلطان ابن الأحمر في سلم عقده بعد مهلكه، مع ابنه يوسف بن يعقوب.

واستبد موسى بن رحو من بعدها بإمارة الغزاة بالأندلس إلى أن هلك، فوليها من بعده أخوه عبد الحق إلى أن هلك سنة تسع وتسعين وستماية وكان مظفر الراية على عدو المسلمين.

ولما هلك ولي من بعده ابنه حمو بن عبد الحق فكانت هذه الإمارة متصلة في بني رحو إلى أن انتقلت منهم إلى إخوانهم من بني أبي العلاء وغيرهم.

واندرج حمو في جملة عثمان بن أبي العلاء من بعده حسبما

نذكر.

وأما إبراهيم بن عيسى الوسناني فإنه رجع إلى المغرب، ونزل على يوسف بن يعقوب وقتله بمكانه من حصار تلمسان بعد حين من الدهر، وبعد أن كبر وعمي.

والله مالك الأمور لا رب غيره، وكان مهلك يعلى ابن أبي عياد سنة سبع وثمانين وستماية ومعطي بن أبي تاشفين سنة تسع وثمانين وستماية وطلحة بن محلى سنة ست وثمانين وستماية والله أعلم.

الخبر عن عبد الحق بن عثمان شيخ الغزاة بالأندلس

كان عبد الحق هذا من أعياص الملك المريني ويعاسيبهم وهو من ولد محمد بن عبد الحق ثاني الأمراء على بني مرين بعد أبيهم عبد الحق.

وهلك أبوه عثمان بن محمد بالأندلس إحدى أيام الجهاد سنة تسع وسبعين وستماية وربي ابنه عبد الحق هذا في حجر السلطان يوسف بن يعقوب إلى أن كان من أمر خروجه مع الوزير رحو بن يعقوب على السلطان أبي الربيع ما ذكرناه في أخباره.

ولحق بتلمسان وأجاز منها إلى الأندلس، وسلطانه يومئذ أبو الجيوش ابن السلطان الفقيه، وشيخ زناتة بها حمو بن عبد الحق بن رحو.

وخاطبهم السلطان أبو سعيد ملك المغرب في اعتقاله، فأجابوه وفر من محبسه، ولحق بدار الحرب.

ولما انتقض أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد وبايع لنفسه بمالقة، وزحف إلى غرناطة فنازلها، ووقعت الحرب بظاهرها بين الفريقين وأخذ في بعض أيامها حمو بن عبد الحق أسيراً، وسيق إلى السلطان أبي الوليد.

وكان معه عمه أبو العباس بن رحو فأبى من إسار ابن أخيه وخلى عنه، فرجع إلى سلطانه فارتاب به لذلك.

وعقد على الغزاة مكانه لعبد الحق بن عثمان استدعاه من مكانه بدار الحرب، ثم غلبهم أبو الوليد على غرناطة.

وتحول أبو الجيوش إلى وادي آش على سلم انعقد بينهم، وسار معه عبد الحق بن عثمان على شأنه.

ثم وقعت بينه وبين أبي الجيوش مغاضبة، لحق لأجلها بالطاغية وأجاز إلى سبتة، فاستظهر به يحيى بن أبي طالب العزفي أيام حصار السلطان أبي سعيد إياه، فكان له في حماية ثغره والدفاع دونه آثار مذكورة.

ثم عقد السلطان أبو سعيد السلم ليحيى العزفي، وأفرج عنه، فارتحل عبد الحق بن عثمان إلى إفريقية، ونزل ببجاية سنة تسع عشرة وسبعماية على أبي عبد الرحمن بن عمر صاحب السلطان أبي يحيى المستبد بالثغور الغربية، فأكرم نزله، وأوسع قراه، وضرب له الفساطيط بالزينة من ساحة البلد استبلاغاً في تكريمه وحمله وأصحابه على ماية وخمسين من الخيل، ثم أقدمهم على السلطان بتونس فبر مقدمهم، وخلط عبد الحق بنفسه وآثره بالخلة والصحابة، وأجله بمكان الاستظهار به وبعصابته.

ولما عقد السلطان لمحمد بن سيد الناس على حجابته سنة سبع وعشرين وسبعماية واستقدمه لذلك من ثغر بجاية كما ذكرناه، عظمت رياسته واستغلظ حجابه، وحجب عبد الحق ذات يوم عن بابه، فسخطها وذهب مغاضباً، وداخل أبا فارس في الخروج على أخيه، فأجابه وخرج به من تونس، فكان من خبرهم ومقتل أبي فارس وخلوص عبد الحق إلى تلمسان ونزوله على أبي تاشفين، وغزوه إلى إفريقية مع عساكر بني عبد الواد سنة سبع وعشرين وسبعماية ما ذكرناه في أخبار الدولة الحفصية.

ثم لما رجع بنو عبد الخالق إلى تلمسان صمد مولانا السلطان أبو يحيى إلى تونس في أخريات سنته.

وفر ابن أبي عمران السلطان المنصوب بتونس من بني أبي حفص إلى أحياء العرب، وتقبض على أبي رزيان ابن أخي عبد الحق بن عثمان في لمة من أصحابه، فقتله قعصا بالرماح.

ورجع عبد الحق بن عثمان إلى مكانه من تلمسان، فأقام بمثواه عند أبي تاشفين متبوئاً من الكرامة والاعتزاز ما شاء إلى أن هلك بمهلك أبي تاشفين يوم اقتحم السلطان أبو الحسن تلمسان عليهم سنة سبع وثلاثين وسبعمائة وقتلوا جميعاً عند قصر الملك أبو تاشفين وأبناء عثمان ومسعود وحاجبه موسى بن علي، ونزيله عبد الحق هذا، وأبو ثابت ابن أخيه، فقطعت رؤوسهم وتركت أشلاؤهم بساحة القصر عبرة للمعتبرين حسبما ذكرناه في أخبار أبي تاشفين، والله أعلم.

الخبر عن عثمان بن أبي العلاء من أمراء الغزاة المجاهدين بالأندلس

كان أولاد سوط النساء من ولد عبد الحق، أهل عصابة واعتزاز على قومهم، وهم أولاد إدريس وعبد اللّه ابنيها والشقيقين كما ذكرنا.

وكان مهلك إدريس الأكبر يوم مهلك أبيه بتافرضيت ومهلك عبد اللّه قبله.

وخلف عبد اللّه ثلاثة من الولد تشعب فيهم نسله، وهم: يعقوب ورحو وإدريس.

واستعمل أبو يحيى بن عبد الحق يعقوباً منهم على سلا عند افتتاحه إياها سنة تسع وأربعين وستمائة ثم انتزى بها بعد ذلك على عمه يعقوب سنة ثمان وخمسين وستمائة، وكان من شأن ثورة النصارى بها ما ذكرناه، واستخلصها يعقوب بن عبد الحق ولحق يعقوب بن عبد اللّه بعلودان من بلاد غمارة، وامتنع بها، وخرج على أثره ابنا عمه إدريس وهما: عامر ومحمد، وانتزوا بالقصر الكبير، ولحق بهم كافة أولاد سوط النساء.

وطالبهم السلطان فلحقوا بجبال غمارة ونازلهم، ثم استنزلهم بعد ذلك على الأمان، وعقد لعامر علي الغزو إلى الأندلس سنة ستين وستمائة كما ذكرنا، وأجاز معه رحو بن عبد اللّه.

ورجع محمد بن عامر وفر إلى تلمسان سنة ثمانين وستمائة وأجاز منا إلى الأندلس.

ثم خرجوا على السلطان يعقوب بن عبد الحق سنة تسع وثمانين وستمائة ومعهم ولد أبي عياد بن عبد الحق واعتصموا بعلودان، واستنزلهم السلطان على اللحاق بتلمسان فلحقوا بها.

وأجاز أولاد سوط النساء وأولاد أبي عياد كافة إلى الأندلس واستقروا بها يومئذ، ورجع عامر منهم ومحمد وكان من خبره ما نذكر.

وهلك يعقوب بن عبد اللّه سنة ثمان وستين وستمائة في اغترابه بقفوله من رباط الفتح، قتله طلحة بن محلى.

واستقر بنوه من أولاد سوط النساء بالمغرب، وكان ابنه أبو ثابت أميراً على بلاد السوس أيام السلطان يوسف بن يعقوب وأوقع بزكنة سنة تسع وتسعين وستمائة ولم يزل وبنوه بالمغرب من يومئذ.

وكان من إخواته أبي العلاء ورحو ابنا عبد اللّه بن عبد الحق تشعب نسله فيهما، وأجاز رحو إلى الأندلس مع عامر ومحمد ابني عمه إدريس.

لهم أجاز موسى ابنه سنة تسع وتسعين وستمائة مع أولاد أبي عياد وأولاد سوط النساء.

كم رجع إلى محله من الدولة وفر ثانياً سنة خمس وسبعين وستمائة إلى تلمسان، وأجاز منها إلى الأندلس واستقر بها.

وأجاز أولاد أبي العلاء سنة خمس وثمانين وستمائة مع أولاد أبي يحيى بن عبد الحق وأولاد عثمان بن عبد الحق واستقروا بالأندلس، وكانوا يرجعون في رياستهم لكبيرهم عبد اللّه بن أبي العلاء.

وعقد له ابن الأحمر على الغزاة من زناتة فيمن كان يعقد لهم من زناتة قبل استقرار المنصب، إلى أن هلك شهيداً في إحدى غزواته سنه ثلاث وتسعين وستمائة وعقد المخلوع ابن الأحمر لأخيه عثمان بن أبي العلاء، على حامية مالقة وغربيها من الغزاة لنظر ابن عمه الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر.

ولما غدر الرئيس أبو سعيد بسبتة سنة خمس وسبعمائة وتمت له الحيلة في تملكها واضطرمت نار العداوة بينه وبين صاحب المغرب، فنصبوا عثمان هذا للأمر، وأجازوه إلى غمارة، فثار بها ودعا لنفسه، وتغلب على أصيلا والعرائش، وكان ما ذكرنا إلى أن غلبه أبو الربيع سنة ثمانين وستمائة، ورجع إلى مكانه بالأندلس ولما اعتزم أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد على الخروج على أبي الجيوش صاحب غرناطة وداخل في ذلك شيخ الغزاة بمالقة عثمان بن أبي العلاء، فساعده عليه، واعتقل أباه الرئيس أبا سعيد، وزحف إلى غرناطة سنة أربع عشرة وسبعمائة فلما استولى عليها عقد لعثمان هذا على إمارة الغزاة المجاهدين من زناتة، وصرف عنها عثمان بن عبد الحق بن عثمان، فلحق بوادي آش مع أبي الجيوش.

وصار حمد بن عبد الحق بن رحو في جملته بعد أن كان شيخاً على الغزاة كما قلناه.

واستمرت أيام ولاية عثمان هذا، وبعد فيها صيته، وغص صاحب المغرب أبو سعيد بمكانه، ولما استصرخه المسلمون للجهاد سنة ثمان عشرة وسبعمائة اعتذر بمكان عثمان هذا، واشترط عليهم القبض عليه حتى يرجع عنهم فلم يكن ذلك، ونازل الطاغية غرناطة وحاصرها، وكان لعثمان وبنيه في ذلك آثار مذكورة.

وأتاح الله للمسلمين في النصرانية على يد عثمان هذا وبنيه ما لم يخطر على قلب أحد منهم، فتأكد اغتباط الدولة والمسلمين بمكانهم إلى أن هلك أبو الوليد سنة خمس وعشرين وسبعمائة، باغتيال بعض الرؤساء من قرابته بمداخلة عثمان هذا، زعموا في غدره، ونصب للأمر ابنه محمد صبياً لم يبلغ الحلم.

وأقام بأمره وزيره محمد بن المحروق من صنائع دولتهم، فاستبد عليه وألقى زمام الدولة بيد عثمان في النقض والإبرام، فاعتز عليهم وقاسمهم في الأمر، واستأثر في أعطيات الغزاة بكثير من أموال الجباية، حتى خشيه الوزير على الدولة.

وأدار الرأي في كبره على التغلب، فجمح وفسد ما بينه وبين الوزير ابن المحروق، فانتقض عليه وخرج مغاضباً، فاضطربت فساطيطه بمرج غرناطة.

واعصوصب جماعة الغزاة من قبائل زناتة عليه، واعتصم الوزير وأهل الدولة بالحمراء وسعى الناس بينهما أياماً، وأدار الوزير الرأي في أن ينصب له كفواً من قرابته، يجاذبه الحبل، يشغله بشأنه عن الدولة، فجأجأ بيحيى بن عمر بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق وكان في جملة عثمان وأصهر إليه في ابنته فدخل إليه وعقد له على الغزاة وتسايلوا إليه.

وتفرّد عثمان بمعسكره في عشيره وولده، وعقد معه السلم في أن يجيز إلى المغرب.

وأوفد بطانته على السلطان أبي سعيد سنة ثمان وعشرين وسبعمائة وارتحل من ساحة غرناطة في ألف فارس من ذويه وأقاربه وحشمه.

وقصد المرية ليجعلها فرضة لمجازه، حتى إذا حاذى أندوس، وكان بينه وبين رؤسائها مداخلة، فخرجوا إليه مؤدين حق مبرته، فغدر بهم وركب إليها فملكها وضبطها، وأنزل بها حرمه وأثقاله.

ودعا محمد ابن الرئيس أبي سعيد من شلوبانية وكان نازلاً بها، فجاء إليه ونصبه للأمر، وشن الغارات على غرناطة صباحاً ومساءً، واضطرمت نار الفتنة، واستركب يحيى بن رحو من قدر عليه من زناتة.

وطالت الحرب سنين حتى إذا فتك السلطان محمد بن الأحمر بوزيره ابن المحروق، استدعى عثمان بن أبي العلاء، وعقد له السلم على أن يجيز عمه إلى المغرب ويلحق بغرناطة لشأنه من رياسة الغزاة، فتم ذلك سنة تسع وعشرين وسبعمائة ورجع إلى مكانه من الدولة، وهلك إثر ذلك لسبع وثلاثين سنة من إمارته على الغزاة.

والبقاء لله وحده.

الخبر عن رياسة ابنه أبي ثابت من بعده ومصير أمرهم

لما هلك شيخ الغزاة ويعسوب زناتة عثمان بن أبي العلاء، قام بأمره في قومه ابنه أبو ثابت عامر، وعقد السلطان أبو عبد الله بن أبي الوليد له على الغزاة المجاهدين كما كان أبوه، فعظم شأنه قوة شكيمة وكثرة عصابة ونفوذ رأي وبسالة.

وكان لقومه اعتزاز على الدولة، بما عجموا من عودها، وكانوا أولي بأس وقوة فيها واستبداد عليها، وكان السلطان محمد بن أبي الوليد مستنكفاً عن الاستبداد عليه في القلة والكثرة، فكان كثيرا ما يخرقهم بتسفيه آرائهم والتضييق عليهم في جاههم.

ولما وفد على السلطان أبي الحسن سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة صريخاً على الطاغية، واستبد ابنه الأمير أبا مالك لمنازلة جبل الفتح، اتهموه بمداخلة السلطان أبي الحسن في شأنهم، فتنكروا وأجمعوا الفتك به، وداخلوا في ذلك بعض صنائعه ممن كان متربصاً بالدولة فساعدهم.

ولما افتتح الجبل وكان من شأنه ما قدمنا ذكره، وزحف الطاغية فأناخ عليه، وقصد ابن الأحمر الطاغية في بنيه راغباً أن يرجع إلى الحصن، فرجع وافترقت عساكر المسلمين، ارتحل السلطان ابن الأحمر إلى غرناطة سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة وقد قعدوا له بمرصد من طريقه.

ونمي الخبر إليه، فدعا بأسطوله لركوب البحر إلى مالقة، واستبق إليهم الخبر بذلك، فتبادروا إليه ولقوه بطريقه من ساحل اصطبونة، فلاحوه وعاتبوه في شأن صنيعته عاصم من معلوجيه، وحاجهم عنه، فاعتوروا عاصماً بالرماح فنكر ذلك عليهم، فألحقوه به، وخر صريعاً عن مركوبه، وبعثوا إلى أخيه يوسف فأعطوه بيعتهم، وصفقة أيمانهم، ورجعوا به إلى غرناطة وهو حذر منهم لفعلتهم التي فعلوا، واستمرت الحال على ذلك.

ولما استكمل السلطان أبو الحسن فتح تلمسان وصرف عزائمه إلى الجهاد داخل ابن الأحمر في إزاحتهم عن الأندلس مكان جهاده، فصادف منه إسعافاً وقبولاً وحرصاً على ذلك، وتقبض على أبي ثابت وإخوته إدريس ومنصور وسلطان.

وفر أخوهم سليمان فلحق بالطاغية، وكان له في يوم طريف أثر في الإيقاع بالمسلمين، ولما تقبض ابن الأحمر على أبي

ثابت وإخوته، أودعهم جميعاً المطبق أياماً، ثم غربهم إلى إفريقية، فنزلوا بتونس على مولانا السلطان أبي يحيى.

وأوعز إليه السلطان أبو الحسن بالتوثق منهم أن يتصلوا بنواحي المغرب، ويخالفوه إليها أيام شغله بالجهاد في الأندلس، فاعتقلهم وأوفد أبا محمد بن تافراكين إلى سدة السلطان أبي الحسن إليه شفيعاً فيهم، فتقبل شفاعته وأحسن نزلهم وكرامتهم، حتى إذا احتل بسبتة أيام حصار الجزيرة في سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة سعى بهم عنده، فتقبض عليهم واعتقلهم بمكناسة.

ولما انتزى ابنه الأمير أبو عنان على الأمر، وهزم منصور ابن أخيه أبي مالك صاحب فاس، ونازله بالبلد الجديد، بعث فيهم إلى مكناسة، فأطلقهم من الاعتقال وأفاض فيهم الإحسان والعطار واستظهر بهم شأنه.

وأحل أبا ثابت محل الشورى من مجلسه، وداخل إدريس أخاه في المكر بالبلد الجديد، فنزع إليها ومكر بهم، وثار عليهم إلى أن نزلوا على حكم السلطان أبي عنان، فعقد لأبي ثابت على سبتة وبلاد الريف ليشارف منها الأندلس محل إمارته.

وأطلق يده في المال والجيش، وفصل لذلك، فهلك بالطاعون يومئذ سنة تسع وأربعين وسبعمائة بمعسكره أزاء معسكر السلطان من حصار البلد الجديد.

واستقر إخوانه في إيالة السلطان أبي عنان بالمغرب الأقصى إلى أن كان من مفر أخيه إدريس وولايته على الغزاة بالأندلس، ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن يحيى بن عمر بن رحو وإمارته على الغزاة بالأندلس أولاً وثانياً ومبدأ ذلك وتصاريفه

كان رحو بن عبد الله كبير ولد عبد الله بن عبد الحق، وكان له بنون كثيرون، وتشعب نسله فيهم، منهم: موسى وعبد الحق والعباس وعمر ومحمد وعلي ويوسف.

وأجازوا كلهم إلى الأندلس مع أولاد سوط نساء من تلمسان كما قدمناه.

وأقام عمر بعدها بتلمسان مدة واتخذ بها الأهل والولد.

ثم لحقهم وولي موسى إمارة الغزاة بعد إبراهيم بن عيسى الوسناني، وبعده أخوه عبد الحق على الغزاة أقام بها مدة وأجاز إلى سبتة مع الرئيس أبي سعيد وعثمان بن أبي العلاء سنة خمس وسبعمائة وولي بعدها على الغزاة المجاهدين ثم رجع إلى الأندلس، ولم يلبث بعدها أن أجاز إلى المغرب.

ونزل على السلطان أبي سعيد، فأكرم نزله، ثم رجع إلى الأندلس.

ولما ولي إمارة الغزاة عثمان بن أبي العلاء، وكان بينهم من المنافسة ما يكون بين فحول الشول، أشخص بني رحو جميعاً إلى إفريقية، فنزلوا على مولانا السلطان أبي يحيى خير نزل، اصطفاهم واستخلصهم واستظهر جمعهم في حروبه.

وهلك عمر بن رحو ببلاد الجريد وقبره ببشرى من نفزاوة معروف، ونزع ابنه يحيى من بين إخوته عن مولانا السلطان أبي يحيى، وصار في جملة ابن أبي عمران، ثم لحق بزواوة وأقام في بني يراتن سنين، ثم أجاز إلى الأندلس واستقر بمكانه من قومه.

واصطفاه عثمان بن أبي العلاء وأصهر إليه بابنته، وخلطه بنفسه، ولما فسد ما بينه وبين ابن المحروق وزير السلطان بغرناطة سنة سبع وعشرين وسبعمائة واعصوصب عليه الغزاة بمعسكره من مرج غرناطة دس إليه يومئذ ابن المحروق إلى يحيى بن عمر هذا، ودعاه إلى مكان عثمان ليغيظه بذلك، فأجاب ونزع عن عثمان وقومه إلى ابن المحروق وسلطانه.

وعقد له على الغزاة فتسايلوا إليه عن عثمان شيخهم، وانصرف إلى المدية وكان من شأنه ما قصصناه في أخباره، وأقام يحيى بن عمر في رياسته إلى أن هلك ابن المحروق بفتكة سلطانه، واستدعى عثمان بني أبي العلاء للرياسة فرجع إليها.

وصرف يحيى بن عمر إلى وادي آش، وعقد له على الغزاة بها فأقام حيناً، ثم رجع إلى مكانه بين قومه.

واصطفاه عثمان بن أبي العلاء وابنه أبو ثابت لما كانت أمه بنت موسى بن رحو، فكان يتعصب لخؤولته فيهم ثم هلك عثمان وكان ما قدمناه من شأن ولده وفتكهم بالسلطان المخلوع.

وتقبض أخوهم أبو الحجاج عليهم، وأشخصهم إلى إفريقية وقوض مباني رياستهم، وعقد على الغزاة مكانهم ليحيى بن عمر هذا، فاضطلع بها أحسن اضطلاع.

واستمرت حاله وحضر مشاهد أبي الحجاج مع السلطان أبي الحسن، فظهرت كفايته وغناؤه.

ولما هلك أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمائة طعيناً بمصلى العيد، في آخر سجدة من صلاته، بيد عبد من عبيد

اصطبله مصاب في عقله، أغري - زعموا به، وقتل لحينه صبراً بالسيوف.

وبويع لابنه محمد، أخذ له البيعة على الناس يومئذ مولاه رضوان من معلوجيهم، حاجب أبيه وعمه.

وقام بأمره واستبد عليه وحجره، فقاسم يحيى بن عمر هذا في شأنه وشاركه في أمره وشد أزر سلطانه به، حتى إذا ثار بالحمراء الرئيس ابن عمهم محمد بن إسماعيل بن محمد ابن الرئيس أبي سعيد قائماً بدعوة إسماعيل بن أبي الحجاج أخي السلطان محمد كان ساكناً بالحمراء.

وتحينوا لذلك مغيب السلطان في متنزهه بروضة خارج الحمراء، فخالفوه إليها وكبسوها ليلاً فقتلوا الحاجب المستبد رضوان، وأجلس السلطان على سرير ملكه ونادوا بالناس إلى بيعته.

ولما أصبح غدا عليهم يحيى بن عمر بعد أن يئسوا منه وخشوا عاديته، فأتاهم ببيعته وأعطى عليها صفقته وانصرف إلى منزله.

وبعد استيلائهم استخلصوا إدريس بن عثمان بن أبي العلاء، كان وصل إليهم من دار الحرب بأرض برشلونة كما نذكر، وولوه إمارة الغزاة وائتمروا في التقبض على يحيى بن عمر.

ونذر بذلك فركب في حاشيته يؤم دار الحرب من أرض الجلالقة، واتبعه إدريس فيمن إليه من قومه، فقاتلهم صدر نهاره وفض جموعهم.

ثم خلص إلى تخوم النصرانية ولحق منها بسدة ملك المغرب على أثر سلطانه محمد المخلوع بن أبي الحجاج، وخلف ابنه أبا سعيد عثمان بدار الحرب.

ونزل يومئذ على السلطان أبي سالم سنة إحدى وستين وسبعمائة فأكرم مثواه وأحله من مجلسه محل الشورى والموامرة، واستقر في جملته إلى أن بعث ملك قشتالة في السلطان المخلوع، بإشارة ابنه أبي سعيد وسعايته في ذلك، ليجلب به على أهل الأندلس بما نقضوا من عهده.

وجهزه السلطان أبو سالم سنة ثلاث وستين وسبعمائة فصحبه يحيى بن عمر هذا.

ولقيهم ابنه أبو سعيد عثمان وقاموا بأمر سلطانهم، واستولى على الأندلس بمظاهرتهم، وكان لهم أثار في ذلك.

ولما استولى على غرناطة سنة ثلاث وستين وسبعمائة عقد ليحيى بن عمر على إمارة الغزاة كما كان وأعلى يده، واستخلص عثمان لشوراه وخلطه ببطانته.

ونافسه الوزير يومئذ محمد بن الخطيب فسعى فيهم، وأغرى السلطان بهم، فتقبض عليهم سنة أربع وستين وسبعمائة وأودعهم المطبق.

ثم أشخص يحيى سنة ست وستين وسبعمائة إلى المشرق وركب السفين من المدية فنزل بالاسكندرية، ورجع منها إلى المغرب، ونزل على عمر بن عبد الله أيام استبداده واستقر به في كرامة وخير مقامة، ولم يزل بالمغرب على أعز الأحوال إلى أن هلك سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة ثم استخلص ابنه أبا سعيد عثمان من الاعتقال سنة سبع وستين وسبعمائة إلى إفريقية ونزل ببجاية على مولانا السلطان أبي العباس حافد مولانا السلطان أبي يحيى واستقر في جملته، وحضر معه فتح تونس وأبلى فيه.

وأقطع له السلطان وأسنى له الجراية، وخلطه بنفسه واصطفاه لشوراه وخلته، وهو لهذا العهد من عظماء مجلسه وظهرائه في مقامات حروبه، وإخوته بالأندلس على مراكز عزهم وفي ظلال عصبيتهم مع قومهم، وقد ذهب مواجد السلطان بالأندلس عليهم وصار إلى جميل رأيه فيهم.

والله مالك الملك ومقلب القلوب لا رب غيره.

الخبر عن إدريس بن عثمان بن أبي العلاء وإمارته بالأندلس ومصاير أمره

لما هلك أبو ثابت بن عثمان بن أبي العلاء سنة خمسين وسبعمائة، واستمر إخوانه في جملة السلطان أبي عنان ملك المغرب وأقطعهم وأسنى جراياتهم، وكان في إدريس منهم بقية الترشيح يراه الناس به.

فلما نهض السلطان إلى فتح قسنطينة سنة ثمان وخمسين وسبعمائة توغل في ديار إفريقية وحام قومه عن مواقعها، تحيلوا عليه في الرجوع به عن قصده منها.

وأذنت المشيخة لمن معهم من قومهم في الإنطلاق إلى المغرب حتى خف المعسكر من أهله وتآمروا، زعموا في اغتيال السلطان والإدالة منه بإدريس هذا، ونذر بذلك فكر راجعاً كما ذكرناه في أخباره.

ولما اشيع ذلك بلغ إدريس شأنه فركب ظهر الغدر وفر من العسكر ليلاً، ولحق بتونس، ونزل على القائم بالدولة يومئذ

الحاجب أبي محمد بن تافراكين خير نزل وأبره.

وركب السفين من تونس إلى العدوة، فنزل على ابن القمص صاحب برشلونة في حشمه وذويه.

وأقام هنالك إلى أن كان من مهلك رضوان الحاجب المستبد بالأندلس سنة ستين وسبعمائة ما قدمناه فنزع إلى منبته من غرناطة.

ونزل على إسماعيل ابن السلطان أبي الحجاج والقائم بدولته يومئذ الرئيس محمد ابن عمه إسماعيل بن محمد الرئيس أبي سعيد فلقوه مبرة وتكريماً ورجوه بالإدالة به من يحيى بن عمر أمير الغزاة يومئذ، لما كانوا يتهمونه به من ممالأة المخلوع صاحب الأمر عليهم.

ولما نزع يحيى بن عمر إلى الطاغية، ولحق بدار الحرب سنة إحدى وستين وسبعمائة عقدوا لإدريس بن عثمان هذا على الغزاة مكانه، وولوه خطة أبيه وأخيه بدولتهم، فاضطلع بها.

وممالأ الرئيس محمداً على قتل سلطانه إسماعيل بن الحجاج واستبد بالأمر، ولسنتين من ولايته غلبه المخلوع أبو عبد الله على الأمر، وزحف إليه من رندة، كان نزل بها بعد خروجه من دار الحرب مغاضباً للطاغية.

وأذن له وزير المغرب عمر بن عبد الله في نزولها فنزلها، ثم زحف إلى الثائر بغرناطة على ملكهم الرئيس وحاشيته فأجفلوا.

ولحق الرئيس محمد بن إدريس هذا بقشتالة، ونزلوا في جملتهم وحاشيتهم على الطاغية، فتقبض عليهم، وقتل الرئيس محمد وحاشيته جزاء بما أتوه من غدر رضوان.

ثم غدر السلطان إسماعيل من بعده وأودع إدريس ومن معه من الغزاة السجن بإشبيلية، فلم يزل في أسره إلى أن تحيل في الفرار بمداخلة مسلم من الدجن أعد له فرساً أزاء معتقله، ففك قيده، ونقب البيت، وامتطى فرسه ولحق بأرض المسلمين سنة ست وستين وسبعمائة واتبعوه فأعجزهم، وجاء إلى السلطان أبي عبد الله محمد المخلوع فأكرم نزله وأحسن مبرته، ثم استأذنه في اللحاق بالمغرب فأذن له وأجازه إلى سبتة، وبلغ شأنه إلى عامل الأمر بالمغرب يومئذ عمر بن عبد الله، فأوعز إلى صاحب سبتة بالتقبض عليه لمكان ما يؤنس من ترشيحه.

وأودعه السجن بمكناسة، ثم نقله السلطان عبد العزيز إلى سجن الغور بفاس، ثم قتلوه خنقا سنة سبعين وسبعمائة والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن إمارة علي بن بدر الدين على الغزاة بالأندلس ومصاير أمره

قد ذكرنا أن موسى بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق، كان أجاز إلى الأندلس مع محمد وعامر ابني إدريس بن عبد الحق وقومهم، أولاد سوط النساء سنة تسع وستين وسبعمائة، ثم رجع إلى المغرب وفر إلى تلمسان وأجاز منها إلى الأندلس، وولي إمارة الغزاة بها إلى أن هلك بعد أن أصهر إليه السلطان يوسف بن يعقوب في ابنته، فعقد له عليها وزفها إليه سنة تسع وسبعين وسبعمائة مع وفد من قومهم.

وكان لموسى بن رحو من الولد جماعة أكبرهم المحمدان جمال الدين وبدر الدين، وضع عليهما هذين اللقبين على طريقة أهل المشرق الشريف المكي الوافد على المغرب لذلك العهد من شرفاه مكة.

وكان هؤلاء الأعياص من ملوكهم وأقيالهم يعظمون أهل البيت النبوي ويلتمسون الدعاء والبركة منهم فيما تيسر من أحوالهم، فحمل موسى بن رحو ولديه هذين عند وضعهما إلى الشريف يحنكهما ويدعو لهما، فقال له الشريف: خذ إليك جمال الدين، وقال في الآخر: خذ إليك بدر الدين، فاستحب موسى دعاءهما بهذين اللقبين تبركاً في بتسمية الشريف بهما، فاشتهرا بهذين الاسمين.

ولما بلغا الأشد وشاركا أباهما في حمل الرياسة وكان من مهلكه ما ذكرناه، وانحرفت رياسة الغزاة عنهما إلى عمهما عبد الحق وابنه، فلحق جمال الدين منهما بالطاغية سنة ثلاث ثم أجاز البحر من قرطاجنة إلى السلطان يوسف بن يعقوب من معسكره من حصار تلمسان، واستقر في جملته حتى إذا هلك السلطان تصدى ابنه أبو سالم للقيام بأمر، وكان مغلباً مضعفا فلم يتم أمره، وتناول الملك أبو ثابت حافد السلطان واستولى عليه.

وفر أبو سالم عشي مهلكه ومعه من القرابة جمال الدين هذا وأعمامه العباس وعيسى وعلي بنو رحو بن عبد الله، فتقبض عليهم في طريقهم بمديونة وسيقوا إلى السلطان أبي ثابت، فقتل عمه أبا سالم وجمال الدين بن موسى بن رحو، وامتن على الباقين واستحياهم، وانصرف السلطان بعدها إلى الأندلس، فكانت له في الجهاد آثار كما ذكرناه قبل.

وأما بدر الدين فلم يزل بالأندلس مع قومه، ومحله من الرياسة والتجلة محله من النسب إلى أن هلك، فقام بأمره من بعده

ابنه علي بن بدر الدين مزاحماً لقومه في الرياسة، مباهياً لهم في الترشيح.

وكان كثيراً ما يعقد له ملوك بني الأحمر على الغزاة من زناتة المرابطين بالثغور فيما بعد عن الحضرة من قواعد الأندلس، مثل مالقة والمرية ووادي آش، سبيل المرشحين من أهل بيته، وكانت إمارة الغزاة بالأندلس مستأثرة بأمر السيف والحرب، مقاسمة للسلطان أكثر الجباية في الأعطية والأرزاق لما كانت الحاجة إليهم في مدافعة العدو ومقارعة ملك المغرب إلى ملك الأندلس، وكانوا يغضون لهم عن استطالتهم عليهم لمكان حاجتهم إلى دفاع العدوين، حتى إذا سكن ريح الطاغية بما كان من شغله بفتنة أهل دينه منذ منتصف هذه المائة، وشغل بنو مرين أيضاً بعد مهلك السلطان أبي الحسن وتناسوا عهد الغلب على أقالهم وجيرانهم، وتناسوا عهد ذلك أجمع، فاعتزم صاحب الأندلس على محو هذه الخطة من دولته.

وأغراه بذلك وزيره ابن الخطب كما ذكرناه حرصاً على خلاء الجوله، فتقبض على يحيى بن عمر وبنيه سنة أربع وستين وسبعمائة كما ذكرناه، وعقد على الغزاة المجاهدين لابنه ولي عهده الأمير يوسف، ومحا رسم الخطة لبني مرين بالجملة إلى أن توهم فناء الحامية منهم بفناء بيوت العصبية الكبرى، فراجع رأيه في ذلك.

وكان علي بن بدر الدين خالصة له وكان مقدماً على الغزاة بوادي آش.

ولما لحق السلطان به ناجياً من النكبة ليلة مهلك رضوان، مانع دونه وظاهره على أمره حتى إذا ارتحل إلى المغرب ارتحل معه، ونزلوا جميعاً على السلطان أبي سالم سنة إحدى وستين وسبعمائة كما ذكرناه.

ولما رجع إلى الأندلس رجع في جملته فكان له بذلك عهد وذمه رعاهما السلطان له، وكان يستخلصه ويناجيه.

فلما تفقد مكان الأمير على الغزاة ونظر فيمن يوليه عثر اختياره على هذا لسابقته ووسائله وما تولاه من نصحه ووقوفه عند حده، فعقد له سنة سبع وستين وسبعمائة على الغزاة كما كان أولوه، فقام بها واضطلع بأمورها، واستمرت حاله إلى أن هلك حتف أنفه سنة ثمان وستين وسبعمائة، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

الخبر عن إمارة عبد الرحمن بن علي أبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي على الغزاة بالأندلس ومصاير أمره

كان أولاد السلطان أبي علي قد استوقروا بالأندلس وأجازوا إلى طلب الأمر بالمغرب.

وكان من أمرهم ما شرحناه، إلى أن أجاز عبد الرحمن هذا مع وزيره المطادر به مسعود بن رحو بن ماساي سنة ست وستين وسبعمائة من غساسة على سلم عقده لهم وزير المغرب المستبد بأمره يومئذ عمر بن عبد الله.

ونزل عبد الرحمن هذا بالمنكب، وكان السلطان يومئذ معسكراً بها فتلقاه من البر بما يناسبه، وأكرم مثواه وأسنى الجراية له ولوزيره ولحاشيته.

واستقروا في جملة الغزاة المجاهدين حتى إذا هلك علي بن بدر الدين سنة ثمان وستين وسبعمائة نظر السلطان فيمن يوليه أمرهم، فعثر اختياره على عبد الرحمن هذا لما عرف به من البسالة والإقدام ولقرب الشرائح بينه وبين ملك المغرب يومئذ، التي هي ملاك الترشيح لهذه الخطة بالأندلس كما قدمناه، لما كانت وشائج ولد عبد الله بن عبد الحق قد بعدت باتصال الملك في عمود نسب صاحب المغرب دون نسبهم، فآثره صاحب الأندلس بها، وعقد له على الغزاة المجاهدين سنة ثمان وستين وسبعمائة وأضفى عليه لبوس الكرامة والتجلة وأقعده بمجلس الوزارة كما كان الأمراء قبله، واتصل الخبر بسلطان المغرب يومئذ عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن، فغص بمكانه، وتوهم أن هذه الإمارة زيادة في ترشيحه ووسيلة للملكه، وكانت لوزير الأندلس محمد بن الخطيب مداخلة مع صاحب المغرب، بما أمل أن يجعله فيئة لاعتصامه، فأوعز إليه بالتحيل على إفساد ما بينه وبين صاحب الأندلس، فجهد في ذلك جهده.

ولُبست عليه وعلى وزيره مسعود بن ماساي كتب إلى عظماء القبيل وبعض البطانة من أهل الدولة بالتوثب والدعوة إلى الخروج على صاحب المغرب، فأحضرهم السلطان ابن الأحمر وأعطاهم كتابهم، فشهد عليهم وأمر بهم فاعتقلوا في المطبق سنة سبعين وسبعمائة واسترضى صاحب المغرب بفعلته فيهم، ونزع الوزير ابن الخطيب بعد ذلك إلى السلطان عبد العزيز، وتبين للسلطان مكره واحتياله عليه في شأنهم.

ولما هلك عبد العزيز وأظلم الجو بين صاحب الأندلس،

وبين القائم بالدولة أبي بكر بن غازي كما قدمناه، وامتعض ابن الأحمر للمسلمين من الفوضى، أطلق عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ووزيره مسعود بن ماساي من الاعتقال وجهز لهما الأسطول، فأجازوا فيه إلى المغرب ونزلوا بمرسى غساسة على بطوية داعياً لنفسه، فقاموا بأمره وكان من شأنه مع الوزير أبي بكر بن غازي ما قصصناه، واستقر آخراً بمراكش وتقاسم ممالك المغرب وأعماله مع السلطان أبي العباس أحمد ابن أبي سالم صاحب المغرب لهذا العهد، وصار التخم بينهما وادي ملوية.

ووقف كل واحد منهما عند حده، وأغفل صاحب الأندلس هذه الخطة من دولته ومحا رسمها من ملكه.

وصار أمر الغزاة المجاهدين إليه، وباشر أحوالهم بنفسه، وعمهم بنظره، وخص القرابة المرشحين منهم بمزيد تكرمته وعنايته.

والأمر على ذلك لهذا العهد، وهو سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة والله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء لا رب غيره ولا معبود سواه. والحمد لله على كل حال، وصلى ا لله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.

تم كتاب أخبار الدول الإسلامية بالمغرب لولي الدين أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي الإشبيلي المالكي.

والحمد لله رب العالمين.

التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب

وأصل هذا البيت من إشبيلية انتقل سلفنا عند الجلاء وغلب ملك الجلالقة ابن أدفونش عيها إلى تونس في أواسط المائة السابعة.

(نسبه) عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون، لا أذكر من نسبي إلى خلدون غير هؤلاء العشرة، ويغلب على الظن أنهم أكثر، وأنه سقط مثلهم عدداً، لأن خلدون هذا هو الداخل إلى الأندلس، فإن كان أول الفتح فالمدة لهذا العهد سبعمائة سنة، فيكونون زهاء العشرين، ثلاثة لكل مائة، كما تقدم في أول الكتاب الأول.

ونسبنا في حضرموت من عرب اليمن إلى وائل بن حجر من أقيال العرب، معروف وله صحبة.

قال أبو محمد بن حزم في كتاب « الجمهرة » : هو وائل بن حجر بن سعد بن مسروق بن وائل، ابن النعمان بن ربيعة بن الحارث بن عوف بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن شرحبيل بن الحرث بن مالك بن مرة بن حميري بن زيد بن الحضرمي بن عمرو بن عبد الله بن هانئ بن جرشم بن عبد شمس بن زيد بن لؤي بن ثبت بن قدامة بن أعجب بن مالك بن لؤي بن قحطان، وابنه علقمة بن وائل وعبد الجبار بن وائل.

وذكره أبو عمر بن عبد البر في حرف الواو من «الاستيعاب».

وأنه وفد على النبي ﷺ، فبسط له رداءه وأجلسه عليه، وقال: «اللّهم بارك في وائل بن حجر وولده وولد ولده إلى يوم القيامة».

وبعث معه جارية بن أبي سفيان إلى قومه يعلمهم الإسلام والقرآن، فكانت له بذلك صحابة مع معاوية.

ووفد عليه لأول خلافته فأجازه، فرد عليه جائزته ولم يقبلها.

ولما كانت واقعة حجر بن عدي الكندي بالكوفة، اجتمع رؤوس أهل اليمن، وفيهم هذا فكانوا مع زياد بن أبي سفيان عليه، حتى أوثقوه وجاؤوا به إلى معاوية فقتله كما هو معروف.

وقال ابن حزم: ويذكر بنو خلدون الإشبيليون من ولده، وجدهم الداخل من الشرق خالد المعروف بخلدون بن عثمان بن هانئ بن الخطاب بن كريب بن معد يكرب بن الحارث بن وائل بن حجر قال: وكان من عقبه كريب بن عثمان بن خلدون وأخوه خالد، وكانا من أعظم ثوار الأندلس.

قال ابن حزم: وأخوه محمد، كان من عقبه أبو العاصي عمرو بن محمد بن خالد بن محمد بن خلدون.

وبني أبي العاصي محمد وأحمد وعبد الله.

قال: وأخوهم عثمان، له عقب ومنهم الحكيم المشهور بالأندلس تلميذ مسلمة المجريطي.

وهو أبو مسلم عمر بن محمد بن بقي بن عبد الله بن بكر بن خالد بن عثمان بن خالد بن عثمان بن خلدون الداخل.

وابن عمه أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله.

قال: ولم يبق من ولد كريب الرئيس المذكور إلا أبو الفضل بن محمد بن خلف بن أحمد بن عبد الله بن كريب انتهى، كلام ابن حزم.

سلفه بالأندلس، ولما دخل خلدون بن عثمان جدنا إلى الأندلس، نزل بقرمونة في رهط من قومه حضرموت، ونشأ بيت بنيه بها، ثم انتقلوا إلى إشبيلية.

وكانوا في جند اليمن، وكان لكريب من عقبه وأخيه خالد الثورة المعروفة بإشبيلية أيام الأمير عبد الله المرواني، ثار على ابن أبي عبدة وملكها من يده أعواماً.

ثم ثار عليه إبراهيم بن حجاج بإملاء الأمير عبد الله وقتله، وذلك في أواخر المائة الثالثة.

وتلخيص الخبر عن ثورته ما نقله ابن سعيد عن الحجاري وابن حيان وغيرهما، وينقلونه عن ابن الأشعث مؤرخ إشبيلية أن الأندلس لما اضطربت بالفتن أيام الأمير عبد الله، تطاول رؤساء إشبيلية إلى الثورة والاستبداد، وكان رؤساؤها المتطاولون إلى ذلك في ثلاثة بيوت: بيت بني أبي عبدة ورئيسهم يومئذ أمية بن عبد الغافر بن أبي عبدة، وكان عبد الرحمن الداخل ولى أبا عبيدة إشبيلية وأعمالها، وكان حافده أمية من أعلام الدولة بقرطبة، ويولونه الممالك الضخمة.

وبيت بني خلدون هؤلاء ورئيسهم كريب المذكور، ويردفه خالد أخوه.

قال ابن حيان: وبيت بني خلدون إلى الآن في إشبيلية، نهاية في النباهة، ولم تزل أعلامه بين رياسة سلطانية ورياسة علمية.

ثم بيت بني حجاج ورئيسهم يومئذ عبد الله.

قال ابن حيان: هم يعني - بني حجاج - من لخم وبيتهم إلى الآن في إشبيلية ثابت الأصل نابت الفرع موسوم بالرياسة السلطانية والعلمية.

فلما عظمت الفتنة بالأندلس أعوام الثمانين والمائتين، وكان الأمير عبد اللّه قد ولى على إشبيلية أمية بن عبد الغافر، وبعث معه ابنه محمداً وجعله في كفالته، فاجتمع هؤلاء النفر وثاروا بمحمد بن الأمير عبد اللّه، وبأمية صاحبهم، وهو يمالئهم على ذلك، ويكيد بابن الأمير عبد اللّه.

وحاصروهما في القصر حتى طلب منهم اللحاق بأبيه فأخرجوه، واستبد أمية بإشبيلية، ودس على عبد اللّه بن حجاج من قتله، وأقام أخاه إبراهيم مكانه.

وضبط إشبيلية واسترهن أولاد بني خلدون وبني حجاج ثم ثاروا به، وهمّ بقتل أبنائهم فراجعوا طاعته، وحلفوا له، فأطلق أبناءهم فانتقضوا ثانية، وحاربوه فاستمات وقتل حرمه وعقر خيوله، وأحرق موجوده.

وقاتلهم حتى قتلوه مقبلاً غير مدبر، وعاثت العامة في رأسه.

وكتبوا إلى الأمير عبد اللّه بأنه خلع فقتلوه، فقبل منهم مداراة، وبعث عليهم هشام بن عبد الرحمن من قرابته، فاستبدوا عليه وفتكوا بابنه، وتولى كبر ذلك كريب بن خلدون، واستقل بإمارتها.

وكان إبراهيم بن حجاج بعدما قتل أخوه عبد اللّه - على ما ذكره ابن سعيد عن الحجاري - سمت نفسه إلى التفرد، فظاهر ابن حفصون أعظم ثوار الأندلس يومئذ، وكان بمالقة وأعمالها إلى رندة، فكان له منه ردء.

ثم انصرف إلى مداراة كريب بن خلدون وملابسته، فردفه في أمره، وشركه في سلطانه، وكان في كريب تحامل على الرعية وتعصب، فكان يتجهم لهم ويغلظ عليهم، وابن حجاج يسلك بهم الرفق والتلطف في الشفاعة لهم عنده، فانحرفوا عن كريب إلى إبراهيم.

ثم دس إلى الأمير عبد اللّه يطلب منه الكتاب بولاية إشبيلية، لتسكن إليه العامة، فكتب إليه العهد بذلك، وأطلع عليه عرفاء البلد مع ما أشربوا من حبه، والنفرة عن كريب، ثم أجمع الثورة.

وهاجت العامة بكريب فقتلوه، وبعث برأسه إلى الأمير عبد اللّه، واستقر بإمارة إشبيلية.

قال ابن حيان: وحصن مدينة قرمونة من أعظم معاقل الأندلس، وجعلها مرتبطاً لخيوله، وكان ينتقل بينها وبين إشبيلية، واتخذ الجند ورتبهم طبقات، وكان يصانع الأمير عبد اللّه بالأموال والهدايا، ويبعث إليه المدد في الصوائف.

وكان مقصوداً ممدحاً، قصده أهل البيوتات فوصلهم، ومدحه الشعراء فأجازهم وانتجعه ومدحه أبو عمر بن عبد ربه صاحب « العقد » وقصده من بين سائر الثوار فعرف حقه وأعظم جائزته.

ولم يزل بيت بني خلدون بإشبيلية - كما ذكره ابن حيان وابن حزم وغيرهما - سائر أيام بني أمية إلى أزمان الطوائف - وانمحت عنهم الإمارة بما ذهب لهم من الشوكة.

ولما علا كعب ابن عباد بإشبيلية، واستبد على أهلها استوزر من بني خلدون هؤلاء واستعملهم في رتب دولته، وحضروا معه وقعة الزلاقة كانت لابن عباد وليوسف بن تاشفين على ملك الجلالقة، فاستشهد فيهما طائفة كبيرة من بني خلدون هؤلاء ثبتوا في الجولة مع ابن عباد فاستلحموا في ذلك الموقف، ثم كان الظهور للمسلمين، ونصرهم اللّه على عدوهم.

ثم تغلب يوسف بن تاشفين والمرابطون على الأندلس، واضمحلت دولة العرب وفنيت قبائلهم.

سلفه بإفريقية: ولما استولى الموحدون على الأندلس وملكوها من يد المرابطين، وكان ملوكهم: عبد المؤمن وبنيه، وكان الشيخ أبو حفص كبير هنتاتة زعيم دولتهم، وولوه على إشبيلية وغرب الأندلس مراراً، ثم ولوا ابنه عبد الواحد عليها في بعض أيامهم، ثم ابنه أبا زكريا كذلك، فكان لسلفنا بإشبيلية اتصال بهم، وأهدى بعض أجدادنا من قبل الأمهات، ويعرف بابن المحتسب للأمير أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص أيام ولايته عليهم، جارية من سبي الجلالقة، اتخذها أم ولد، وكان له منها ابنه أبو يحيى زكريا ولي عهده الهالك في أيامه، وأخواه عمر وأبو بكر، وكانت تلقب أم الخلفاء.

ثم انتقل الأمير أبو زكريا إلى ولاية إفريقية سنة عشرين وستمائة، ودعا لنفسه بها وخلع دعوة بني عبد المؤمن سنة خمس وعشرين وستمائة واستبد بإفريقية، وانتقضت دولة الموحدين بالأندلس، وثار عليهم ابن هود.

ثم هلك واضطربت الأندلس وتكالب الطاغية عليها، وردد الغزو إلى الفرنتيرة بسيط قرطبة وإشبيلية إلى جيان.

وثار ابن الأحمر بغرب الأندلس من حصن أرجونة يرجو

التماسك لما بقي من رمق الأندلس، وفاوض أهل الشورى يومئذ بإشبيلية، وهم بنو الباجي، وبنو الجد، وبنو الوزير، وبنو سيد الناس، وبنو خلدون.

وداخلهم في الثورة على ابن هود، وأن يتجافوا للطاغية عن الفرنتيرة، ويتمسكوا بالجبال الساحلية وأمصارها المتوعرة، من مالقة إلى غرناطة إلى المرية، فلم يوافقوه على بلدهم.

وكان مقدمهم أبو مروان الباجي، فنابذهم ابن الأحمر وخلع طاعة الباجي وبايع مرة لابن هود ومرة لصاحب مراكش من بني عبد المؤمن، ومرة للأمير أبي زكريا صاحب إفريقية.

ونزل غرناطة واتخذها دار لملكه، وبقيت الفرنتيرة وأمصارها ضاحية من ظل الملك، فخشي بنو خلدون سوء العاقبة مع الطاغية، وارتحلوا من إشبيلية إلى العدوة، ونزلوا سبتة، وأجلب الطاغية على تلك الثغور فملك قرطبة وإشبيلية وقرمونة وجيان وما إليها في مدة عشرين سنة.

ولما نزل بنو خلدون بسبتة أصهر إليهم العزفي بأبنائه وبناته، فاختلط بهم، وكان له معهم صهر مذكور.

وكان جدنا الحسن بن محمد، وهو سبط ابن المحتسب قد أجاز فيمن أجاز معهم، فذكر سوابق سلفه عند الأمير أبي زكريا، فقصده، وقدم عليه فأكرم قدومه، وارتحل إلى المشرق فقضى فرضه.

ثم رجع ولحق بالأمير أبي زكريا على بونة، فأكرمه واستقر في ظل دولته ومرعى نعمته، وفرض له الأرزاق وأقطع الأقطاع.

وهلك هنالك فدفن ببونة وخلف ابنه محمداً أبا بكر؛ فنشأ في جوّ تلك النعمة ومرعاها. وهلك الأمير أبو زكرياء ببونة سنة سبع وأربعين وستمائة وولي ابنه المستنصر محمد، فأجرى جدنا أبا بكر على ما كان لأبيه.

ثم ضرب الدهر ضرباته، وهلك المستنصر سنه خمس وسبعين وستمائة، وولي ابنه يحيى، وجاء أخوه الأمير أبو إسحاق من الأندلس بعد أن كان فر أمام أخيه المستنصر، فخلع يحيى، واستقل هو بملك إفريقية، ودفع جدنا أبا بكر محمداً الى عمل الأشغال في الدولة على سنن عظماء الموحدين فيها قبله، من الانفراد بولاية العمال وعزلهم وحسبانهم على الجباية، فاضطلع بتلك الرتبة.

ثم عقد السلطان أبو إسحاق لابنه محمد، وهو جدنا الأقرب على حجابة ولي عهده ابنه أبي فارس أيام أقصاه إلى بجاية.

ثم استعفى جدنا من ذلك فأعفاه ورجع إلى الحضرة، ولما غلب الدعي ابن أبي عمارة على ملكهم بتونس، اعتقل جدنا أبا بكر محمداً، وصادره على الأموال ثم قتله خنقاً في محبسه.

وذهب ابنه محمد جدنا الأقرب مع السلطان أبي إسحاق وأبنائه إلى بجاية فتقبض عليه ابنه أبو فارس، وخرج مع العساكر هو وإخوته لمدافعة الدعي ابن أبي عمارة، وهو يشبه بالفضل بن المخلوع حتى إذا استلحموا بمرماجنة خلص جدنا محمد مع أبي حفص- ابن الأمير أبي زكريا من الملحمة، ومعهما الفازازي وأبو الحسين بن سيد الناس فلحقوا بمنجاتهم من قلعة سنان.

وكان الفازازي من صنائع المولى أبي حفص، وكان يؤثره عليهم.

فأما أبو الحسين بن سيد الناس، فاستنكف من إيثار الفازازي عليه، بما كان أعلى رتبة منه ببلده إشبيلية، ولحق بالمولى أبي زكريا الأوسط بتلمسان، وكان من شأنه ما ذكرناه.

وأما محمد بن خلدون فأقام مع الأمير أبي حفص وسكن لإيثار الفازازي.

ولما استولى أبو حفص على الأمور رعى له سابقته وأقطعه، ونظمه في جملة القواد ومراتب أهل الحروب، واستكفى به في الكثير من أمر ملكه، ورشحه لحجابته من بعد الفازازي، وهلك فكان من بعده حافد أخيه المستنصر أبو عصيدة، واصطفى لحجابته محمد بن إبراهيم الدباغ كاتب الفازازي وجعل محمد بن خلدون رديفاً في حجابته.

فكان كذلك إلى أن هلك السلطان، وجاءت دولة الأمير خالد، فأبقاه على حاله من التجلة والكرامة، ولم يستعمله ولا عقد له، إلى أن كانت دولة أبي يحيى بن اللحياني فاصطنعه، واستكفى به عندما نبضت عروق التغلب للعرب، ودفعه إلى حماية الجزيرة من دلاج أحد بطون سليم الموطنين بنواحيها، فكانت له في ذلك آثار مذكورة.

ولما انقرضت دولة ابن اللحياني خرج إلى المشرق وقضى فرضه سنة ثمان عشرة وأظهر التوبة والإقلاع، وعاود الحج متنفلاً سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة ولزم كسر بيته.

وأبقى السلطان أبو يحيى عليه نعمته في كثير مما كان بيده من الأقطاع والجراية، ودعاه إلى حجابته مراراً فامتنع.

أخبرني محمد بن منصور بن مزني قال: لما هلك الحاجب محمد بن عبد العزيز الكردي المعروف بالمزوار سنة سبع وعشرين وسبعمائة، استدعى السلطان جدك محمد بن خلدون وأراده على

الحجابة، وأن يفوض إليه في أمره، فأبى واستعفى فأعفاه ووامره فيمن يوليه حجابته، فأشار عليه بصاحب الثغر: بجاية محمد بن أبي الحسين بن سيد الناس لاستحقاقه ذلك بكفايته واضطلاعه، ولقديم صحابة بين سلفهما بتونس،، وبإشبيلية من قبل.

وقال له: هو أقدر على ذلك بما هو عليه من الحاشية والذوين فعمل السلطان على إشارته واستدعى ابن سيد الناس وولاه حجابته.

وكان السلطان أبو يحيى إذا خرج من تونس يستعمل جدنا محمداً عليها وثوقاً بنظره واستنامة إليه إلى أن هلك سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ونزع ابنه، وهو والدي محمد أبو بكر عن طريقة السيف والخدمة إلى طريقة العلم والرباط، لما نشأ عليه في حجر أبي عبد الله الزبيدي الشهير بالفقيه، كان كبير تونس لعهده في العلم والفتيا، وانتحال طرق الولاية التي ورثها عن أبيه حسين وعمه حسن، الوليين الشهيرين.

وكان جدنا رحمه الله قد لزمه من يوم نزوعه عن طريقه، وألزمه ابنه وهو والدي رحمه الله فقرأ وتفقه، وكان مقدماً في صناعة العربية، وله بصر بالشعر وفنونه، عهدي بأهل الأدب يتحاكمون إليه فيه، ويعرضون حوكهم عليه، وهلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة.

نشأته ومشيخته وحاله

أما نشأتي: فإني ولدت بتونس في غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة، وربيت في حجر والدي رحمه الله إلى أن أيفعت وقرأت القرآن العظيم على الأستاذ المكتب أبي عبد الله محمد بن سعد بن برال، الأنصاري، أصله من جالية الأندلس من أعمال بلنسية، أخذ عن مشيخة بلنسية وأعمالها، وكان إماماً في القراءات لا يلحق شأوه، وكان من أشهر شيوخه في القراءات السبع أبو العباس أحمد بن محمد البطرني، ومشيخته فيها، وأسانيده معروفة وبعد أن استظهرت القرآن الكريم من حفظي،قرأته عليه بالقراآت السبع المشهورة إفراداً وجمعاً في إحدى وعشرين ختمة، ثم جمعتها في ختمة واحدة أخرى ثم قرأت برواية يعقوب ختمة واحدة جمعاً بين الروايتين عنه، وعرضت عليه رحمه الله قصيدتي الشاطبي اللامية في القراءات والرائية في الرسم وأخبرني بهما عن الأستاذ أبي العباس البطرني وغيره من شيوخه، وعرضت عليه كتاب « التقصي لأحاديث الموطأ » لابن عبد البر حذا به حذو كتابه « التمهيد على الموطأ » مقتصراً على الأحاديث فقط.

ودرست عليه كتباً جمة مثل كتاب « التسهيل » لابن مالك، و « مختصر ابن الحاجب » في الفقه ولم أكملهما بالحفظ، وفي خلال ذلك تعلمت صناعة العربية على والدي وعلى أستاذي تونس: منهم الشيخ أبو عبد الله بن العربي الحصايري، وكان إماماً في النحو وله شرح مستوفى على كتاب التسهيل.

ومنهم أبو عبد الله محمد بن الشواش الزرزالي.

ومنهم أبو العباس أحمد بن القصار، كان ممتعاً في صناعة النحو، وله شرح على قصيدة البردة المشهورة في مدح الجناب النبوي وهو حي لهذا العهد بتونس.

ومنهم إمام العربية والأدب بتونس أبو عبد الله محمد بن بحر، لازمت مجلسه وأفدت عليه، وكان بحراً زاخراً في علوم اللسان.

وأشار علي بحفظ الشعر فحفظت كتب الأشعار الستة، والحماسة للأعلم وشعر حبيب وطائفة من شعر المتنبي، ومن أشعار كتاب الأغاني.

ولازمت أيضاً مجلس إمام المحدثين بتونس، شمس الدين أبي عبد الله بن جابر بن سلطان القيسي الوادياشي صاحب الرحلتين، وسمعت عليه كتاب مسلم بن الحجاج إلا فوتاً يسيراً من كتاب الصيد، وسمعت عليه كتاب الموطأ من أوله إلى آخره، وبعضا من الأمهات الخمس، وناولني كتباً كثيرة في العربية والفقه وأجازني إجازة عامة، وأخبرني عن مشايخه المذكورين في برنامجه أشهرهم بتونس قاضي الجماعة أبو العباس أحمد بن الغماز الخزرجي.

وأخذت الفقه بتونس عن جماعة، منهم أبو عبد الله بن عبد الله الجياني، وأبو القاسم محمد القصير، وقرأت عليه كتاب « التهذيب » لأبي سعيد البرادعي، مختصر المدونة، وكتاب المالكية، وتفقهت عليه.

وكنت في خلال ذلك أنتاب مجلس شيخنا الإمام قاضي الجماعة أبي عبد الله بن عبد السلام مع أخي محمد رحمة الله عليهما، وأفدت منه وسمعت عليه أثناء ذلك كتاب الموطأ للإمام مالك، وكانت له فيه طرق عالية عن أبي محمد بن هارون الطائي قبل اختلاطه - إلى غير هؤلاء من مشيخة تونس، وكلهم في الطاعون الجارف.

وكان قدم علينا في جملة السلطان أبي الحسن عندما ملك إفريقية سنة ثمان وأربعين جماعة من أهل والعلم كان يلزمهم شهود مجلسه، ويتجمل بمكانهم فيه، فمنهم شيخ الفتيا بالمغرب

وإمام مذهب مالك أبو عبد الله محمد بن سليمان السطي، فكنت أنتاب مجلسه وافدت عليه.

ومنهم كاتب السلطان أبي الحسن وصاحب علامته التي توضع أسافل مكتوباته، إمام المحدثين والنحاة بالمغرب أبو محمد عبد المهيمن بن عبد المهيمن الحضرمي، لازمته وأخذت عنه سماعا وإجازة، الأمهات الست.

وكتاب الموطأ، والسير لابن إسحاق، وكتاب ابن الصلاح في الحديث، وكتباً كثيرة شذت عن حفظي.

وكانت بضاعته في الحديث وافرة، ونحلته في التقييد والحفظ كاملة، كانت له خزانة من الكتب تزيد على ثلاثة آلاف سفر في الحديث والفقه والعربية والأدب والمعقول وسائر الفنون، مضبوطة كلها مقابلة، ولا يخلو ديوان منها عن ضبط بخط بعض شيوخه المعروفين في سنده إلى مؤلفه، حتى الفقه والعربية الغريبة الإسناد إلى مؤلفيها في هذه العصور.

ومنهم الشيخ أبو العباس أحمد الزواوي إمام المقرئين بالمغرب.

قرأت عليه القرآن العظيم بالجمع الكبير بين القراءات السبع، من طريق أبي عمرو الداني وابن شريح في ختمه ولم أكملها، وسمعت عليه عدة كتب، وأجازني بالإجازة العامة.

ومنهم شيخ العلوم العقلية أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي أصله من تلمسان، وبها نشأ، وقرأ كتب التعاليم وحذق فيها، وأظله الحصار الكبير بتلمسان أعوام المائة السابعة، فخرج منها وحج ولقي أعلام المشرق يومئذ، فلم يأخذ عنهم لأنه كان مختلطا بعارض عرض في عقله.

ثم رجع من المشرق وأفاق وقرأ المنطق والأصلين على الشيخ أبي موسى عيسى ابن الإمام، وكان قرأ بتونس مع أخيه أبي زيد عبد الرحمن على تلاميذ ابن زيتون الشهير الذكر وجاء إلى تلمسان بعلم كثير من المنقول والمعقول، فقرأ الآبلي على أبي موسى منهما كما قلناه، ثم خرج من تلمسان هارباً إلى المغرب لأن سلطانها يومئذ ابو حمو من ولد يغمراسن بن زيان، كان يكرهه على التصرف في أعماله، وضبط الجباية بحسبانه، ففر إلى المغرب، ولحق بمراكش، ولازم العالم الشهير أبا العباس بن البناء الشهير الذكر، فحصل عنه سائر العلوم العقلية، وورث مقامه فيها وأرفع، ثم صعد إلى جبال الهساكرة بعد وفاة الشيخ باستدعاء علي بن محمد بن ترومیت ليقرأ عليه، فأفاده وبعد أعوام استنزله ملك المغرب، السلطان أبو سعيد، وأسكنه بالبلد الجديد والآبلي معه.

ثم اختصه السلطان أبو الحسن ونظمه في جملة العلماء بمجلسه، وهو في خلال ذلك يعلم العلوم العقلية، ويبثها بين أهل المغرب حتى حذق فيها الكثير منهم من سائر أمصارها، وألحق الأصاغر بالأكابر في تعليمه.

ولما قدم على تونس في جملة السلطان أبي الحسن، لزمته، وأخذت عنه الأصلين، والمنطق، وسائر الفنون الحكمية، والتعليمية، وكان رحمه الله يشهد لي بالتبريز في ذلك.

وممن قدم في جملة السلطان أبي الحسن، صاحبنا أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان المالقي، كان يكتب عن السلطان ويلازم خدمة أبي محمد عبد المهيمن رئيس الكتاب يومئذ، وصاحب العلامة التي توضع عن السلطان أسفل المراسيم والمخاطبات، وبعضها يضعه السلطان بخطه.

وكان ابن رضوان هذا من مفاخر المغرب في براعة خطه، وكثرة علمه، وحسن سمته، وإجادته في فقه الوثائق، والبلاغة في الترسيل عن السلطان، وحوك الشعر والخطابة على المنابر، لأنه كان كثيراً ما يصلي بالسلطان.

فلما قدم علينا بتونس صحبته، واغتبطت به، وإن لم أتخذه شيخاً، لمقاربة السن، فقد أفدت منه كما أفدت منهم.

وقد مدحه صاحبنا أبو القاسم الرحوي شاعر تونس في قصيدة على روي النون يرغب منه تذكرة شيخه أبي محمد عبد المهيمن في إيصال مدحه للسلطان أبي الحسن في قصيدته على روي الباء، وقد تقدم ذكرها في أخبار السلطان.

وذكر في مدح ابن رضوان أعلام العلماء القادمين مع السلطان وهي هذه:

عرفت زماني حين أنكرت عرفاني ... وأيقنت أن لا حظ في كف كيوان
وأن لا اختيار في اختيار مقسوم ... وأن لا قراع بالقران لأقران
وأن نظام الشكل أكمل نظمه ... لأضعف قاضٍ في الدليل برجحان
وأن افتقار المرء من فقراته ... ومن ثقله يغني اللبيب بأوزان
فمن بعد ما شمت الحلاب ولم أرغ ... لهشة راضٍ أو لشرة غضبان
ولم يعشني للنار لمع شعاعها ... فما كان نار نار موسى بن عمران
ولم يبق لي في الغيب من أملٍ سوى ... لقاء ابن رضوان وجنة رضوان
هنالك ألفيت العلا تنتمي إلى ... أناس ضئيلٌ عندهم فخر غسان
وأرعيت من روض التأدب يانعاً ... وحييت من كنز العلوم بقيعان
وردت فلم تجدب لديه ريادتي ... وصدق طرفي ما تلقته آذاني
فحسبك من آدابه كلُّ زاجر ... يحييك معسولاً بدرٍّ ومرجان
يحييك بالسلك الذي لم تحط به ... طروس ابن سهل أو سوالف بوران

فقل بابليّ إن ينافك لفظةً ... وفي وشيه الأطراس قل هو صنعاني
خلائق لم تخلق سدىً بل تكمّلت ... بإسداء إنعام وإبلاء إحسان

ثم يقول في ذكر العلماء القادمين:

هم القوم كل القوم أما حلومهم ... فأرسخ من طودي ثبير وثهلان
فلا طيش يعروهم وأما علومهم ... وقد ظفرت منه بوصل وقربان
بفقهٍ يشيم الأصبحي صباحة ... وأشهب منه يستدلُّ بشهبان
وحسن جدال للخصوم ومنطق ... يجيئان في الأخفى بأوضح برهان
سقت روضة الآداب منهم سحائبٌ ... سحين على سحبان أذيال نسيان
فلم يبق نأي ابن الإمام شماخةً ... على مدن الدُّنيا لأنف تلمسان
وبعد نوى السطي لم تسط فأسه ... بفخر على بغدان في عصر بغدان
وبالآبليّ استسقت الأرض وبلها ... ومستويل ما مال عنه لأظعان
وهامت على عبد المهيمن تونس ... وقد ظفرت منه بوصل وقربان
وما علقت مني الضمائر غيره ... وإن هويت كلا بحب ابن رضوان

وكتب هذا الشاعر: صاحبنا الرحوي يذكر عبد المهيمن بذلك.

لهي النفس في اكتساب وسعي ... وهو العمر في انتهاب وفي
وأربى الناس بين ساع لرشد ... يتوخى الهدى وساع لغي
وأرى العلم للبرية زينا ... فتزي منه بأحسن زي
وأرى الفضل قد تجمع كلا ... في ابن عبد المهيمن الحضرمي
حل بالرتبة العلية في حضرة ... ملك سامي العماد عليّ
قلمٌ أوسع الأقاليم أمراً ... فله قد أطاع كلّ عصيّ
قدرٌ ما يفيد منه احتذارٌ ... فبأيٍ تراه يقضي بأي
يمنح العزَّ والعلا ويوالي ... بالعطايا الجسام كلَّ وليّ
يلجأ الدَّارعون خوفاً إليه ... فهو يزري بالصّارم المشرفيّ
هو أعلى الأقلام في كل عصر ... حيث ينمى إلى الإمام علي
حليت تكلم الرياسة منه ... بفريدٍ في كل معنى سنيّ
سالك ففي النظام درأً وطوراً ... ناثر درَّه بنثرٍ وطيّ
بدعٌ للبديع ترمي بحصرٍ ... ولصابي بني بويهٍ بعيّ
ويرى أخرس العراق لديه ... إنه بالشام كالأعجمي
وعلوم هي البحور ولكن ... يثني الواردون منها بري
تصدر الأمة العظيمة عنه ... بحديث مجوَّد مرويّ
وبفقهٍ فيه وحسن مقال ... يضع النور في لحاظ العميّ
وبنحو ينحي على سيبويهٍ ... ببيان في المبهمات جليّ
عمي الأخفشان عنه وسدَّت ... عن خفاياه فطنةُ الفارسيّ
يا أخا الحكم في الأنام وإني ... لأنادي ربّ الندى والندى
بنت فكري تعرَّضت لحماكم ... فألقها راضياً بوجه رضيّ
تبتغي القرب من مراقي الأماني ... والترقي للجانب العلوي
فأنالها مرامها نلت ستهلا ... كل دان تبغي وكل قصي

ثم كانت واقعة العرب على السلطان بالقيروان في فاتحة تسع وأربعين وسبعمائة فشغلوا عن ذلك ولم يظفر هذا الرحوي بطلبته.

ثم جاء الطاعون الجارف فطوى البساط بما فيه، وهلك عبد المهيمن فيمن هلك، ودفن بمقبرة سلفنا بتونس، لخلة كانت بينه وبين والدي رحمه الله أيام قدومهم علينا.

فلما كانت واقعة القيروان ثار أهل تونس بمن كان عندهم من أشياع السلطان أبي الحسن، فاعتصموا بالقصبة دار الملك، حيث كان ولد السلطان وأهله، وانتقض عليه ابن تافراكين، وخرج من القيروان إلى العرب، وهم يحاصرون السلطان، وقد اجتمعوا على ابن أبي دبوس وبايعوا له كما مر في أخبار السلطان، فبعثوا ابن تافراكين إلى تونس، فحاصر القصبة وامتنعت عليه.

وكان عبد المهيمن يوم ثورة أهل تونس، ووقوع الهيعة خرج من بيته إلى دارنا فاختفى عند أبي رحمه الله، وأقام متخفياً عندنا نحواً من ثلاثة أشهر.

ثم نجا السلطان من القيروان إلى سوسة، وركب البحر إلى تونس، وفر ابن تافراكين إلى المشرق، وخرج عبد المهيمن من الاختفاء، وأعاده السلطان إلى ما كان عليه من وظيفة العلامة والكتابة وكان كثيراً ما يخاطب والدي رحمه الله ويشكره على موالاته، ومما كتب إليه وحفظته من خطه:

لمحمد ذوي المكارم قد ثناني ... فعال شكره أبداً عناني
جزى الله ابن خلدون حياة ... منعمة وخلداً في الجنان
فكم أولى ووالى من جميل ... وبر بالفعال وباللسان
وراعى الحضرمية في الذي قد ... حنا من وده ومن الحنان
أبا بكر ثناؤك طول دهري ... أردد باللسان وبالجنان
وعن عليك ما امتدت حياتي ... أكافح بالحسام وباللسان
فمنك أفدت خلا لست دهري ... أرى عن حبه أثني عناني

وهؤلاء الأعلام الذين ذكرهم الرحوي في شعره، هم سباق الحلبة في مجلس السلطان أبي الحسن، اصطفاهم لصحابته من بين أهل المغرب، فأما ابنا الإمام منهم، فكانا أخوين من أهل برشك من أعمال تلمسان، واسم أكبرهما أبو زيد عبد الرحمن، والأصغر: أبو موسى عيسى.

وكان أبوهما إماماً ببعض مساجد برشك، واتهمه المتغلب يومئذ على البلد زيرم بن حماد.

بأن عنده وديعة من المال لبعض أعدائه، فطالبه بها، فلاذ

بالامتناع، وبيته زيرم لينتزع المال من يده، فدافعه وقتل، وارتحل ابناه هذان الأخوان إلى تونس في المائة السابعة، وأخذا العلم بها عن تلاميذ ابن زيتون، وتفقها على أصحاب أبي عبد اللّه بن شعيب الدكالي، وانقلبا إلى المغرب بحظ وافر من العلم، وأقاما بالجزائر يبثان بها العلم لامتناع برشك عليهما من أجل [ضرَر] زيرم المتغلب عليها، والسلطان أبو يعقوب يومئذ صاحب المغرب الأقصى من بني مرين جاثم على تلمسان يحاصرها الحصار الطويل المشهور، وقد بث بها جيوشه في نواحيها، وغلب على الكثير من أعمالها وأمصارها، وملك عمل مغراوة بشلف، وحاضرته ملیانة، بعث عليها الحسن بن بن علي أبي الطلاق من بني عسكر، وعلي بن محمد الخيري من بني ورتاجن،ومعهما - لضبط الجباية واستخلاص الأموال - الكاتب منديل بن محمد الكناني، فارتحل هذان الأخوان يومئذ من الجزائر، واختلا بملیانة، فحليا بعين منديل الكناني، فقربهما واصطفاهما، واتخذهما لتعليم ولده محمد.

ثم هلك يوسف بن يعقوب سلطان المغرب بمكانه من حصار تلمسان سنة خمس وسبعمائة على يد خصي من خصيانه طعنه فأشواه، وهلك.

وقام بالملك بعده حافده أبو ثابت بعد أمور ذكرناها في أخباره، ووقع بينه وبين صاحب تلمسان يومئذ، أبي زيان محمد بن عثمان بن يغمراسن وأخيه أبي حمو العهد المتأكد على الإفراج عن تلمسان، ورد أعمالها عليهم، فوفى لهم بذلك وعاد إلى المغرب.

وارتحل ابن أبي الطلاق والخيري،و الكناني من ملیانة راجعين إلى المغرب.

ومروا بتلمسان ومع الكناني هذان الأخوان فأوصلهما إلى أبي حمو وأثنى عليهما وعرفه بمقامهما في العلم، فاغتبط بهما أبو حمو وبنى لهما المدرسة المعروفة بهما بتلمسان، وأقاما عنده على هدي أهل العلم، وسننهم.

وهلك أبو حمو، وكانا كذلك مع ابنه أبي تاشفين إلى أن زحف السلطان أبو الحسن المريني إلى تلمسان، وملكها عنوة سنة سبع وثلاثين وسبعمائة وكانت لهما شهرة في أقطار المغرب، أثبتت لهما في نفس السلطان عقيدة صالحة، فاستدعاهما لحين دخوله، وأدنى مجلسهما واشاد بتكرمتها، ورفع محلهما على أهل طبقتهما.

وصار يحمل بهما مجلسه متى مرّا بتلمسان أو وفدا عليه في الأوقات التي يفد فيها أعيان بلدهما.

ثم استنفرهما إلى الغزو وحضرا معه واقعة طريف، وعادا إلى بلدهما وتوفي أبو زيد منهما إثر ذلك، وبقي أخوه أبو موسى متبوئاً ما شاء من ظلال تلك الكرامة.

ولما سار السلطان أبو الحسن إلى إفريقية سنة ثمان وأربعين وسبعمائة كما مر في أخباره استصحب أبا موسى ابن الإمام معه مكرماً موقراً، عالي المحل، قريب المجلس منه فلما استولى على إفريقية سرحه إلى بلده، فأقام بها يسيراً وهلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة وبقي أعقابهما بتلمسان دارجين في مسالك تلك الكرامة متوقلين قللها طبقاً عن طبق إلى هذا العهد.

وأما السطي، واسمه محمد بن سليمان من قبيلة سطة، من بطون أوربة بنواحي فاس، فنزل أبوه سليمان مدينة فاس ونشأ محمد بها وأخذ العلم عن الشيخ أبي الحسن الصغير إمام المالكية بالمغرب، والطائر الذكر وقاضي الجماعة بفاس، وتفقه وقرأ عليه، وكان أحفظ الناس لمذهب مالك، وأفقههم فيه.

وكان السلطان أبو الحسن لدينه وسراوته وبعد شأوه في الفضل يتشوف إلى تنويه مجلسه بالعلماء، واختار منهم جماعة لصحابته ومجالسته، كان منهم هذا الإمام محمد بن سليمان.

وقدم علينا بتونس في جملته، فشهدنا وفور فضائله، وكان في الفقه من بينها لا يجارى حفظاً وفهماً، عهدي به وأخي محمد رحمه تعالى، يقرأ عليه من كتاب التبصرة لأبي الحسن اللخمي، وهو يصححه عليه من إملائه وحفظه في مجالس عديدة، وكذا كان حاله في أكثر ما يعاني حمله من الكتب.

وحضر مع السلطان أبي الحسن واقعة القيروان وخلص معه إلى تونس، وأقام بها نحواً من سنتين، وانتقض المغرب على السلطان واستقل به ابنه أبو عنان.

ثم ركب السلطان أبو الحسن في أساطيله من تونس آخر سنة خمسين وسبعمائة ومر ببجايه فأدركه الغرق في سواحلها، فغرقت أساطيله وغرق أهله، وأكثر من كان معه من هؤلاء الفضلاء وغيرهم، وألقاه البحر ببعض الجزر هنالك حتى استنقذه منه بعض أساطيله، ونجا إلى الجزائر بعد أن تلف موجوده، وهلك الكثير من عياله وأصحابه، وكان من أمره ما مر في أخباره.

وأما الآبلي واسمه محمد بن إبراهيم فمنشؤه بتلمسان، وأصله من جالية الأندلس من أهل آبلة من بلاد الجوف منها، أجاز أبوه وعمه أحمد، فاستخدمهم يغمراسن بن زيان وولده في جندهم، وأصهر إبراهيم منهما إلى القاضي بتلمسان محمد بن غلبون في ابنته، فولدت له محمداً هذا.

ونشأ بتلمسان في كفالة جده القاضي، فنشأ له بذلك ميل

إلى انتحال العلم عن الجندية التي كانت منتحل أبيه وعمه.

فلما يفع وأدرك سبق إلى ذهنه محبة التعاليم، فبرع فيها واشتهر وعكف الناس عليه في تعلمها، وهو في سن البلوغ.

ثم أطل السلطان يوسف بن يعقوب على تلمسان وجثم عليها يحاصرها، وسير بعوثه إلى الأعمال، فافتتح أكثرها.

وكان إبراهيم الآبلي قائدا بهنين مرسى تلمسان في لمة من الجند، فلما ملكها يوسف بن يعقوب اعتقل من وجد بها من شيع ابن زيان واعتقل إبراهيم الآبلي فيهم، وشاع الخبر في تلمسان بأن يوسف بن يعقوب يسترهن أبناءهم ويطلقهم، فتشوف ابنه محمد إلى اللحاق به من أجل ذلك.

وأغراه أهله بالعزم عليه، فتسور الأسوار وخرج إلى أبيه فلم يجد خبر الاسترهان صحيحاً.

واستخدمه يوسف بن يعقوب قائداً على الجند الأندلسيين بين بتاوريرت، فكره المقام على ذلك، ونزع عن طوره، ولبس المسوح، وسار قاصداً إلى الحج.

وانتهى إلى رباط العباد مختفياً في صحبة الفقراء، فوجد هنالك رئيسا من كربلاء ثم من بني الحسين جاء إلى المغرب يروم إقامة دعوتهم فيه، وكان معقلاً، فلما رأى عساكر يوسف بن يعقوب وشدة هيبته غلب عليه اليأس من مرامه ونزع عن ذلك، واعتزم على الرجوع إلى بلده، فسار شيخنا محمد بن إبراهيم في جملته.

قال لي رحمه الله: وبعد حين انكشف لي حاله وما جاء له، واندرجت في جملة أصحابه وتابعيه.

قال: وكان يتلقاه في كل بلد من أصحابه وأشياعه وخدمه من يأتيه بالأزواد والنفقات من بلده، إلى أن ركبنا البحر من تونس إلى الإسكندرية.

قال: واشتدت علي الغلمة في البحر واستحييت من كثرة الاغتسال لمكان هذا الرئيس، فأشار علي بعض بطانته بشرب الكافور، فاغترفت منه غرفة فشربتها فاختلطت.

وقدم الديار المصرية على تلك الحال، وبها يومئذ تقي الدين بن دقيق العيد وابن الرفعة وصفي الدين الهندي، والتبريزي وابن البديع وغيرهم من فرسان المعقول والمنقول.

فلم يكن قصاراه إلا تمييز أشخاصهم إذا ذكرهم لنا، لما كان به من الاختلاط.

ثم حج مع ذلك الرئيس وسار في جملته إلى كربلاء فبعث معه من أصحابه من أوصله إلى مأمنه من بلاد زواوة من أطراف المغرب.

وقال لي شيخنا رحمه الله: كان معي دنانير كثيرة تزودتها من المغرب واستبطنتها في جبة كنت ألبسها، فلما نزل بي ما نزل انتزعها مني، حتى إذا بعث أصحابه يشيعونني إلى المغرب دفعها إليهم، حتى إذا أوصلوني إلى المأمن أعطوني إياها، وأشهدوا علي بها في كتاب حملوه معهم إليه كما أمرهم.

ثم قارن وصول شيخنا إلى المغرب مهلك يوسف بن يعقوب وخلاص أهل تلمسان من الحصار، فعاد إلى تلمسان وقد أفاق من اختلاطه، وانبعثت همته إلى تعلم العلم.

وكان مائلاً إلى العقليات فقرأ المنطق على أبي موسى ابن الإمام، وجملة من الأصلين، وكان أبو حمو صاحب تلمسان يومئذ قد استفحل ملكه، وكان ضابطاً لأموره، وبلغه عن شيخنا تقدمه في علم الحساب، فدفعه إلى ضبط أمواله ومشارفة عماله.

وتفادى شيخنا من ذلك فأكرهه عليه، فأعمل الحيلة في الفرار منه، ولحق بفاس أيام السلطان أبي الربيع، وبعث فيه أبو حمو، فاختفى بفاس عند شيخ التعاليم من اليهود خلوف المغيلي، فاستوفى عليه فنونها، وحذق وخرج متوارياً من فاس، فلحق بمراكش أعوام العشر والسبع مائة.

ونزل على الإمام أبي العباس بن البناء شيخ المعقول والمنقول، والمبرز في التصوف علماً وحالاً، فلزمه، وأخذ عنه وتضلع من علم المعقول والتعاليم والحكمة.

ثم استدعاه شيخ الهساكرة علي بن محمد بن ترومیت ليقرأ عليه، وكان ممرضاً في طاعته للسلطان، فصعد إليه شيخنا وأقام عنده مدة، قرأ عليه فيها وحصل.

واجتمع طلبة العلم هنالك على الشيخ، فكثرت إفادته، واستفادته، وعلي بن محمد في ذلك على محبته وتعظيمه، وامتثال إشارته، فغلب على هواه، وعظمت رياسته في تلك القبائل.

ولما استنزل السلطان أبو سعيد علي بن ترومیت من جبله، نزل الشيخ معه، وسكن بفاس.

وانثال عليه طلبة العلم من كل ناحية، فانتشر علمه، واشتهر ذكره، فلما فتح السلطان أبو الحسن تلمسان ولقي أبا موسى ابن الإمام، ذكره له بأطيب الذكر، ووصفه بالتقدم في العلوم، وكان السلطان معنياً بجمع العلماء لمجلسه كما ذكرنا.

فاستدعاه من مكانه بفاس ونظمه في طبقة العلماء بمجلسه،

وعكف على التدريس والتعليم، ولازم صحابة السلطان، وحضر معه واقعة طريف، وواقعة القيروان بإفريقية.

وكانت قد حصلت بينه وبين والدي رحمه اللّه صحابه، كنت وسيلتي إليه في القراءة عليه، فلزمت مجلسه وأخذت عنه وافتتحت العلوم العقلية بالتعاليم، ثم قرأت المنطق وما بعده من الأصلين، وعلوم الحكمة.

وعرض أثناء ذلك ركوب السلطان أساطيله من تونس إلى المغرب.

وكان الشيخ في نزلنا وكفالتنا، فأشرنا عليه بالمقام وثبطناه عن السفر، فقبل وأقام، وطالبنا به السلطان أبو الحسن فأحسنا له العذر، فتجافى عنه.

وكان من حديث غرقه في البحر ما قدمناه.

وأقام الشيخ بتونس، ونحن وأهل بلدنا جميعاً نتساجل هتانة وفرغ ابنه أبو عنان من شواغله، وملك تلمسان من بني عبد الواد، كتب فيه يطلبه من صاحب تونس وسلطانها يومئذ أبو إسحاق إبراهيم ابن السلطان أبي يحيى في كفالة شيخ الموحدين أبي محمد بن تافراكين، فأسلمه إلى سفيره، وركب معه البحر في أسطول السلطان الذي جاء فيه السفير، ومر ببجاية ودخلها، وأقام بها شهراً، حتى قرأ عليه طلبة العلم بها مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه برغبتهم في ذلك منه ومن صاحب الأسطول.

ثم ارتحل ونزل بمرسى هنين وقدم على السلطان بتلمسان، وأحله محل التكرمة، ونظمه في طبقة أشياخه من العلماء، وكان يقرأ عليه ويأخذ عنه إلى أن هلك بفاس سنة سبع وخمسين وسبعمائة.

وأخبرني رحمه اللّه أن مولده بتلمسان سنة إحدى وثمانين وستمائة.

وأما (عبد المهيمن) كاتب السلطان أبي الحسن، فأصله من سبتة، وبيتهم بها قديم، ويعرفون ببني عبد المهيمن وكان أبوه محمد قاضيها أيام بني العزفي.

ونشأ ابنه عبد المهيمن في كفالته وأخذ عن مشيخته واختص بالأستاذ أبي إسحاق الغافقي، ولما ملك عليهم الرئيس أبو سعيد صاحب الأندلس سبتة، ونقل بني العزفي مع جملة أعيانها إلى غرناطة، ونقل معهم القاضي محمد بن عبد المهيمن وابنه عبد المهيمن، فاستكمل قراءة العلم هنالك وأخذ عن أبي جعفر مشيختها ابن الزبير ونظرائه، وتقدم في معرفة كتاب سيبويه، وبرز في علو الإسناد، وكثرة المشيخة.

فكتب له أهل المغرب والأندلس والمشرق، واستكتبه رئيس الأندلس يومئذ الوزير أبو عبد اللّه بن الحكيم الرندي، المستبد على السلطان المخلوع من بني الأحمر فكتب عنه ونظمه في طبقة الفضلاء الذين كانوا بمجلسه، مثل المحدث الرحالة أبي عبد اللّه بن رشيد الفهري وأبي العباس أحمد بن العزفي، والعالم الصوفي المتجرد أبي عبد اللّه محمد بن خميس التلمساني، وكانا لا يجاريان في البلاغة والشعر - إلى غير هؤلاء ممن كان مختصاً به، وقد ذكرهم ابن الخطيب في تاريخ غرناطة.

فلما نكب الوزير ابن الحكيم، وعادت سبتة إلى طاعة بني مرين، عاد عبد المهيمن إليها واستقر بها.

ثم ولي الأمر أبو سعيد وغلب عليه ابنه أبو علي، واستبد بحمل الدولة، تشوف إلى استدعاء الفضلاء، وتجمل الدولة بمكانه، فاستقدم عبد المهيمن من سبتة واستكتبه سنة اثني عشرة وسبعمائة.

ثم خالف على أبيه سنة أربع عشرة وسبعمائة، وامتنع بالبلد الجديد، وخرج منها إلى سجلماسة بصلح عقده مع أبيه، فتمسك السلطان أبو سعيد بعبد المهيمن واتخذه كاتباً إلى أن دفعه إلى رياسة الكتاب، ورسم علامته في الرسائل والأوامر، فتقدم لذلك سنة ثمان عشرة وسبعمائة، ولم يزل عليها سائر أيام السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن.

وسار مع أبي الحسن إلى إفريقية، وتخلف عن واقعة القيروان بتونس، لما كان به علة النقرس، فلما كانت الهيعة بتونس، ووصل خبر الواقعة، وتحيز أشياع السلطان إلى القصبة مع حرمه، تسرب عبد المهيمن في المدينة منتبذاً عنهم، وتوارى في بيتنا خشية أن يصاب معهم بمكروه.

فلما انجلت تلك الغيابة، وخرج السلطان من القيروان إلى سوسة وركب منها البحر إلى تونس، أعرض عن عبد المهيمن لما سخط غيبته عن قومه بالقصبة، وجعل العلامة لأبي الفضل ابن الرئيس عبد اللّه بن أبي مدين وقد كانت مقصورة من قبل على هذا البيت، وأقام عبد المهيمن عطلاً من العمل مدة أشهر.

ثم اعتبه السلطان ورضي عنه، وأعاد إليه العلامة كما كان، وهلك لأيام قلائل بتونس بالطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة ومولده سنة خمس وسبعين وستمائة من المائة قبلها، وقد استوعب ابن الخطيب التعريف به في تاريخ غرناطة، فليطالعه هناك من أحب الوقوف عليه.

وأما ابن رضوان الذي ذكره الرحوي في قصيدته، فهو أبو القاسم عبد اللّه بن يوسف بن رضوان النجاري أصله من

الأندلس، نشأ بمالقة، وأخذ عن مشيختها، وحذق في العربية والأدب، وتفنن في العلوم ونظم ونثر، وكان مجيداً في الترسيل، ومحسناً في كتابة الوثائق.

وارتحل بعد واقعة طريف ونزل بسبتة، ولقي بها السلطان أبا الحسن ومدحه وأجازه، واختص بالقاضي إبراهيم بن أبي يحيى، وهو يومئذ قاضي العساكر وخطيب السلطان، وكان يستنيبه في القضاء والخطابة، ثم نظمه في حلبة الكتاب بباب السلطان.

واختص بخدمة عبد المهيمن رئيس الكتاب والأخذ عنه، إلى أن رحل السلطان إلى إفريقية، وكانت واقعة القيروان، والمحصر بقصبة تونس من المحصر بها من أشياعه مع أهله وحرمه.

وكان السلطان قد خلف ابن رضوان هذا بتونس في بعض خدمه، فجلى عند الحصار فيما عرض لهم من المكاتبات، وتولى كبر ذلك، فقام فيه أحسن قيام إلى أن وصل السلطان من القيروان، فرعى له حق خدمته تأنيساً وقرباً، وكثرة استعمال إلى أن ارتحل من تونس في الأسطول إلى المغرب سنة خمسين وسبعمائة كما مر.

واستخلف بتونس ابنه أبا الفضل، وخلف أبا القاسم بن رضوان كاتباً له، وأقام كذلك أياماً.

ثم غلبهم على تونس سلطان الموحدين الفضل ابن السلطان أبي يحيى.

ونجا أبو الفضل إلى أبيه، ولم يطق ابن رضوان الرحلة معه، فأقام بتونس حولاً، ثم ركب البحر إلى الأندلس، وأقام بالمرية مع جملة من هنالك من أشياع السلطان أبي الحسن، كان فيهم عامر بن محمد بن علي شيخ هنتاتة كافلاً لحرم السلطان أبي الحسن وابنه.

أركبهم السفين معه من تونس عندما ارتحل، فخلصوا إلى الأندلس، ونزلوا بالمرية وأقاموا بها تحت جراية سلطان الأندلس، فلحق بهم ابن رضوان وأقام معهم.

ودعاه أبو الحجاج سلطان الأندلس إلى أن يستكتبه فامتنع، ثم هلك السلطان أبو الحسن وارتحل مخلفه الذين كانوا بالمرية، ووفدوا على السلطان أبي عنان، ووفد معهم ابن رضوان، فرعى له وسائله في خدمة أبيه، واستكتبه واختصه بشهود مجلسه مع طلبة العلم بحضرته.

وكان محمد بن أبي عمرو يومئذ رئيس الدولة، ونجي الخلوة وصاحب العلامة، وحسبان الجباية والعساكر، قد غلب على هوى السلطان، واختص به، فاستخدم له ابن رضوان حتى علق منه بدمه، ولاية وصحبة وانتظام في السمر، وغشيان المجالس الخاصة، وهو من ذلك يدنيه من السلطان، وينفق سوقه عنده، ويستكفي به في مواقف خدمته إذا غاب عنها لما هو أهم، فحلي بعين السلطان ونفقت عنده فضائله.

فلما سار ابن أبي عمرو في العساكر إلى بجاية سنة أربع وخمسين وسبعمائة انفرد ابن رضوان بقلم الكتاب عن السلطان، ثم رجع ابن أبي عمرو وقد سخطه السلطان، فأقصاه إلى بجاية وولاه عليها، وعلى سائر أعمالها، وعلى حرب الموحدين بقسنطينة.

وأفرد ابن رضوان بالكتابة، وجعل إليه العلامة كما كانت لابن أبي عمرو، فاستقل بها موفر الأقطاع والأسهام والجاه.

ثم سخطه أخر سبع وخمسين وسبعمائة وجعل العلامة لمحمد بن أبي القاسم بن أبي مدين والإنشاء والتوقيع لأبي إسحاق إبراهيم بن الحاج الغرناطي، فلما كانت دولة السلطان أبي سالم جعل العلامة لعلي بن محمد بن مسعود صاحب ديوان العساكر والإنشاء والتوقيع والسر لمؤلف الكتاب عبد الرحمن بن خلدون.

ثم هلك أبو سالم سنة اثنتين وستين وسبعمائة واستبد الوزير عمر بن عبد الله على من كفله من أبنائهم، فجعل العلامة لابن رضوان سائر أيامه، وقتله عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن، واستبد بملكه، فلم يزل ابن رضوان على العلامة، وهلك عبد العزيز وولى ابنه السعيد في كفالة الوزير أبي بكر بن غازي بن الكاس وابن رضوان على حاله، ثم غلب السلطان أحمد على الملك وانتزعه من السعيد وأبي بكر بن غازي، وقام بتدبير دولته محمد بن عثمان بن الكاس، مستبداً عليه، والعلامة لابن رضوان كما كانت إلى أن هلك بأزمور في بعض حركة السلطان أحمد إلى مراكش، لحصار عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي.

وكان في جملة السلطان أبي الحسن جماعة كبيرة من فضلاء المغرب وأعيانه، هلك كثير منهم في الطاعون الجارف بتونس، وغرق جماعة منهم في أسطوله لما غرق، وتخطت النكبة منهم آخرين إلى أن استوفوا ما قدر من آجالهم.

فممن حضر معه بإفريقية من العلماء، شيخنا أبو العباس أحمد بن محمد الزواوي شيخ القراءات بالمغرب، أخذ العلم والعربية عن مشيخة فاس، وروى عن الرحالة أبي عبد الله بن رشيد، وكان إماماً في فن القراءات وصاحب ملكة فيها لا تجارى، وله مع ذلك صوت من مزامير آل داود وكان يصلي بالسلطان

التراويح ويقرأ عليه بعض الأحيان حزبه.

وممن حضر معه بإفريقية الفقيه أبو عبد اللّه محمد بن محمد بن الصباغ من أهل مكناسة، كان مبرزاً في المعقول والمنقول، وعارفاً بالحديث وبرجاله، وإماماً في معرفة كتاب الموطأ وإقرائه، أخذ العلوم عن مشيخة فاس، ولقي شيخنا أبا عبد اللّه الآبلي، ولازمه وأخذ عنه العلوم العقلية، فاستفد بقية طلبه عليه، فبرز آخراً، واختاره السلطان لمجلسه واستدعاه، ولم يزل معه إلى أن هلك غريقاً في ذلك الأسطول.

ومنهم القاضي أبو عبد اللّه محمد بن عبد النور من أعمال ندرومة ونسبه في صنهاجة كان مبرزاً في الفقه على مذهب الإمام مالك بن أنس، تفقه فيه على الأخوين أبي زيد وأبي موسى ابني الإمام، وكان من جلة أصحابهما.

ولما استولى السلطان أبو الحسن على تلمسان رفع من منزلة ابني الإمام واختصهما بالشورى في بلدهما.

وكان يستكثر من أهل العلم في دولته، ويجرى لهم الأرزاق ويعمر بهم مجلسه، فطلب يومئذ من ابن الإمام أن يختار له من أصحابه من ينظمه في فقهاء المجالس، فأشاروا عليه بابن عبد النور هذا، فأدناه وقرب مجلسه، وولاه قضاء عسكره، ولم يزل في جملته إلى أن هلك بالطاعون بتونس سنة تسع وأربعين وسبعمائة وكان قد خلف بتلمسان أخاه علياً رفيقه في دروس ابن الإمام إلا أنه أقصر باعاً منه في الفقه.

فلما خلع السلطان أبو عنان طاعة أبيه السلطان أبي الحسن، ونهض إلى فاس، استنفره في جملته وولاه قضاء مكناسة، فلم يزل بها حتى تغلب عمر بن عبد اللّه على الدولة كما مر، نزع إلى قضاء فرضه فسرحه.

فخرج حاجّاً سنة أربع وستين وسبعمائة فلما قدم على مكة وكان به بقية مرض، هلك في طواف القدوم.

وأوصى أمير الحاج على ابنه محمد، وأن يبلغ وصيته به للأمير المتغلب على الديار المصرية يومئذ يلبغا الخاصكي فأحسن خلافته فيه وولاه من وظائف الفقهاء ما سد به خلته، وصان عن سؤال الناس وجهه، وكان له عفا اللّه عنه كلف بعلم الكيمياء، تابعاً لمن غلظ في ذلك من أمثاله.

فلم يزل يعاني من ذلك ما يورطه مع الناس في دينه وعرضه إلى أن دعته الضرورة للترحل عن مصر، ولحق ببغداد وناله مثل ذلك.

فلحق بماردين واستقر عند صاحبها، فأحسن جواره إلى أن بلغنا بعد التسعين أنه هلك هنالك حتف أنفه والبقاء لله وحده.

ومنهم شيخ التعاليم أبو عبد اللّه محمد بن النجار من أهل تلمسان، أخذ العلم ببلده عن مشيختها، وعن شيخنا الآبلي وبرز عليه.

ثم ارتحل إلى المغرب فلقي بسبتة إمام التعاليم أبا عبد اللّه محمد بن هلال شارح المجسطي في الهيئة، وأخذ بمراكش عن الإمام أبي العباس بن البناء، وكان إماماً في علوم النجامة وأحكامها، وما يتعلق بها، ورجع إلى تلمسان بعلم كثير، واستخلصته الدولة.

فلما هلك أبو تاشفين وملك السلطان أبو الحسن نظمه في جملته وأجرى له رزقه، فحضر معه بإفريقية وهلك في الطاعون.

ومنهم أبو العباس أحمد بن شعيب من أهل فاس، برع في الأدب واللسان والعلوم العقلية، من الفلسفة والتعاليم والطب وغيرها.

ونظمه السلطان أبو سعيد في حلبة الكتاب وأجرى عليه الرزق مع الأطباء لتقدمه فيهم، فكان كاتبه وطبيبه، وكذا مع السلطان أبي الحسن بعده، فحضر بإفريقية وهلك بها في ذلك الطاعون.

وكان له شعر سابق به الفحول من المتقدمين والمتأخرين، وكانت له إمامة في نقد الشعر وبصر به، ومما حضرني الآن من شعره:

دار الهوى نجد وساكنها ... أقصى أماني النفس من نجد
هل باكر الوسمي ساحتها ... واستن في قيعانها الجرد
أو بات معتل النسيم بها ... مستشفيا بالبان والرند
يتلو أحاديث الذين هم ... قصدي وإن جاروا عن القصد
أيام سمر ظلالها وطني ... منها وزرق مياهها وردي
ومطارح النظرات في رشاء ... أحوى المدامع أهيف القد
يرنو إليك بعين جازية ... قتل المحب بها على عمد
حتى أجد على عجل ... ريث الخطوب وعاثر الجد
فقدوا فلا وأبيك بعدهم ... ما عشت لا آسى على الفقد
وغدوا دفينا قد تضمنه ... بطن الثرى وقرارة اللحد
ومشرداً من دون رؤيته ... قذف النوى وتنوفة البعد
أجرى علي العيش بعدهم ... أني فقدت جميعهم وحدي
لا تلحني يا صاح في شجن ... أخفيت منه فوق ما أبدى
بالغرب لي سكن تأوبني ... من ذكره سهد على سهد
فرخان قد تركا بمضيعة ... زويت عن الرفداء والرفد

ومنهم صاحبنا الخطيب أبو عبد اللّه بن أحمد بن مرزوق

من أهل تلمسان، كان سلفه نزلاء الشيخ أبي مدين بالعباد، ومتوارثين خدمة تربته من لدن جدهم خادمه في حياته.

وكان جده الخامس أو السادس واسمه أبو بكر بن مرزوق معروفا بالولاية فيهم.

ولما هلك دفنه يغمراسن بن زيان سلطان تلمسان من بني عبد الواد ففي التربة بقصره، ليدفن بإزائه متى قدر بوفاته.

ونشأ محمد هذا بتلمسان، ومولده - فيما أخبرني - سنة عشر وسبعمائة، وارتحل مع أبيه إلى المشرق.

وجاور أبوه بالحرمين الشريفين، ورجع هو إلى القاهرة وأقام بها، وقرأ على برهان الدين الصفاقسي المالكي وأخيه، وبرع في الطب والرواية، وكان يجيد الخطين، ثم رجع سنة خمس وثلاثين وسبعمائة إلى المغرب ولقي السلطان أبا الحسن بمكانه في تلمسان، وقد شيد بالعباد مسجداً عظيماً، وكان عمه محمد بن مرزوق خطيباً به على عادتهم في العباد، وتوفي فولاه السلطان خطابة ذلك المسجد مكان عمه.

وسمعه يخطب على المنبر ويشيد بذكره والثناء عليه، فحلي بعينه واختصه وقربه، وهو مع ذلك يلازم مجلس الشيخين ابني الإمام، ويأخذ نفسه بلقاء الفضلاء والأكابر والأخذ عنهم، والسلطان في كل يوم يزيده رتبة، وحضر معه واقعة طريف التي كان فيها تمحيص المسلمين، فكان يستعمله في السفارة عنه إلى صاحب الأندلس، ثم سفر عنه بعد أن ملك إفريقية إلى ابن أدفونش ملك قشتالة في تقرير الصلح، واستنقاذ أبي عمر تاشفين، كان أسر يوم طريف فغاب في تلك السفارة عن واقعة القيروان.

ورجع بأبي تاشفين مع طائفة من زعماء النصرانية جاؤوا في السفارة عن ملكهم، ولقيهم خبر واقعة القيروان بقسنطينة من بلاد إفريقية، وبها عامل السلطان وحاميته، فثار أهل قسنطينة بهم جميعاً ونهبوهم، وخطبوا للفضل ابن السلطان أبي يحيى، وراجعوا دعوة الموحدين، واستدعوه فجاء إليهم وملك البلد.

وانطلق ابن مرزوق عائداً إلى المغرب مع جماعة من الأعيان، والعمال والسفراء عن الملوك.

ووفد على السلطان أبي عنان بفاس مع أمه حظية أبي الحسن وأثيرته، كانت راحلة إليه، فأدركها الخبر بقسنطينة، وحضرت الهيعة واتصل بها الخبر بتوثب ابنها أبي عنان على ملك أبيه واستيلائه على فاس، فرجعت إليه وابن مرزوق في خدمتها.

ثم طلب اللحاق بتلمسان فسرحوه إليها، وأقام بالعباد مكان سلفه، وعلى تلمسان يومئذ أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان قد بايع له قبيله بنو عبد الواد بعد واقعة القيروان بتونس، وابن تافراكين يومئذ محاصر للقصبة كما مر في أخبارهم.

وانصرفوا إلى تلمسان فوجدوا بها أبا سعيد عثمان بن جرار من بيت ملوكهم وقد استعمله عليها السلطان أبو عنان عند انتقاضه على أبيه، ومسيره إلى فاس، وانتقض ابن جرار من بعده، ودعا لنفسه، وصمد إليه عثمان بن عبد الرحمن ومعه أخوه أبو ثابت وقومهما، فملكوا تلمسان من يد ابن جرار وحبسوه ثم قتلوه.

واستبد أبو سعيد بملك تلمسان وأخوه أبو ثابت يرادفه، وركب السلطان أبو الحسن البحر من تونس وغرق أسطوله ونجا هو إلى الجزائر فاحتل بها، وأخذ في الحشد إلى تلمسان، فرأى أبو سعيد أن يكف غربه عنهم، بمواصلة تقع بينهما، واختار لذلك الخطيب بن مرزوي فاستدعاه وأسر إليه بما يلقيه عنه للسلطان أبي الحسن، وذهب لذلك على طريق الصحراء.

وأطلع أبو ثابت وقومهم على الخبر فنكروه على أبي سعيد وعاتبوه، فبعثوا صفير بن عامر في اعتراض ابن مرزوق فجاء به وحبسوه أياماً.

ثم أجازوه البحر إلى الأندلس فنزل على السلطان أبي الحجاج بغرناطة، وله إليه وسيلة منذ اجتماعه به بمجلس السلطان أبي الحسن بسبتة إثر واقعة طريف، فرعى له أبو الحجاج ذمة تلك المعرفة، وأدناه واستعمله في الخطابة بجامعه بالحمراء.

فلم يزل خطيبه إلى أن استدعاه السلطان أبو عنان سنة أربع وخمسين وسبعمائة بعد مهلك أبيه، واستيلائه على تلمسان وأعمالها، فقدم عليه ورعى له وسائله، ونظمه في أكابر أهل مجلسه.

وكان يقرأ الكتاب بين يديه في مجلسه العلمي ويدرس في نوبته مع من يدرس في مجلسه منهم.

ثم بعثه إلى تونس عام ملكها سنة ثمان وخمسين وسبعمائة ليخطب له ابنة السلطان أبي يحيى، فردت تلك الخطبة واختفت بتونس.

ووشي إلى السلطان أبي عنان أنه كان مطلعاً على مكانها، فسخطه لذلك ورجع السلطان من قسنطينة، فثار أهل تونس بمن كان بها من عماله وحاميته.

واستقدموا أبا محمد بن تافراكين من المهدية، فجاء وملك البلد، وركب القوم الأسطول ونزلوا بمراسي تلمسان.

وأوعز السلطان أبو عنان باعتقال ابن مرزوق، وخرج لذلك يحيى بن شعيب من مقدمي الجنادرة ببابه، فلقيه بتاسالة فقيده هنالك، وجاء به فأحضره السلطان وقرعه، ثم حبسه مدة وأطلقه بين يدي مهلكه.

واضطربت الدولة بعد موت السلطان أبي عنان، وبايع بنو مرين لبعض الأعياص من بني يعقوب بن عبد الحق، وحاصروا البلد الجديد، وبها ابنه السعيد ووزيره المستبد عليه الحسن بن عمر، وكان السلطان أبو سالم بالأندلس غربه إليها أخوه السلطان أبو عنان مع بني عمهم ولد السلطان أبي علي بعد وفاة السلطان أبي الحسن، وحصولهم جميعاً في قبضته.

فلما توفي أراد أبو سالم النهوض لملكه بالمغرب، فمنعه رضوان القائم يومئذ بملك الأندلس مستبداً على ابن السلطان أبي الحجاج، فلحق هو بإشبيلية من دار الحرب، ونزل على بطرة ملكهم يومئذ، فهيأ له السفين وأجازه إلى العدوة فنزل، بجبل الصفيحة من بلاد غمارة، وقام بدعوته بنو مثنى وبنو منير أهل ذلك الجبل منهم، حتى تم أمره واستولى على ملكه في خبر طويل ذكرناه في أخبار دولتهم.

وكان ابن مرزوق يداخله وهو بالأندلس ويستخدم له، ويفاوضه في أموره وربما كان يكاتبه، وهو بجبل الصفيحة، ويداخل زعماء قومه في الأخذ بدعوته.

فلما ملك السلطان أبو سالم رعى له تلك الوسائل أجمع، ورفعه على الناس، وألقى عليه محبته وجعل زمام الأمور بيده، فوطىء الناس عقبه وغشي أشراف الدولة بابه، وصرفوا الوجوه إليه، فمرضت لذلك قلوب أهل الدولة ونقموه على السلطان، وتربصوا به حتى توثب عمر بن عبد الله بالبلد الجديد، وافترق الناس عن السلطان.

وقتله عمر بن عبد الله آخر اثنتين وستين وسبعمائة وحبس ابن مرزوق وأغرى به سلطانه الذي نصبه محمد بن عبد الرحمن بن أبي الحسن فامتحنه واستصفاه، ثم أطلقه بعد أن رام كثير من أهل الدولة قتله فمنعه منهم.

ولحق بتونس سنة أربع وستين وسبعمائة ونزل على السلطان أبي إسحاق وصاحب دولته المستبد عليه أبي محمد بن تافراكين، فأكرموا نزله وولوه الخطابة بجامع الموحدين بتونس.

وأقام بها إلى أن هلك السلطان أبو إسحاق سنة سبعين وسبعمائة وولى ابنه خالد.

وزحف السلطان أبو العباس حافد السلطان أبي يحيى من مقره بقسنطينة إلى تونس فملكها، وقتل خالداً سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة.

وكان ابن مرزوق يستريب منه لما كان يميل وهو بفاس مع ابن عمه أبي عبد الله محمد صاحب بجاية، ويؤثره عند السلطان أبي سالم عليه، فعزله السلطان أبو العباس عن الخطبة بتونس، فوجم لها وأجمع الرحلة إلى المشرق.

وسرحه السلطان فركب السفين ونزل بالإسكندرية، ثم ارتحل إلى القاهرة ولقي أهل العلم وأمراء الدولة، ونفقت بضائعه عندهم، وأوصلوه إلى السلطان وهو يومئذ الأشرف.

فكان يحضر مجلسه وولوه الوظائف العلمية، فكان ينتجع منها معاشه.

وكان الذي وصل حبله بالسلطان استداره محمد بن آقبغا آص لقيه أول قدومه فحلي بعينه، واستظرف جملته، فسعى له وأنجحت سعايته، ولم يزل مقيماً بالقاهرة موقر الرتبة معروف الفضيلة، مرشحاً لقضاء المالكية ملازماً للتدريس في وظائفه إلى أن هلك سنة إحدى وثمانين وسبعمائة هكذا ذكر من حضرنا من جملة السلطان أبي الحسن من أشياخنا وأصحابنا، وليس موضوع الكتاب الإطالة، فلنقتصر على هذا القدر، ونرجع إلى ما كنا فيه من أخبار المؤلف.

ولاية العلامة بتونس ثم الرحلة بعدها إلى المغرب والكتابة عن السلطان أبي عنان

لم أزل منذ نشأت وناهزت مكبّاً على تحصيل العلم، حريصاً على اقتناء الفضائل، متنقلاً بين دروس العلم وحلقاته، إلى أن كان الطاعون الجارف، وذهب الأعيان والصدور وجميع المشيخة، وهلك أبواي رحمهما الله.

ولزمت مجلس شيخنا أبي عبد الله الآبلي، وعكفت على القراءة عليه ثلاث سنين إلى أن شدوت بعض الشيء، واستدعاه السلطان أبو عنان فارتحل إليه، واستدعاني أبو محمد بن تافراكين المستبد على الدولة يومئذ بتونس إلى كتابة العلامة عن سلطانه أبي إسحاق.

وقد نهض إليه من قسنطينة صاحبها الأمير أبو زيد حافد السلطان أبي يحيى في عساكره، ومعه العرب أولاد مهلهل الذين استنجدوه لذلك، فأخرج ابن تافراكين سلطانه أبا إسحاق مع العرب أولاد أبي الليل، وبث العطاء في عسكره، وعمر له المراتب

والوظائف.

وتعلل عليه صاحب العلامة أبو عبد اللّه بن عمر بالاستزادة من العطاء، فعزله وأدالني منه، فكتبت العلامة للسلطان، وهي وضع «الحمد لله والشكر لله» بالقلم الغليظ ما بين البسملة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم.

وخرجت معهم أول سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وقد كنت منطوياً على مفارقتهم لما أصابني من الاستيحاش لذهاب أشياخي وعطلتي عن طلب العلم.

فلما رجع بنو مرين إلى مراكزهم بالمغرب وانحسر تيارهم عن إفريقية، وأكثر من كان معهم من الفضلاء صحابة وأشياخ، فاعتزمت على اللحاق بهم.

وصدني عن ذلك أخي وكبيري محمد رحمه اللّه، فلما دعيت إلى هذه الوظيفة سارعت إلى الإجابة لتحصيل غرضي من اللحاق بالمغرب، وكان كذلك، فإنا لما خرجنا من تونس نزلنا بلاد هوارة، وزحفت العساكر بعضها إلى بعض بفحص مرماجنة وانهزم صفنا ونجوت أنا إلى أبة، فأقمت بها عند الشيخ عبد الرحمن الوشتاني من كبراء المرابطين، ثم تحولت إلى سبتة ونزلت بها على محمد بن عبدون صاحبها، فأقمت عنده ليالي حتى هيأ لي الطريق وبذرق لي مع رفيق من العرب، وسافرت إلى قفصة، وأقمت بها أياماً أترصد الطريق حتى قدم علينا بها الفقيه محمد بن الرئيس منصور بن مزني، وأخوه يوسف يومئذ صاحب الزاب وكان هو بتونس، فلما حاصرها الأمير أبو زيد خرج إليه فكان معه.

ثم بلغهم الخبر بأن السلطان أبا عنان ملك المغرب، نهض إلى تلمسان فملكها، وقتل سلطانها عثمان بن عبد الرحمن، وأخاه أبا ثابت وأنه انتهى إلى المدية وملك بجاية من يد صاحبها الأمير أبي عبد اللّه من حفدة السلطان أبي يحيى، وراسله عندما أطل على بلده، فسار إليه، ونزل له عنها.

وصار في جملته، وولى أبو عنان على بجاية عمر بن علي شيخ بني وطاس من بني الوزير شيوخهم.

فلما بلغهم هذا الخبر أجفل الأمير عبد الرحمن من مكانه على حصار تونس، ومر بقفصة فدخل إلينا محمد بن مزني ذاهباً إلى الزاب، فرافقته إلى بسكرة، ودخلت إلى أخيه هنالك، ونزل هو ببعض قرى الزاب تحت جراية أخيه إلى أن انصرم الشتاء.

وكان أبو عنان لما ملك بجاية ولى عليها عمر بن علي بن الوزير من شيوخ بني وطاس فجاء فارح مولى الأمير أبي عبد اللّه لنقل حرمه وولده، فداخل بعض السفهاء من صنهاجة في قتل عمر بن علي فقتله في مجلسه ووثب هو على البلد وبعث إلى الأمير أبي زيد يستدعيه من قسنطينة، فتمشت رجالات البلد فيما بينهم خشية من سطوة السلطان، ثم ثاروا بفارح فقتلوه وأعادوا دعوة السلطان كما كانت.

وبعثوا عن عامل السلطان بتدلس يحياتن بن عمر بن عبد المؤمن شيخ بني ونكاسن من بني مرين، فملكوه قيادهم وبعثوا إلى السلطان بطاعتهم، فأخرج لوقته حاجبه محمد بن أبي عمرو، وأكثف له الجند وصرف معه وجوه دولته وأعيان بطانته.

وارتحلت أنا من بسكرة وافداً على السلطان أبي عنان بتلمسان، فلقيت ابن أبي عمرو بالبطحاء، وتلقاني من الكرامة بما لم أحتسبه، وردني معه إلى بجاية فشهدت الفتح، وتسايلت وفود إفريقية إليه.

فلما رجع السلطان وفدت معهم فنالني من كرامته، وإحسانه ما لم أحتسبه، إذ كنت شاباً لم يطر شاربي.

ثم انصرفت مع الوفود ورجع ابن أبي عمرو إلى بجاية، فأقمت عنده حتى انصرم الشتاء من أواخر أربع وخمسين وسبعمائة وعاد السلطان أبو عنان إلى فاس وجمع أهل العلم للتحليق بمجلسه، وجرى ذكري عنده وهو ينتقي طلبة العلم للمذاكرة في ذلك المجلس، فأخبره الذين لقيتهم بتونس عني ووصفوني له، فكتب إلى الحاجب يستقدمني، فقدمت عليه سنة خمس وخمسين وسبعمائة ونظمني في أهل مجلسه العلمي، وألزمني شهود الصلوات معه، ثم استعملني في كتابته والتوقيع بين يديه على كره مني، إذ كنت لم أعهد مثله لسلفي.

وعكفت على النظر والقراءة ولقاء المشيخة من أهل المغرب ومن أهل الأندلس الوافدين في غرض السفارة، وحصلت من الإفادة منهم على البغية.

وكان في جملته يومئذ الأستاذ أبو عبد اللّه محمد بن الصفار من أهل مراكش إمام القراءات لوقته، أخذ عن جماعة من مشيخة المغرب كبيرهم شيخ المحدثين الرحالة أبو عبد اللّه محمد بن رشيد الفهري سيد أهل المغرب، وكان يعارض السلطان القرآن برواياته السبع إلى أن توفي.

ومنهم قاضي الجماعة بفاس أبو عبد اللّه محمد المقري صاحبنا، من أهل تلمسان، أخذ العلم بها عن أبي عبد اللّه السلاوي ورد عليها من المغرب خلواً من المعارف.

ثم دعته همته إلى التحلي بالعلم، فعكف في بيته على

مدارسة القران فحفظه، وقرأه بالسبع.

ثم عكف على كتاب التسهيل في العربية فحفظه، ثم على مختصري ابن الحاجب في الفقه والأصول فحفظهما.

ثم لزم الفقيه عمران المشدالي من تلاميذ أبي علي ناصر الدين، وتفقه عليه، وبرز في العلوم إلى حيث لم تلحق غايته.

وبنى السلطان أبو تاشفين مدرسته بتلمسان، فقدمه للتدريس بها، يضاهي به أولاد الإمام، وتفقه عليه بتلمسان جماعة كان من أوفرهم سهماً في العلوم أبو عبد اللّه المقري هذا.

ولما جاء شينخا أبو عبد اللّه الآبلي إلى تلمسان عند استيلاء السلطان أبي الحسن عليها، وكان أبو عبد اللّه السلاوي قد قتل يوم فتح تلمسان، قتله بعض أشياع السلطان لذنب أسلفه في خدمة أخيه أبي علي بسجلماسة قبل انتحاله العلم، وكان السلطان يعتده عليه، فقتل بباب المدرسة، فلزم أبو عبد اللّه المقري بعده مجلس شيخنا الآبلي، ومجالس ابني الإمام، واستبحر في العلوم وتفنن.

ولما انتقض السلطان أبو عنان سنة تسع وأربعين وسبعمائة وخلع أباه، ندبه إلى كتاب البيعة فكتبها وقرأها على الناس في يوم مشهود.

وارتحل مع السلطان إلى فاس، فلما ملكها عزل قاضيها الشيخ المعمر أبا عبد اللّه بن عبد الرزاق وولاه مكانه، فلم يزل قاضياً بها إلى أن سخطه لبعض النزعات الملوكية، فعزله وأدال منه بالفقيه أبي عبد اللّه الفشتالي آخر سنة ست وخمسين وسبعمائة، ثم بعثه في سفارة إلى الأندلس فامتنع من الرجوع.

وقام السلطان لها في ركائبه، ونكر على صاحب الأندلس ابن الأحمر تمسكه به، وبعث إليه فيه يستقدمه، فلاذ منه ابن الأحمر بالشفاعة فيه، واقتضى له كتاب أمان بخط السلطان أبي عنان، وأوفده مع جماعة من شيوخ العلم بغرناطة منهم: القاضيان بغرناطة شيخنا أبو القاسم الشريف السبتي شيخ الدنيا جلالة وعلماً ووقاراً ورياسة، إمام حوكاً ونقداً في نظمه ونثره.

وشيخنا الأخر أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم بن الحاج البلفيقي من أهل المرية شيخ المحدثين والفقهاء والأدباء والصوفية والخطباء بالأندلس، وسيد أهل العلم بإطلاق، والمتفنن في أساليب المعارف، وآداب الصحابة للملوك فمن دونهم، فوفدا به على السلطان شفيعين على عظيم تشوقه للقائهما، فقبلت الشفاعة وأنجحت الوسيلة.

حضرت بمجلس السلطان يوم وفادتهما سنة سبع وخمسين وسبعمائة وكان يوماً مشهوداً.

واستقر القاضي المقري في مكانه بباب السلطان عطلا من الولاية والجراية.

وجرت عليه بعد ذلك محنة من السلطان بسبب خصومه وقعت بينه وبين أقاربه، امتنع من الحضور معهم عند القاضي الفشتالي، فتقدم السلطان إلى بعض أكابر الوزعة ببابه بأن يسحبه إلى مجلس القاضي حتى أنفذ فيه حكمه، فكان الناس يعدونها محنة، ثم ولاه السلطان بعد ذلك قضاء العساكر في دولته، عندما ارتحل إلى قسنطينة.

فلما افتتحها وعاد إلى دار ملكه بفاس آخر ثمان وخمسين وسبعمائة اعتل القاضي المقري في طريقه، وهلك عند قدومه بفاس.

ومنهم صاحبنا الإمام العالم الفذ، فارس المعقول والمنقول، وصاحب الفروع والأصول، أبو عبد اللّه محمد بن أحمد الشريف الحسني، ويعرف بالعلوي نسبة إلى قرية من أعمال تلمسان، تسمى العلوين، فكان أهل بيته لا يدافعون في نسبهم.

وربما يغمز فيه بعض الفجرة ممن يزعه دينه ولا معرفته بالأنساب فيعد من اللغو، ولا يلتفت إليه، نشأ هذا الرجل بتلمسان وأخذ العلم عن مشيختها، واختص بأولاد الإمام وتفقه عليهما في الفقه والأصول والكلام، ثم لزم شيخنا أبا عبد اللّه الآبلي وتضلع من معارفه، فاستبحر وتفجرت ينابيع العلوم من مداركه.

ثم ارتحل إلى تونس في بعض مذاهبه سنة أربعين وسبعمائة ولقي شيخنا القاضي أبا عبد اللّه بن عبد السلام وحضر مجلسه وأفاد منه، واستعظم رتبته في العلم.

وكان ابن عبد السلام يصغي إليه ويؤثر محله ويعرف حقه حتى زعموا أنه كان يخلو به في بيته، فيقرأ عليه فصل التصوف من كتاب الإشارات، لابن سينا، بما كان هو قد أحكم ذلك الكتاب على شيخنا الآبلي وقرأ عليه كثيراً من كتاب الشفاء لابن سينا، ومن تلاخيص كتب أرسطو لابن رشد، ومن الحساب والهندسة والفرائض علاوة على ما كان يحمله من الفقه والعربية وسائر علوم الشريعة، وكانت له في كتب الخلافيات يد طولى، وقدم عالية، فعرف له ابن عبد السلام ذلك كله وأوجب حقه، وانقلب إلى تلمسان، وانتصب لتدريس العلم وبثه فملأ المغرب معارف وتلاميذ، إلى أن اضطرب المغرب بعد واقعة القيروان.

ثم هلك السلطان أبو الحسن، وزحف ابنه أبو عنان إلى

تلمسان فملكها سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة فاستخلص الشريف أبا عبد اللّه واختاره لمجلسه العلمي مع من اختار من المشيخة، ورحل به إلى فاس فتبرم الشريف من الاغتراب وردد الشكوى وعرف السلطان بذلك وارتاب به.

ثم بلغه أثناء ذلك أن عثمان بن عبد الرحمن سلطان تلمسان أوصاه على ولده، وأودع له مالاً عند بعض الأعيان من أهل تلمسان، وأن الشريف مطلع على ذلك، فانتزع الوديعة وسخط الشريف بذلك ونكبه، وأقام في اعتقاله أشهراً، ثم تلقاه أول ست وخمسين وسبعمائة وأقصاه، ثم أعتبه بعد فتح قسنطينة وأعاده إلى مجلسه إلى أن هلك السلطان آخر تسع وخمسين وسبعمائة.

وملك أبو حمو بن يوسف بن عبد الرحمن تلمسان من يد بني مرين، واستدعى الشريف من فاس فسرحه القائم بالأمر يومئذ الوزير عمر بن عبد اللّه فانطلق إلى تلمسان.

وتلقّاه أبو حمو براحتيه، وأصهر له في ابنته فزوجها إياه، وبنى له مدرسة جعل في بعض جوانبها مدفن أبيه وعمه، وأقام الشريف يدرس العلم إلى أن هلك سنة إحدى وسبعين وسبعمائة وأخبرني رحمه اللّه أن مولده سنة عشر وسبعمائة.

ومنهم صاحبنا الكاتب القاضي أبو القاسم محمد بن يحيى البرجي من برجة الأندلس.

كان كاتب السلطان أبي عنان وصاحب الإنشاء والسر في دولته، وكان مختصاً به، وأثيراً لديه.

وأصله من برجة الأندلس نشأ بها واجتهد في العلم والتحصيل، وقرأ وسمع وتفقه على مشيخة الأندلس.

واستبحر في الأدب وبرز في النظم والنثر، وكان لا يجارى في كرم الطباع وحسن المعاشرة، ولين الجانب وبذل البشر والمعروف.

وارتحل إلى بجاية في عشر الأربعين والسبعمائة، وبها الأمير أبو زكريا ابن السلطان أبي يحيى منفرداً بملكها على حين أقفرت من رسم الكتابة والبلاغة، فبادرت أهل الدولة إلى اصطفائه وإيثاره بخطة الإنشاء والكتابة عن السلطان إلى أن هلك الأمير أبو زكريا، ونصب ابنه محمد مكانه، فكتب عنه على رسمه ثم هلك السلطان أبو يحيى، وزحف السلطان أبو الحسن إلى إفريقية واستولى على بجاية، ونقل الأمير محمداً بأهله وحاشيته إلى تلمسان كما تقدم في أخباره، فنزل أبو القاسم البرجي تلمسان، وأقام بها واتصل خبره بأبي عنان ابن السلطان أبي الحسن وهو يومئذ أميرها، ولقيه، فوقع من قلبه بمكان إلى أن كانت واقعة القيروان.

وخلع أبو عنان واستبد بالأمر فاستكتبه وحمله معه إلى المغرب، ولم يسم به إلى العلامة لأنه آثر بها محمد بن أبي عمر بما كان أبوه يعلمه القرآن والعلم.

وربي محمد بداره، فولاه العلامة، والبرجي مرادف له في رياسته إلى أن انقرضوا جميعاً.

وهلك السلطان أبو عنان واستولى أخوه أبو سالم على ملك المغرب، وغلب ابن مرزوق على هواه كما قدمناه، فنقل البرجي من الكتابة واستعمله في قضاء العساكر، فلم يزل على القضاء إلى أن هلك سنة ست وثمانين وسبعمائة وأخبرني رحمه اللّه أن مولده سنة عشر وسبعمائة.

ومنهم: شيخنا المعمر الرحالة أبو عبد اللّه محمد بن عبد الرزاق شيخ وقته جلالة وتربية وعلماً وخبرة بأهل بلده، وعظمة فيهم.

نشأ بفاس وأخذ عن مشيختها، وارتحل إلى تونس فلقي القاضي أبا إسحاق بن عبد الرفيع والقاضي أبا عبد اللّه النفراوي، وأهل طبقتهما، وأخذ عنهم وتفقه عليهم، ورجع إلى المغرب ولازم سنن الأكابر والمشايخ إلى أن ولاه السلطان أبو الحسن القضاء بمدينة فاس، فأقام على ذلك إلى أن جاء السلطان أبو عنان من تلمسان بعد واقعة القيروان، وخلعه أباه فعزله بالفقيه أبي عبد اللّه المقري، وأقام عطلاً في بيته.

ولما جمع السلطان مشيخة العلم للتحليق بمجلسه، والإفادة منهم، واستدعى شيخنا أبا عبد اللّه بن عبد الرزاق، فكان يأخذ عنه الحديث، ويقرأ عليه القرآن برواياته في مجلس خاص إلى أن هلك رحمه اللّه بين يدي مهلك السلطان أبي عنان، إلى آخرين وآخرين من أهل المغرب والأندلس، كلهم لقيت وذاكرت وأفدت منه، وأجازني بالإجازة العامة.

حدوث النكبة من السلطان أبي عنان

كان اتصالي بالسلطان أبي عنان آخر سنة ست وخمسين وسبعمائة وقربني وأدناني، واستعملني في كتابته، حتى تكدر جوي عنده بعد أن كان لا يعبر عن صفائه.

ثم اعتل السلطان آخر سبع وخمسين وسبعمائة وكان قد حصلت بيني وبين الأمير محمد صاحب بجاية من الموحدين مداخلة، أحكمها ما كان لسلفي في دولتهم.

وغفلت عن التحفظ في مثل ذلك، من غيرة السلطان، فما هو إلا أن شغل بوجعه، حتى أنمى إليه بعض الغواة أن صاحب بجاية معتمل في الفرار ليسترجع بلده، وبها يومئذ وزيره الكبير عبد اللّه بن علي، فانبعث السلطان لذلك، وبادر بالقبض عليه.

وكان فيما أنمي إليه أني داخلته في ذلك، فقبض علي وامتحنني وحبسني وذلك في ثامن عشر صفر، سنة ثمان وخمسين.

ثم أطلق الأمير محمداً وما زلت أنا في اعتقاله إلى أن هلك، وخاطبته بين يدي مهلكه مستعطفاً بقصيدة أولها:

على أي حال لليالي أعاتب ... وأي صروف للزمان أغالب
كفى حزناً أني على القرب نازح ... وأني على دعوى شهودي غائب
وأني على حكم الحوادث نازل ... تسالمني طوراً وطوراً تحارب

ومنها في التشوق:

سلوتهم إلا ادكار معاهد ... لها في الليالي الغابرات غرائب
وإن نسيم الريح منهم يشوقني ... إليهم وتصبيني البروق اللواعب

وهي طويلة، نحو مئتي بيتاً، ذهبت عن حفظي، فكان لها منه موقع، وهش لها وكان بتلمسان، فوعد بالإفراج عني عند حلوله بفاس، ولخمس ليال من حلوله طرقه الوجع، وهلك لخمس عشرة ليلة، في رابع وعشرين ذي الحجة، خاتم تسع وخمسين وسبعمائة.

وبادر القائم بالدولة، الوزير الحسن بن عمر إلى إطلاق جماعة من المعتقلين، كنت فيهم، فخلع علي، وحملني، وأعادني إلى ما كنت عليه، وطلبت منه الانصراف إلى بلدي، فأبى علي، وعاملني بوجوه كرامته، ومذاهب إحسانه، إلى أن اضطرب أمره، وانتقض عليه بنو مرين، وكان ما قدمناه في أخبارهم.

الكتابة عن السلطان أبي سالم في السر والإنشاء

ولما أجاز السلطان أبو سالم من الأندلس لطلب ملكه، ونزل بجبل الصفيحة من بلاد غمارة.

وكان الخطيب ابن مرزوق بفاس، فبث دعوته سراً، واستعان بي على أمره، بما كان بيني وبين أشياخ بني مرين من المحبة والائتلاف، فحملت الكثير منهم على ذلك، وأجابوني إليه، وأنا يومئذ أكتب عن القائم بأمر بني مرين، منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق، وقد نصبوه للملك، وحاصروا الوزير الحسن بن عمر، وسلطانه السعيد ابن أبي عنان، بالبلد الجديد، فقصدني ابن مرزوق في ذلك، وأوصل إلي كتاب السلطان أبي سالم.

بالحض على ذلك، وإجمال الوعد فيه.

وألقى علي حمله، فنهضت به، وتقدمت إلى شيوخ بني مرين، وأمراء الدولة بالتحريض على ذلك، حتى أجابوا، وبعث ابن مرزوق إلى الحسن بن عمر، يدعو إلى طاعة السلطان أبي سالم، وقد ضجر من الحصار، فبادر إلى الإجابة، واتفق رأي بني مرين على الانفضاض عن منصور بن سليمان، والدخول إلى البلد الجديد، فلما تم عقدهم على ذلك نزعت إلى السلطان أبي سالم في طائفة من وجوه أهل الدولة، كان منهم محمد بن عثمان بن الكاس، المستبد بعد ذلك بملك المغرب على سلطانه، وكان ذلك النزوع مبدأ حظه، وفاتحة رياسته، بسعايتي له عند السلطان، فلما قدمت على السلطان بالصفيحة، بما عندي من أخبار الدولة، وما أجمعوا عليه من خلع منصور بن سليمان، وبالموعد الذي ضربوه لذلك، واستحثثته.

فارتحل، ولقينا البشير بإجفال منصور بن سليمان، وفراره إلى نواحي بادس، ودخول بني مرين إلى البلد الجديد، وإظهار الحسن بن عمر دعوة السلطان أبي سالم.

ثم لقيتنا، بالقصر الكبير، قبائل السلطان، وعساكره، على راياتهم، ووزير منصور بن سليمان، وهو مسعود بن رحو بن ماساي، فتلقاه السلطان بالكرامة كما يجب له، واستوزره نائباً للحسن بن يوسف بن علي بن محمد الورتاجني السابق إلى وزارته، لقيه بسبتة، وقد غربه منصور بن سليمان إلى الأندلس فاستوزره واستكفاه.

ولما اجتمعت العساكر عنده بالقصر صعد إلى فاس ولقيه الحسن بن عمر بظاهرها، فأعطاه طاعته، ودخل إلى دار ملكه وأنا في ركابه، لخمس عشرة ليلة من نزوعي إليه، منتصف شعبان سنة ستين وسبعمائة، فرعى لي السابقة واستعملني في كتابة سره، والترسيل عنه، والإنشاء لمخاطباته، وكان أكثرها يصدر عني بالكلام المرسل أن يشاركني أحد ممن ينتحل الكتابة في الأسجاع، لضعف انتحالها، وخفاء العالي منها على أكثر الناس، بخلاف المرسل، فانفردت به يومئذ، وكان مستغرباً عندهم بين أهل الصناعة.

ثم أخذت نفسي بالشعر، وانثال علي منه بحور، توسطت بين الإجادة والقصور، وكان مما أنشدته إياه ليلة المولد النبوي من سنة اثنتين وستين وسبعمائة:

أسرفن في هجري وفي تعذيبي ... وأطلن موقف عبرتي ونحيبي
وأبين يوم البين وقفة ساعة ... لوداع مشغوف الفؤاد كئيب
لله عهد الظاعنين وغادروا ... قلبي رهين صبابة ووجيب
غربت ركائبهم ودمعي سافح ... فشرقت بعدهم بماء غروب
يا ناقعاً بالعتب غلة شوقهم ... رحماك في عذلي وفي تأنيبي
يستعذب الصب الملام وإنني ... ماء الملام لدي غير شروب
ما هاجني طرب ولا اعتاد الجوى ... لولا تذكر منزل وحبيب
أهفو إلى الأطلال كانت مطلعاً ... للبدر منهم أو كناس ربيب
عبثت به أيدي البلى وترددت ... في عطفها للدهر أي خطوب
تبلى معاهدها وإن عهودها ... ليجدها وصفي وحسن نسيبي
وإذا الديار تعرضت لمتيم ... هزته ذكراها إلى التشبيب
إيه عن الصبر الجميل فإنه ... ألوى بدين فؤادي المنهوب
لم أنسها والدهر يثني صرفه ... ويغض طرفي حاسد ورقيب
والدار مونقة محاسنها بما ... لبست من الأيام كل قشيب
يا سائق الأظعان يعتسف الفلا ... ويواصل الأسآد بالتأويب
متهافتاً عن رحل كل مذلل ... نشوان من أين ومن لغوب
تتجاذب النفحات فضل ردائه ... في ملتقاها من صباً وجنوب
إن هام من ظمأ الصبابة صحبه ... نهلوا بمورد دمعه المسكوب
او تعترض مراهم سدف الدجى ... صدعوا الدجى بغرامه المشبوب
في كل شعب منية من دونها ... هجر الأماني أو لقاء شعوب
هلا عطفت صدورهن إلى التي ... فيها لبانة أعين وقلوب
فتؤم من أكناف يثرب مأمنا ... يكفيك ما تخشاه من تثريب
حيث النبوة آيها مجلوة ... تتلو من الآثار كل غريب
سر عجيب لم يحجبه الثرى ... ما كان سر اللّه بالمحجوب

ومنها بعد تعديد معجزاته ﷺ والأطناب في مدحه:

إني دعوتك واثقاً بإجابتي ... يا خير مدعو وخير مجيب
قرنْتُ في مدحي فإن يك طيباً ... فبما لذكرك من أريج الطيب
ماذا عسى يبغي المطيل وقد حوى ... في مدحك القرآن كل مطيب
يا هل تبلغني الليالي زورة ... تدنيي إلى الفوز بالمرغوب
أمحو خطيآتي بإخلاصي بها ... وأحط أوزاري وإصر ذنوبي
في فتية هجروا المنى وتعودوا ... إنضاء كل نجيبة ونجيب
يطوي صحائف ليلهم فوق الفلا ... ما شئت من خبب ومن تقريب
إن رنَّم الحادي بذكرك رددوا ... أنفاس مشتاق إليك طروبي
أو غرد الركب الخلي بطيبة ... حنوا لمغناها حنين النيب
ورثوا اعتساف البيد عن آبائهم ... إرث الخلافة في بني يعقوب
الطاعنين الخيل وهي عوابس ... يغشى مثار النقع كل سبيب
والواهبين المقربات صوافناً ... من كل خوار العنان لعوب
والمانعين الجار حتى عرضه ... في منتدى الأعداء غير معيب
تخشى بوادرهم ويرجى حلمهم ... والعز شيمة مرتجى ومهيب

ومنها في ذكر إجازته البحر واستيلائه على ملكه:

سائل به طامي العباب وقد سرى ... تزجيه ريح العزم ذات هبوب
تهديه سهب أسنة وعزائم ... يصد عن ليل الحادث المرهوب
حتى انجلت ظلم الظلام بسعيه ... وسطا الهدى بفريقها المغلوب
يا ابن الألى شادوا الخلافة بالتقى ... واستأثروك بتاجها المغصوب
جمعوا الحفظ الدين أي مناقب ... كرموا بها في مشهد ومغيب
لله مجدك طارفاً أو تالداً ... فلقد شهدنا منهن كل عجيب
كم رهبة أو رغبة بك في العلى ... تقتاد بالترغيب والترهيب
لا زلت مسروراً بأشرف دولة ... يبدو الهدى من أفقها المرقوب
تحيي المعالي غادياً أو رائحاً ... وحديد سعدك ضامن المطلوب

ومن قصيدة خاطبته بها عند وصول هدية ملك السودان إليه، وفيها الحيوان الغريب المسمى بالزرافة:

قدحت يد الأشواق من زندي ... وهفت بقلبي زفرة الوجد
ونبذت سلواني على ثقة ... بالقرب فاستبدلت بالبعد
ولرب وصل كنت آمله ... فاعتضت منه بمؤلم الصد
لا عهد عند الصبر أطلبه ... إن الغرام أضاع من عهدي
يلحى العذول فما أعنفه ... وأقول ضل فأبتغي رشدي
وأعارض النفحات أسألها ... برد الجوى فتزيد في الوقد
يهدي الغرام إلى منازلها ... لتعللي بضعيف ما تهدي
يا سائق الأظعان معتسفا ... طي الفلاة لطية الوجد
أرح الركاب ففي الصبا نبأ ... يغني عن المستنة الجرد
وسل الربوع برامة خبراً ... عن ساكني نجد وعن نجد
مالي تلام على الهوى خلقي ... وهي التي تأبى سوى الحمد
لأبيت إلا الرشد مذ وضحت ... بالمستعين معالم الرشد
نعم الخليفة في هدى وتقى ... وبناء عز شامخ الطود
نجل السراة الغر شأنهم ... كسب العلى بمواهب الوجد

ومنها في ذكر خلوصي إليه وما ارتكبته فيه:

لله مني إذ تأوبني ... ذكراه وهو بشاهق فرد
شهم يفل بواتراً قضباً ... وجموع أقيال أولي اليد
أوريت زند العزم في طلبي ... وقضيت حق المجد من قصدي
ووردت عن ظمأ مناهله ... فرويت من عز ومن رفدي
هي جنة المأوى لمن كلفت ... آماله بمطالب المجد
لو لم أعل بورود كوثرها ... ما قلت هذي جنة الخلد
من مبلغ قومي ودونهم ... قذف النوى وتنوفة البعد
أني ألفت على رجائهم ... وملكت عز جميعهم وحدي

ورقيمة الأعطاف حالية ... موشية بوشائح البرد
وحشية الأنساب ما أنست ... في موحش البيداء بالقود
تسمو بجيد بالغ صعداً ... شرف الصروح بغير ما جهد
طالت رؤوس الشامخات به ... ولربما قصرت عن الوهد
قطعت إليك تنائفاً وصلت ... إسادها بالنعي والوخد
تخدي على استصعابها ذللاً ... وتبيت طوع القن والقد
بسعودك اللائي ضمن لنا ... طول الحياة بعيشة رغد
جاءتك في وفد الأحابش لا ... يرجون غيرك مكرم الوفد
وافوك انضاء تقلبهم ... أيدي السرى بالغور والنجد
كالطيف يستقري مضاجعه ... أو كالحسام يسل من غمد
يثنون بالحسنى التي سبقت ... من غير إنكار ولا جحد
ويرون لحظك من وفادتهم ... فخراً على الأتراك والهند
يا مستعيناً جل في شرف ... عن رتبة المنصور والمهدي
جازاك ربك عن خليقته ... خير الجزاء فنعم ما يسدي
وبقيت للدنيا وساكنها ... في عزة أبداً وفي سعد

وأنشدته في سائر أيامه غير هاتين القصيدتين كثيراً لم يحضرني الآن شيء منه.

ثم غلب ابن مرزوق على هواه وانفرد بمخالطته وكبح الشكائم عن قربه، فانقبضت وقصرت الخطو، مع البقاء على ما كنت فيه من كتابة سره وإنشاء مخاطباته ومراسمه.

ثم ولاني آخر الدولة «خطة المظالم» فوفيتها حقها ودفعت للكثير مما أرجو ثوابه.

ولم يزل ابن مرزوق آخذاً في سعايته بي وبأمثالي من أهل الدولة، غيرة ومنافسة إلى أن انتقض الأمر على السلطان بسببه، وثار الوزير عمر بن عبد الله بدار الملك فصار إليه الناس، ونبذوا السلطان وبيعته، وكان في ذلك هلاكه على ما ذكرناه في أخبارهم.

ولما قام الوزير عمر بالأمر أقرني على ما كنت عليه، ووفر أقطاعي وزاد في جرايتي وكنت أسمو بطغيان الشباب إلى أرفع مما كنت فيه وأدل في ذلك بسابق مودة معه، منذ أيام السلطان أبي عنان، وصحابة استحكم عقدها بيني وبينه وبين الأمير أبي عبد الله صاحب بجاية فكان ثالث آثافينا ومصقلة فكاهتنا واشتدت غيرة السلطان لذلك كما مر، وسطا بنا، وتغافل عن عمر بن عبد الله لمكان أبيه من ثغر بجاية ثم حملني الإدلال عليه أيام سلطانه، وما ارتكبه في حقي من القصور بي عما أسمو إليه إلى أن هجرته، وقعدت عن دار السلطان مغاضباً له، فتنكر لي وأقطعني جانباً من الإعراض، فطلبت الرحلة إلى بلدي بإفريقية.

وكان بنو عبد الواد قد راجعوا ملكهم بتلمسان والمغرب الأوسط فمنعني من ذلك أن يغتبط أبو حمو صاحب تلمسان بمكاني، فأقيم عنده، ولج في المنع من ذلك، وأبيت أنا إلا الرحلة، واستجرت في ذلك بردیفه وصديقه الوزير مسعود بن رحو بن ماساي، ودخلت عليه يوم الفطر سنة ثلاث وستين وسبعمائة فأنشدته:

هنيئاً بصوم لا عداه قبول ... وبشرى بعيد أنت فيه منيل
وهنتها من عزة وسعادة ... تتابع أعوام بها وفصول
سقى الله دهراً أنت إنسان عينه ... ولا مسّ ربعاً في حمال محول
فعصرك ما بين الليالي مواسم ... لها غرر وضاحة وحجول
وجانبك المأمول للجود مشرع ... يحوم عليه عالم وجهول
عاك وإن ضن الزمان منولي ... فرسم الأماني من سواك محيل
أجرني فليس الدهر لي بمسالم ... إذا لم يكن لي في ذراك مقيل
وأولني الحسنى بما أنا آمل ... فمثلك يولي راجياً وينيل
وو الله ما رمت الترحل عن قلى ... ولا سخطة للعيش فهو جزيل
ولا رغبة عن هذه الدار إنها ... لظل على هذا الأنام ظليل
ولكن نأى بالشعب عني حبائب ... شجاهن خطب والفراق طويل
يهيج بهن الوجد أني نازح ... وأن فؤادي حيث هن حلول
عزيز عليهن الذي قد لقيته ... وأن اغترابي في البلاد يطول
تواريت بأبنائي البقاع كأنني ... تخطفت أو غالت ركابي غول
ذكرتك يا مغنى الأحبة والهوى ... فطارت بقلبي أنة وعويل
وحيبت عن سوق رباك كأنما ... يمثل لي نوء بها وطلول
أأحبابنا والعهد بيني وبينكم ... كريم وما عهد الكريم يحول
إذا أنا لم ترض الحمول مدامعي ... فلا قربتني للقاء حمول
إلام مقامي حيث لم ترد العلى ... مرادي ولم تعط القياد ذلول
أجاذب فضل العمر يوماً وليلة ... وساء صباح ينهما وأصيل
ويذهب بي ما بين يأس ومطمع ... زمان بنيل المعلوات بخيل
تعللني عنه أمان خوادع ... ويؤنسني ليان منه مطول
أما لليالي لا ترد خطوبها ... ففي كبدي من وقعهن فلول
يروعني عن صرفها كل حادث ... تكاد له صم الجبال تزول
أداري على الرغم العدى لا لريبة ... يصانع واش خوفها وعذول
وأغدو بأشجاني عليلاً كأنما ... تجود بنفسي زفرة وغليل
وإني وإن أصبحت في دار غربة ... تحيل الليالي سلوتي وتديل
وصدتني الأيام عن خير مترل ... عهدت به أن لا يضام نزيل
لأعلم أن الخير والشر يتهي ... مداه وأن الله سوف يديل
وأني عزيز بابن ماساي مكثر ... وإن هان أنصار وبان خليل

فأعانني الوزير مسعود عليه حتى أذن لي في الانطلاق على

شريطة العدول عن تلمسان في أي مذهب أردت، فاخترت الأندلس وصرفت ولدي وأمهم إلى أخواهم، أولاد القائد محمد بن الحكيم بقسنطينة فاتح أربع وستين وسبعمائة وجعلت أنا طريقي على الأندلس، وكان سلطانها أبو عبد الله المخلوع، حين وفد على السلطان أبي سالم بفاس، وأقام عنده، حصلت لي معه سابقة وصلة ووسيلة خدمة، من جهة وزيره أبي عبد الله بن الخطيب، وما كان بيني وبينه من الصحابة، فكنت أقوم بخدمته وأعتمل في قضاء حاجاته في الدولة، ولما أجاز باستدعاء الطاغية لاسترجاع ملكه حين فسد ما بين الطاغية وبين الرئيس المتوثب عليه بالأندلس من قرابته، خلفته فيمن ترك من عياله وولده بفاس، خير خلف في قضاء حاجاتهم وإدرار أرزاقهم، من المتولين لها، والاستخدام لهم.

ثم فسد ما بين الطاغية وبينه، قبل ظفره بملكه، برجوعه عما اشترطه له من التجافي عن حصون المسلمين التي تملكها بإجلابه ففارقه إلى بلاد المسلمين ونزل بأسجة وكتب إلى عمر بن عبد الله يطلب مصراً ينزله من أمصار الأندلس الغربية التي كانت ركاباً للملوك المغرب في جهادهم.

وخاطبني أنا في ذلك، فكنت له نعم الوسيلة عند عمر، حتى تم قصده من ذلك، وتجافى عن رندة وأعمالها، فنزلها وتملكها، وكانت دار هجرته، وركاب فتحه، وملك منها الأندلس أواسط ثلاث وستين وسبعمائة واستوحشت أنا من عمر إثر ذلك كما مر، وارتحلت إليه معولاً على سوابقي عنده، فغرب في المكافأة كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الرحلة إلى الأندلس

ولما أجمعت الرحلة إلى الأندلس بعثت بأهلي وولدي إلى أخوالهم بقسنطينة، وكتبت لهم إلى صاحبها السلطان أبي العباس من حفدة السلطان أبي يحيى وأني أمر على الأندلس وأجيز إليه من هنالك.

وسرت إلى سبتة فرضة المجاز، وكبيرها يومئذ الشريف أبو العباس أحمد بن الشريف الحسني ذو النسب الواضح السالم من الريبة عند كافة أهل المغرب، انتقل سلفه إلى سبتة من صقلية، وأكرمهم بنو العزفي أولاً وصاهروهم، ثم عظم صيتهم في البلد فتنكروا لهم وغربهم يحيى العزفي آخرهم إلى الجزيرة، فاعترضتهم مراكب النصارى في الزقاق فأسروهم.

وانتدب السلطان أبو سعيد إلى فديتهم رعاية لشرفهم، فبعث إلى النصارى في ذلك فأجابوه.

وفادى هذا الرجل وأباه على ثلاثة آلاف دينار، ورجعوا إلى سبتة وانقرض بنو العزفي ودولتهم، وهلك والد الشريف وصار هو إلى رياسة الشورى.

ولما كانت واقعة القيروان، وخلع أبو عنان أباه واستولى على المغرب، وكان بسبتة عبد الله بن علي الوزير والياً من قبل السلطان أبي الحسن، فتمسك بدعوته، ومال أهل البلد إلى السلطان أبي عنان وبث فيهم الشريف دعوته، فثاروا بالوزير وأخرجوه ووفدوا على أبي عنان وأمكنوه من بلدهم، فولى عليها من عظماء دولته سعيد بن موسى العجيسي كافل تربيته في صغره وأفرد هذا الشريف برياسة الشورى في سبتة فلم يكن يقطع أمر دونه، ووفد على السلطان بعض الأيام فتلقاه من الكرامة بما لا يشاركه فيه أحد من وفود الملوك والعظماء.

ولم يزل على ذلك سائر أيام السلطان وبعد وفاته، وكان معظماً وقور المجلس، هش اللقاء كريم الوفادة، متحلّياً بالعلم والأدب، منتحلاً للشعر غاية في الكرم وحسن العهد، وسذاجة النفس، ولما مررت به سنة أربع وستين وسبعمائة أنزلني بيته أزاء المسجد الجامع، ورأيت منه ما لا يقدر مثله من الملوك، وأركبني الحراقة ليلة سفري يباشر دحرجتها إلى الماء بيده، إغراباً في الفضل والمساهمة، وحططت بجبل الفتح وهو يومئذ لصاحب المغرب، ثم خرجت منه إلى غرناطة وكتبت للسلطان ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب بشأني، وليلة بت بقرب غرناطة على بريد منها، لقيني كتاب ابن الخطيب يهنئني بالقدوم، ويؤنسني ونصه:

حللت حلول الغيث في البلد المحل ... على الطائر الميمون والرحب والسهل
يميناً بمن تعنو الوجوه لوجهه ... من الشيخ والطفل المهدّإ والكهل
لقد نشأت عندي للقياك غبطة ... تنسي اغتباطي بالشبيبة والأهل
ودي لا يحتاج فيه لشاهد ... وتقريري المعلوم ضرب من الجهل

أقسمت بمن حجت قريش لبيته وقبر صرفت أزمة الأحياء لميته ونور ضربت الأمثال بمشكاته وزيته لو خيرت أيها الحبيب الذي زيارته الأمنية السنية، والعارفة الوارفة، واللطيفة المطيفة بين رجع الشباب يقطر ماء، ويرف نماء، ويغازل عيون الكواكب، فضلاً عن الكواعب، إشارة وإيماء، بحيث لا الوخط يلم بسياج لمته، أو يقدح ذباله في ظلمته، أو يقدم حواريه في ملته، من الأحابش وأمته.

وزمانه روح وراح، ومغدى في النعيم ومراح، وقصف صراح ورقى وجراح، وانتخاب واقتراح، وصدور ما بها إلا

انشراح، ومسرات تردفها أفراح، وبين قدومك خليع الرسن ممتعاً، والحمد لله باليقظة والوسن، محكماً في نسك الجنيد أو فتك الحسن، ممتعاً بظرف المعارف، مالئاً أكف الصيارف ماحياً بأنوار البراهين شبه الزخارف، لما اخترت الشباب وإن شاقني زمنه، وأعياني ثمنه، وأجرت سحاب دمعي دمنه.

فالحمد لله الذي رقى جنون اغترابي وملكني أزمة آرابي وغبطني بمائي وترابي، ومألف أترابي، وقد أغضني بلذيذ شرابي، ووقع على سطوره المعتبرة إضرابي.

وعجلت هذه مغبطة بمناخ المطية، منتهى الطية وملتقى للسعود غير البطية وتهني الآمال الوثيرة الوطية فما شئت من نفوس عاطشة إلى ريك، متجملة بزيك، عاقلة خطا مهريك ومولى مكارمه، نشيدة أمثالك، ومظان مثالك، وسيصدق الخبر ما هنالك، ويسع فضل مجدك في التخلف عن الإصحار لا بل للقاء من وراء البحار والسلام.

ثم أصبحت من الغد قادماً على البلد وذلك ثامن ربيع الأول عام أربعة وستين وسبعمائة وقد اهتز السلطان لقدومي، وهيأ لي المنزل من قصوره بفرشه وماعونه، وأركب خاصته للقائي تحفياً وبراً، ومجازاة بالحسنى.

ثم دخلت عليه فقابلني بما يناسب ذلك، وخلع علي وانصرفت.

وخرج الوزير ابن الخطيب فشيعني إلى مكان نزلي، ثم نظمني في علية أهل مجلسه، واختصني بالنجي في خلوته، والمواكبة في ركوبه والمواكلة والمطايبة والفكاهة في خلوات أنسه، وأقمت على ذلك عنده، وسفرت عنه سنة خمس وستين وسبعمائة إلى الطاغية ملك قشتالة يومئذ، بتره بن الهنشة بن أدفونش لإتمام عقد الصلح ما بينه وبين ملوك العدوة بهدية فاخرة من ثياب الحرير والجياد المقربات بمراكب الذهب الثقيلة، فلقيت الطاغية بإشبيلية وعاينت آثار سلفي بها، وعاملني من الكرامة بما لا مزيد عليه، وأظهر الاغتباط بمكاني، وعلم أولية سلفنا بإشبيلية وأثنى علي عنده طبيبه إبراهيم بن زرزر اليهودي المقدم في الطب والنجامة وكان لقيني بمجلس السلطان أبي عنان وقد استدعاه يستطبه، وهو يومئذ بدار ابن الأحمر بالأندلس.

ثم نزع بعد مهلك رضوان القائم بدولتهم إلى الطاغية، فأقام عنده ونظمه في أطبائه، فلما قدمت أنا عليه أثنى علي عنده، فطلب الطاغية مني حينئذ المقام عنده، وأن يرد علي تراث سلفي بإشبيلية وكان بيد زعماء دولته، فتفاديت من ذلك بما قبله.

ولم يزل على اغتباطه إلى أن انصرفت عنه، فزودني وحملني واختصني ببغلة فارهة بمركب ثقيل ولجام ذهبيين، أهديتهما إلى السلطان فأقطعني قرية إلبيرة من أراضي السقي بمرج غرناطة وكتب بها منشوراً كان نصه ثم حضرت ليلة المولد النبوي لخامسة قدومي، وكان يحتفل في الصنيع فيها والدعوة وإنشاد الشعر اقتداء بملوك المغرب، فأنشدته ليلتئذ:

حي المعاهد كانت قبل تحييني ... بواكف الدمع يرويها ويظميني
إن الألى نزحت داري ودارهم ... تحملوا القلب في آثارهم دوني
وقفت أنشد صبراً ضاع بعدهم ... فيهم وأسأل رسماً لا يناجيني
أمثل الربع من شوق فأنشمه ... وكيف والفكر يدنيه ويقصيني
وينهب الوجد مني كل لؤلؤة ... ما زال قلبي عليها غير مأمون
سقت جفوني مغاني الربع بعدهم ... بالدمع وقف على أطلاله الجون
قد كان للقلب داعي الهوى شغل ... لو أن قلبي إلى السلوان يدعوني
أحبابنا هل لعهد الوصل مدكر ... منكم وهل نسمة عنكم تحيني
مالي وللطيف لا يعتاد زائره ... وللنسيم عليلاً لا يداويني
يا أهل نجد وما نجد وساكنها ... حسناً سوى جنة الفردوس والعين
أعندكم أنني ما مر ذكركم ... إلا انثنيت كأن الراح تثنيني
أصبو إلى البرق من أنحاء أرضكم ... شوقاً ولولاكم ما كان يصبيني
يا نازحاً والمنى تدنيه من خلدي ... حتى لأحسبه قرباً يناجيني
أسلى هواك فؤادي عن سواك وما ... سواك يوماً بحال عنك يسليني
ترى الليالي أنستك إدكاري يا ... من لم تكن ذكره الأيام تنسيني

ومنها في وصف الإيوان الذي بناه لجلوسه بين قصوره

يا مصنعاً شيدت منه السعود حمى ... لا يطرق الدهر مبناه بتوهين
صرح بحار لديه الطرف مفتتناً ... فيما يروقك من شكل وتلوين
بعداً لإيوان كسرى إن مشورك ... السامي لأعظم من تلك الأواوين
ودع دمشق ومغناها فقصرك ذا ... أشهى إلى القلب من أبواب جيرون

ومنها في التعريض بمنصرفي من العدوة:

من مبلغ عني الصحب الألى تركوا ... ودي وضاع حماهم إذ أضاعوني
أني أويت من العليا إلى حرم ... كادت مغانيه بالبشرى تحييني
وأنني ظاعناً لم ألق بعدهم ... دهراً أشاكي ولا خصماً يشاكيني
لا كالتي أخفرت عهدي ليالي إذ ... أقلب الطرف بين الخوف والهون
سقياً ورعياً لأيامي التي ظفرت ... يداي منها بحظ غير مغبون
ارتاد منها مليئاً لا يماطلني ... وعداً وأرجو كريماً لا يعنيني
وهاك منها قواف طيها حكم ... مثل الأزاهر في طي الرياحين
تلوح إن جليت درّاً وإن تليت ... تثني عليك بأنفاس البساتين
عانيت منها بجهدي كل شاردة ... لولا سعودك ما كادت تواتين
يمانع الفكر عنها ما تقسمه ... من كل حزن بطي الصدر مكنون

لكن بسعدك ذلت لي شواردها فرضت منها بتحبير وتزيين
بقيت دهرك في أمن وفي دعة ودام ملكك في نصر وتمكين

وأنشدته سنة خمس وستين وسبعمائة في إعذار ولده، والصنيع الذي احتفل لهم فيه، ودعا إليه الجفلى من نواحي الأندلس ولم يحضرني منها إلا ما أذكره:

صحا الشوق لولا عبرة ونحيب وذكرى تجد الوجد حين تثوب
وقلب أبى إلا الوفاء بعهده وإن نزحت دار وبان حبيب
و لله مني بعد حادثة النوى فؤاد لتذكار العهود طروب
يؤرقه طيف الخيال إذا سرى وتذكي حشاه نفحة وهبوب
خليلي لا تسعدا فدعا الأسى فإني لما يدعو الأسى لمجيب
ألماً على الأطلال يقض حقوقها من الدمع فياض الشؤون سكوب
ولا تعذلاني في البكاء فإنها حشاشة نفسي الدموع تذوب

ومنها في تقدم ولده للأعذار من غير نكول:

فيمم منه الحفل لا متقاعس لخطب ولا نكس اللقاء هيوب
وراح كما راح الحسام من الوغى تروق حلاه والفرند خضيب
شواهد أهدتهن منك شمائل وخلق بصفو المجد منك مشوب

ومنها في الثناء على ولديه:

هما النيران الطالعان على الهدى بآيات فتح شأنهن عجيب
شهابان في الهيجا غمامان في الندى تسح المعالي منهما وتصوب
يدان لبسط المكرمات نماهما إلى المجد فياض اليدين وهوب

وأنشدته ليلة المولد الكريم من هذه السنة:

أبى الطيف أن يعتاد إلا توهما فمن لي بأن ألقى الخيال المسلما
وقد كنت أستهديه لو كان نافعي وأستمطر الأجفان لو تنقع الظما
ولكن خيال كاذب وطماعة تعلل قلباً بالأماني متيما
أيا صاحبي نجواي والحب لوعة تبيح بشكواها الضمير المكتما
خذا لفؤادي العهد من نفس الصبا وظبي النقا والبان من أجرع الحمى
ألا صنع الشوق الذي هو صانع فحبي مقيم أقصر الشوق أو سما
وإني ليدعوني السلو تعللا وتنهاني الأشجان أن أتقدما
لمن دمن أقفرن إلا هواتفا تردد في أطلالهن الترنما
عرفت بها سيما الهوى وتنكرت فمجت على آياتها متوسما
وذو الشوق يعتاد الربوع دوارسا ويعرف آثار الديار توهما
تأوبني والليل بيني وبينه وميض بأطراف الثنايا تضرما
أجد لي العهد القديم كأنه أشار بتذكار العهود فأفهما
عجبت لمرتاع الجوانح خافق بكيت له خلف الدجى وتبسما
وبت أرويه كؤوس مدامعي وبات يعاطيني الحديث عن الحمى
وصافحته عن رسم دار بذي الغضا لبست بها ثوب الشبيبة معلما
لعهدي بها تدني الظباء أوانسا وتطلع في آفاقها الغيد أنجما
أحن إليها حيث سار بي الهوى وأنجد رحلي في البلاد وأتهما

ولما استقر، واطمأنت الدار، وكان من السلطان الاغتباط والاستئثار، وكثر الحنين إلى الأهل والتذكار، أمر باستقدام أهلي من مطرح اغترابهم بقسنطينة، فبعث عنهم من جاء بهم إلى تلمسان، وأمر قائد الأسطول بالمرية، فسار لإجازتهم في أسطوله، واحتلوا بالمرية.

واستأذنت السلطان في تلقيهم، وقدمت بهم على الحضرة بعد أن هيأت لهم المنزل والبستان ودمنة الفلح، وسائر ضروريات المعاش.

وكتب الوزير ابن الخطيب عندما قاربت الحضرة، وقد كتبت إليه أستأذنه في القدوم، وما أعتمده في أحواله:

سيدي، قدمت بالطير الميامين على البلد الأمين، واستضفت الرفاء إلى البنين، ومتعت بطول السنين.

وصلتني البراءة المعربة عن كتب اللقاء، ودنو المزار، وذهاب البعد، وقرب الدار، وأستفهم سيدي عما عندي في القدوم على المخدوم، والحق أن يتقدم سيدي إلى الباب الكريم في الوقت الذي يجد المجلس الجمهوري لم يفض حجيجه، ولا صوح بهيجه ويصل الأهل بعده إلى المحل الذي هيأته السعادة لاستقرارهم، واختاره اليمن قبل اختيارهم والسلام.

ثم لم يلبث الأعداء وأهل السعايات أن خلوا الوزير ابن الخطيب من ملابستي للسلطان، واشتماله علي، وحركوا له جواد الغيرة فتنكر.

وشممت منه رائحة الانقباض مع استبداده بالدولة، وتحكمه في سائر أحوالها، وجاءتني كتب السلطان أبي عبد الله صاحب بجاية بأنه استولى عليها في رمضان سنة خمس وستين وسبعمائة واستدعاني إليه، فاستأذنت السلطان ابن الأحمر في الارتحال إليه.

وعميت عليه شأن ابن الخطيب إبقاء لمودته، فارتمض لذلك، ولم يسعه إلا الإسعاف فودع وزود وكتب لي مرسوم بالتشييع من إملاء الوزير ابن الخطيب نصه:

هذا ظهير كريم، تضمن تشييعاً وترفيعاً وإكراماً وإعظاماً، وكان لعمل الصنيعه ختاماً، وعلى الذي أحسن تماماً، وأشاد به للمعتمد به بالاغتباط الذي راق قساماً وتوفر إقساماً وأعلن له بالقبول إن نوى بعد النوى رجوعاً أو آثر على الظعن المزمع مقاماً.

أمر به، وأمضى العمل بمقتضاه، وحسبه الأمير أبو عبد اللّه محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر أيد اللّه أمره، وأعز نصره، وأعلى ذكره، للولي الجليس، الحظي المكين، المقرب الأود الأحب الفقيه الجليل الصدر الأوحد، الرئيس العلم الفاضل الكامل، المرفع الأسمى الأظهر الأرضى الأخلص الأصفى أبي زيد عبد الرحمن بن الشيخ الجليل، الحسيب الأصيل المرفع المعظم، الصدر الأوحد، الأسمى الأفضل الموقر المبرور أبي يحيى أبي بكر ابن الشيخ الجليل الكبر، الرفيع الماجد، القائد الحظي، المعظم الموقر، المبرور المرحوم أبي عبد اللّه بن خلدون.

وصل اللّه له أسباب السعادة، وبلغه من فضله أقصى الإرادة، أعلن بما عنده، أيده اللّه من الاعتقاد الجميل في جانبه المرفع، وإن كان غنياً عن الإعلان، وأعرب عن معرفته بمقداره في الحسبان، العلماء الرؤساء الأعيان، وأشاد باتصال رضاه عن مقاصده البرة وشيمه الحسان، من لدن وفد بابه، وفادة العز الراسخ البنيان، وأقام المقام الذي عين له رفعة المكان، وإجلال الشان، إلى أن عزم على قصد وطنه، أبلغه اللّه ذلك في ظل اليمن والأمان، وكفالة الرحمن بعد الاغتباط المربى على الخبر بالعيان، والتمسك بجواره بجهد الإمكان، ثم قبول عذره بما جبلت الأنفس عليه من الحنين إلى المعاهد والأوطان.

بعد أن لم يدخر عنه كرامة رفيعة، ولم يحجب عنه وجه صنيعه، فولاه القيادة والسفارة وأحله جليسا معتماً بالإشارة وألبسه من الحظوة والتقريب أبهى الشارة، وجعل محله من حضرته مقصوداً بالمثل معنيّاً بالإشارة، ثم أصحبه تشييعاً يشهد بالضنانة بفراقه، ويجمع له بر الوجهة من جميع آفاقه، ويجعله بيده رتيمه خنصر ووثيقة سامع أو مبصر، فمهما لوى أخدعه إلى هذه البلاد بعد قضاء وطره، وتمليه من نهمة سفره، أو نزع به حسن العهد وحنين الود، فصدر العناية به مشروح، وباب الرضا والقبول مفتوح، وأما عهده من الحظوة والبر ممنوح.

فما كان القصد في مثله من أمجاد الأولياء ليتحول، ولا الاعتقاد الكريم ليتبدل، ولا الأخير من الأحوال لينسخ الأول.

على هذا فليطو ضميره، وليرد ما شاء نميره ومن وقف عليه من القواد والأشياخ والخدام براً وبحراً على اختلاف الخطط والرتب، وتباين الأحوال والنسب، أن يعرفوا حق هذا الاعتقاد في كل ما يحتاج إليه من تشييع ونزول، وإعانة وقبول، واعتناء موصول إلى أن يكمل الغرض، ويؤدي من امتثال هذا الأمر الواجب المفترض بحول اللّه وقوته.

وكتب في التاسع عشر من جمادى الأولى عام ست وستين وسبعمائة.

وبعد التاريخ العلامة بخط السلطان، ونصها «صح هذا».

الرحلة من الأندلس إلى بجاية وولاية الحجابة بها على الاستبداد

كانت بجاية ثغراً لإفريقية في دولة بني أبي حفص من الموحدين.

ولما صار أمرهم للسلطان أبي يحيى بكر بن منهم، واستقل بملك إفريقية، ولى في ثغر بجاية ابنه الأمير أبا زكريا، وفي ثغر قسنطينة ابنه الأمير عبد اللّه.

وكان بنو عبد الواد ملوك تلمسان والمغرب الأوسط ينازعونه في أعماله، ويحمدون العساكر على بجاية، ويجلبون على قسنطينة إلى أن تمسك السلطان أبو بكر بذمة من السلطان أبي الحسن ملك المغرب الأقصى من بني مرين، وله الشفوف على سائر ملوكهم.

وزحف السلطان أبو الحسن إلى تلمسان فأخذ بمخنقها سنتين أو أزيد، وملكها عنوة وقتل سلطانها أبا تاشفين وذلك سنة سبع وثلاثين وسبعمائة، وخف ما كان على الموحدين من إصر بني عبد الواد، واستقامت دولتهم.

ثم هلك أبو عبد اللّه محمد ابن السلطان أبي يحيى بقسنطينة سنة أربعين وسبعمائة، وخلف سبعة من الولد، كبيرهم أبو زيد عبد الرحمن، ثم أبو العباس أحمد، فولى الأمير أبا زيد مكان أبيه في كفالة نبيل مولاه ثم توفي الأمير أبو زكريا ببجاية سنة ست وأربعين وخلف ثلاثة من الولد كبيرهم أبو عبد اللّه محمد، وبعث السلطان أبو بكر ابنه الأمير أبا حفص عليها، فمال أهل بجاية إلى الأمير أبي عبد اللّه بن أبي زكريا، وانحرفوا عن الأمير عمر وأخرجوه.

وبادر السلطان فرقع هذا الخرق بولاية أبي عبد اللّه عليهم كما طلبوه.

ثم توفي السلطان أبو بكر منتصف سبع وأربعين وسبعمائة وزحف أبو الحسن إلى إفريقية فملكها، ونقل الأمراء من بجاية وقسنطينة إلى المغرب.

وأقطع لهم هنالك إلى أن كانت حادثة القيروان، وخلع السلطان أبو عنان أباه.

وارتحل من تلمسان إلى فاس، فنقل معه هؤلاء الأمراء أهل بجاية وقسنطينة، وخلطهم بنفسه، وبالغ في تكرمتهم.

ثم صرفهم إلى ثغورهم الأمير أبا عبد اللّه أولا، وإخوته من تلمسان، وأبا زيد وإخوته من فاس ليستبدوا بثغورهم، ويخذلوا الناس عن السلطان أبي الحسن، فوصلوا إلى بلادهم وملكوها بعد أن كان الفضل ابن السلطان أبي بكر قد استولى عليها من يد بني مرين، فانتزعوها منه.

واستقر أبو عبد اللّه ببجاية حتى إذا هلك السلطان أبو الحسن بجبال المصامدة، وزحف أبو عنان إلى تلمسان سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة فهزم ملوكها من بني عبد الواد وأبادهم، ونزل المدية وأطل على بجاية، وبادر الأمير أبو عبد اللّه للقائه، وشكا إليه ما يلقاه من زبون الجند والعرب، وقلة الجباية.

وخرج له عن ثغر بجاية فملكها، وأنزل عماله بها، ونقل الأمير أبا عبد اللّه معه إلى المغرب، فلم يزل عنده في حفاية وكرامة.

ولما قدمت على السلطان أبي عنان آخر سنة خمس وخمسين وسبعمائة واستخلصني، نبضت عروق السوابق بين سلفي وسلف الأمير أبي عبد اللّه، واستدعاني للصحابة، فأسرعت وكان السلطان أبو عنان شديد الغيرة من مثل ذلك.

ثم كثر المنافسون ورفعوا إلى السلطان وقد طرقه مرض أرجف له الناس، فرفعوا له أن الأمير أبا عبد اللّه اعتزم على الفرار إلى بجاية، وأني عاقدته على ذلك، على أن يوليني حجابته، فانبعث لها السلطان وسطا بنا واعتقلني نحواً من سنتين إلى أن هلك.

وجاء السلطان أبو سالم واستولى على المغرب، ووليت كتابة سره، ثم نهض إلى تلمسان وملكها من يد بني عبد الواد، وأخرج منها أبا حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن، ثم اعتزم على الرجوع إلى فاس، وولى على تلمسان أبا زيان محمد بن أبي سعيد عثمان ابن السلطان أبي تاشفين وأمده بالأموال والعساكر من أهل وطنه ليدافع أبا حمو عن تلمسان ويكون خالصة له، وكان الأمير أبو عبد اللّه صاحب بجاية معه كما ذكرناه، والأمير أبو العباس صاحب قسنطينة بعد أن كان بنو مرين حاصروا أخاه أبا زيد بقسنطينة أعواماً تباعاً.

ثم خرج لبعض مذاهبه إلى بونة، وترك أخاه أبا العباس بها فخلعه، واستبد بالأمر دونه وخرج إلى العساكر المجمرة عليها من بني مرين، فهزمهم وأثخن فيهم.

ونهض السلطان إليه من فاس سنة ثمان وخمسين وسبعمائة فتبرأ منه أهل البلد وأسلموه، فبعثه إلى سبتة في البحر، واعتقله بها حتى إذا ملك السلطان أبو سالم سبتة عند إجازته من الأندلس سنة ستين وسبعمائة أطلقه من الاعتقال وصحبه إلى دار ملكه ووعده برد بلده عليه.

فلما ولى أبا زيان على تلمسان أشار عليه خاصته ونصحاؤه بأن يبعث هؤلاء الموحدين إلى ثغورهم، فبعث أبا عبد اللّه إلى بجاية وقد كان ملكها عمه أبو إسحاق صاحب تونس، ومكفول بن تافراكين من يد بني مرين.

وبعث أبا العباس إلى قسنطينة، وبها زعيم من زعماء بني مرين، وكتب إليه السلطان أبو سالم أن يفرج له عنها فملكها لوقته، وسار الأمير أبو عبد اللّه إلى بجاية فطال إجلابه عليها، ومعاودته حصارها، ولج أهلها في الامتناع منه مع السلطان أبي إسحاق.

وقد كان لي المقام المحمود في بعث هؤلاء الأمراء إلى بلادهم، وتوليت كبر ذلك مع خاصة السلطان أبي سالم وكبار أهل مجلسه، حتى تم القصد من ذلك، وكتب لي الأمير أبو عبد اللّه بخطه عهدا بولاية الحجابة متى حصل على سلطانه، ومعنى الحجابة في دولنا بالمغرب الاستقلال بالدولة، والوساطة بين السلطان وبين أهل دولته، لا يشاركه في ذلك أحد.

وكان لي أخ اسمه يحيى، أصغر مني، فبعثته مع الأمير أبي عبد اللّه حافظاً للرسم، ورجعت مع السلطان إلى فاس.

ثم كان ما قدمته من إنصرافي إلى الأندلس والمقام بها إلى أن تنكر الوزير ابن الخطيب وأظلم الجو بيني وبينه.

وبينما نحن في ذلك، وصل الخبر باستيلاء الأمير أبي عبد اللّه على بجاية من يد عمه في رمضان سنة خمس وستين وسبعمائة وكتب الأمير أبو عبد اللّه يستقدمني، فاعتزمت على ذلك، ونكر السلطان أبو عبد اللّه بن الأحمر ذلك مني، لا يظنه لسوى ذلك، إذ لم يطلع على ما كان بيني وبين الوزير ابن الخطيب، فأمضيت العزم، ووقع منه الإسعاف والبر والألطاف.

وركبت البحر من ساحل المرية منتصف ست وستين وسبعمائة ونزلت بجاية لخامسة من الإقلاع، فاحتفل السلطان صاحب بجاية لقدومي، وأركب أهل دولته للقائي، وتهافت أهل البلد علي من كل أوب يمسحون أعطافي، ويقبلون يدي، وكان يوما مشهوداً.

ثم وصلت إلى السلطان فحيا وفدى، وخلع وحمل،

وأصبحت من الغد، وقد أمر السلطان أهل الدولة بمباكرة بابي، واستقلت بحمل ملكه، واستفرغت جهدي في سياسة أموره وتدبير سلطانه، وقدمني للخطابة بجامع القصبة وأنا مع ذلك، عاكف بعد انصرافي من تدبير الملك غدوة، إلى تدريس العلم أثناء النهار بجامع القصبة، لا أنفك عن ذلك.

ووجدت بينه وبين ابن عمه السلطان أبي العباس صاحب قسنطينة فتنة، أحدثتها المشاحة في حدود الأعمال من الرعايا والعمال، وشبّ نار هذه الفتنة عرب أوطانهم من الدواودة من رياح، تنفيقا لسوق الزبون يمترون به أموالهم، فكانوا في كل سنة يجمع بعضهم لبعض فالتقوا سنة ست وستين وسبعمائة بفرجيوه، وانقسم العرب عليهما، وكان يعقوب بن علي مع السلطان أبي العباس، فانهزم السلطان أبو عبد الله ورجع إلى بجاية مفلولاً بعد أن كنت جمعت له أموالاً كثيرة أنفق جميعها في العرب، ولما رجع وأعوزته النفقة، فخرجت بنفسي إلى قبائل البربر بجبال بجاية المتمنعين من المغارم منذ سنين، فدخلت بلادهم واستبحت حماهم، وأخذت رهنهم على الطاعة، حتى استوفيت منهم الجباية، وكان لنا في ذلك مدد وإعانة.

ثم بعث صاحب تلمسان إلى السلطان أبي عبد الله يطلب منه الصهر، فأسعفه بذلك ليصل يده به على ابن عمه، وزوجه ابنته، ثم نهض السلطان أبو العباس سنة سبع وستين وسبعمائة وجاس أوطان بجاية، وكاتب أهل البلد، وكانوا وجلين من السلطان أبي عبد الله بما كان يرهف الحد لهم، ويشد وطأته عليهم، فأجابوه إلى الانحراف عنه.

وخرج السلطان أبو عبد الله يروم مدافعته، ونزل جبل ليزو معتصماً به، فبيته السلطان أبو العباس في عساكره وجموع الأعراب من أولاد محمد بن رياح بمكانه ذلك، بإغراء ابن صخر وقبائل سدويكش، وكبسه في مخيمه وركض هارباً، فلحقه وقتله، وسار إلى البلد بمواعدة أهلها.

وجاءني الخبر بذلك، وأنا مقيم بقصبة السلطان وقصوره، وطلب مني جماعة من أهل البلد القيام بالأمر والبيعة لبعض من أبناء السلطان، فتفاديت من ذلك، وخرجت إلى السلطان أبي العباس فأكرمني وحباني، وأمكنته من بلده، وأجرى أحوالي كلها على معهودها.

وكثرت السعاية عنده في والتحذير من مكاني، وشعرت بذلك، فطلبت الإذن في الانصراف بعهد كان منه في ذلك، فأذن لي بعد لأي، وخرجت إلى العرب، ونزلت على يعقوب بن علي.

ثم بدا للسلطان في أمري، وقبض على أخي واعتقله ببونة، وكبس بيوتنا، يظن بها ذخيرة وأموالاً فأخفق ظنه.

ثم ارتحلت من أحياء يعقوب بن علي وقصدت بسكرة لصحابة بيني وبين شيخها أحمد بن يوسف بن مزني، وبين أبيه، وساهم في الحادث بماله وتجاهه.

مشايعة أبي حمو صاحب تلمسان

كان السلطان أبو حمو قد التحم ما بينه وبين السلطان أبي عبد الله صاحب بجاية بالصهر في ابنته، وكانت عنده بتلمسان.

فلما بلغه مقتل أبيها واستيلاء السلطان أبي العباس ابن عمه صاحب قسنطينة على بجاية، أظهر الامتعاض لذلك، وكان أهل بجاية قد توجسوا الخيفة من سلطانهم بإرهاف حده، وشدة سطوته فانحرفوا عنه باطناً وكاتبوا ابن عمه بقسنطينة كما ذكرناه.

ودسوا للسلطان أبي حمو بمثلها يرجون الخلاص من صاحبهم بأحدهما.

فلما استولى السلطان أبو العباس وقتل ابن عمه رأوا أن جرحهم قد اندمل، وحاجتهم قد قضيت، فاعصوصبوا عليه، وأظهر السلطان أبو حمو الامتعاض للواقعة يسر منها حسواً في ارتغاء، ويجعله ذريعة للاستيلاء على بجاية، بما كان يرى نفسه كفؤها بعده وعديده، وما سلف من قومه في حصارها، فسار من تلمسان بحر الشوك والمدر حتى خيم بالرشة من ساحتها، ومعه أحياء زغبة بجموعهم وظعائنهم من لدن تلمسان إلى بلاد حصين من بني عامر وبني يعقوب وسويد والدبالم والعطاف وحصين.

والمحجر أبو العباس بالبلد في شرذمة من الجند أعجله السلطان أبو حمو عن استيعاب الحشد، ودافع أهل البلد أحسن الدفاع، وبعث السلطان أبو العباس عن أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد عم أبي حمو من قسنطينة، كان معتقلاً بها، وأمر مولاه وقائد عسكره بشيراً أن يخرج معه في العساكر، وساروا حتى نزلوا بني عبد الجبار قبالة معسكر أبي حمو، وكانت رجالات زغبة قد وجموا من السلطان، وأبلغهم النذير أنه إن ملك بجاية اعتقلهم بها، فراسلوا أبا زيان وركبوا إليه، واعتقدوا معه وخرج رجل البلد بعض الأيام من أعلى الحصن، ودفعوا شرذمة كانت مجمرة إزائهم، فاقتلعوا خباءهم، وأسهلوا من تلك العقبة إلى بسيط الرشة، وعاينهم العرب بأقصى مكانهم من المعسكر فأجفلوا، وتتابع الناس في الإنجفال حتى أفردوا السلطان في مخيمه فحمل رواحله وسار، وغصت الطرق بزحامهم، وتراكموا بعضهم على

بعض، فهلك منهم عوالم.

وأخذهم سكان الجبال من البربر بالنهب من كل ناحية، وقد غشيهم الليل، فتركوا أزودتهم ورحالهم.

وخلص السلطان ومن خلص منهم بعد عصب الريق، وأصبحوا على منجاة.

وقذفت بهم الطرق من كل ناحية إلى تلمسان، وكان السلطان أبو حمو قد بلغه خروجي من بجاية، وما أحدثه السلطان بعدي في أخي وأهلي ومخلفي، فكتب إلي يستقدمني قبل هذه الواقعة، وكانت الأمور قد اشتبهت، فتفاديت بالأعذار، وأقمت بأحياء يعقوب بن علي.

ثم ارتحلت إلى بسكرة فأقمت بها عند أميرها أحمد بن يوسف بن مزني.

فلما وصل السلطان أبو حمو إلى تلمسان وقد جزع للواقعة، أخذ في استتلاف قبائل رياح ليجلب بهم مع عساكره على أوطان بجاية، وخاطبني في ذلك لقرب عهدي باستتباعهم، وملك زمامهم، ورأى أن يعول علي في ذلك، واستدعاني لحجابته وعلامته، وكتب بخطه مدرجة في الكتاب نصها:

«الحمد لله على ما أنعم، والشكر لله على ما وهب، ليعلم الفقيه المكرم أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون، حفظه الله، على أنك تصل إلى مقامنا الكريم لما أخصصناكم به من الرتبة المنيعة، والمنزلة المنيفة، وهو قلم خلافتنا، والانتظام في سلك أوليائنا، وقد أعلمناكم بذلك، وكتب بخط يده عبد الله المتوكل على الله، موسى بن يوسف لطف الله به وخار له.

وبعده بخط الكاتب ما نصه: بتاريخ السابع عشر من شهر رجب الفرد الذي من عام تسع وستين وسبعمائة، عرفنا الله خيره.

ونص الكتاب الذي هذه مدرجته، وهو بخط الكاتب: أكرمكم الله يا فقيه أبا زيد ووالى رعايتكم، إنا قد ثبت عندنا، وصح لدينا ما انطويتم عليه من المحبة في مقامنا، والانقطاع إلى جنابنا، والتشيع قديماً وحديثاً لنا، مع ما نعلمه من محاسن اشتملت عليها أوصافكم، ومعارف فقتم فيها نظراءكم، ورسوخ قدم في الفنون العلمية والآداب العربية.

وكانت خطة الحجابة ببابنا العلي -أسماه الله- أكبر درجات أمثالكم، وأرفع الخطط لنظرائكم، قرباً منا، واختصاصاً بمقامنا، واطلاعاً على خفايا أسرارنا، آثرناكم بها إيثاراً، وقدمناكم لها اصطفاء واختياراً، فاعملوا على الوصول إلى بابنا العلي أسماه الله لما لكم فيه من التنويه، والقدر النبيه، حاجبا لعلي بابنا، ومستودعاً لأسرارنا، وصاحبا الكريمه علامتنا، إلى ما يشاكل ذلك من الأنعام العميم، والخير الجسيم، والاعتناء والتكريم.

لا يشاركم مشارك في ذلك، ولا يزاحمكم أحد، وإن وجد من أمثالك فأعملوه وعولوا عليه، والله تعالى يتولاكم، ويصل سراءكم، ويوالي احتفاءكم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وتأدت إلي هذه الكتب السلطانية على يد سفير من وزرائه جاء إلى أشياخ الدواودة في هذا الغرض، فقمت له في ذلك أحسن قيام وشايعته أحسن مشايعة، وحملتهم على إجابة داعي السلطان والبدار إلى خدمته.

وانحرف كبراؤهم عن خدمة السلطان أبي العباس إلى خدمته، والاعتمال في مذاهبه، واستقام غرضه من ذلك، وكان أخي يحيى قد خلص من اعتقاله ببونه، وقدم علي ببسكرة، فبعثه إلى السلطان أبي حمو كالنائب عني في الوظيفة، متفادياً عن تجشم أهوالها بما كنت نزعت عن غواية الرتب.

وطال علي إغفال العلم، فأعرضت عن الخوض في أحوال الملوك، وبعثت الهمة على المطالعة والتدريس، فوصل إليه الأخ فاستكفى به في ذلك، ودفعه إليه.

ووصلني مع هذه الكتب السلطانية كتاب رسالة من الوزير أبي عبد الله بن الخطيب من غرناطة يتشوق إلي، وتأدى إلى تلمسان على يد سفراء السلطان ابن الأحمر، فبعث إلي به من هنالك ونصه:

بنفسي وما نفسي علي بهينة ... فتزلني عنها المكاس بأثمان

حبيب نأى عيني وصم لأنني ... وراش سهام البين عمداً فأصماني

وقد كان هم الشيب -لا كان- كافيا ... فقد أدنى لما ترحل همان

شرعت له من دمع عيني مواردا ... فكدر شربي بالفراق وأظماني

وأرعيته من حسن عهدي جميمه ... فأجدب آمالي وأوحش أزماني

حلفت على ما عنده لي من رضى ... قياساً بما عندي فأحنث أيماني

وإني على ما نالني منه من قلى ... لأشتاق من لقياه نغبة ظمآن

سألت جنوني فيه تقريب عرشه ... ففست بجن الشوق جن سليمان

إذا ما دعا داع من القوم باسمه ... وثبت وما استثبت شيمة هيمان

وتالله ما أصغيت فيه لعاذل ... تحاميته حتى ارعوى وتحاماني

ولا استشعرت نفسي برهة عابد ... تظلل يوماً مثله عبد رحمان

ولا شعرت من قبله بتشوق ... تخلل منها بين روح وجثمان

أما الشوق فحدث عن البحر ولا حرج، وأما الصبر فسأل

به أية درج، بعد لأن تجاوز اللوى والمنعرج، لكن الشدة تعشق الفرج، والمؤمن ينشق من روح اللّه الأرج، وإني بالصبر على إبر الدبر لا بل الضرب الهبر، ومطاولة اليوم والشهر، تحت حكم القهر، ومن للعين أن تسلو سلو المقصر عن إنسانها المبصر، أو تذهل ذهول الزاهد عن سرها الرائي والمشاهد، وفي الجسد مضغة يصلح إذا صلحت، فكيف حاله إن رحلت عنه وإن نزحت، وإذا كان الفراق هو الحمام الأول، فعلام المعول أعيت مراوضة الفراق عمل الراق، وكادت لوعة الاشتياق أن تفضي إلى السياق.

تركتموني بعد تشييعكم أوسع أمر الصبر عصيانا
أقرع سني ندماً تارة وأستميح الدمع أحيانا

وربما تعللت بغشيان المعاهد الخالية، وجددت رسوم الأسى بمباكرة الرسوم البالية، أسائل نون النؤى عن أهليه، وميم الموقد المهجور عن مصطليه، وثاء الأثافي المثلثة عن منازل الموحدين، وأحار وبين تلك الأطلال حيرة الملحدين، لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين، كلفت لعمر اللّه بسال عن جفوني المؤرقة، ونائم عن همومي، المتجمعة والمتفرقة، ظعن عن ملال، لا متبرماً منا بشر خلال.

وكدر الوصل بعد صفائه، وضرج النصل بعد عهد وفائه:

أقل اشتياقا أيها القلب إنما رأيتك تصفي الود من ليس جازيا

فها أنا أبكي عليه بدم أساله، وأندب في ربع الفراق آسى له، وأشكو إليه حال قلب صدعه، وأودعه من الوجد ما أودعه، لما خدعه، ثم قلاه وودعه، وأنشق ريّاه أنف ارتياح قد جدعه، واستعديه على ظلم ابتدعه.

خليلي فيما عشتما هل رأيتما قتيلاً بكى من حب قاتله قبلي

فلولا عسى الرجاء ولعله، لا بل شفاعة المحل الذي حله، لنشرت ألوية العتب وبثت كتائبها كمناء في شعاب الكتب، تهز من الألفات رماحاً خزر الأسنة وتوتر من النونات أمثال القسي المرنة، وتقود من مجموع الطرس والنقس بلقا تردي في الأعنة، ولكنه أوى إلى الحرم الأمين، وتفيأ ظلال الجوار المؤمن من معرة الغوار عن الشمال واليمين، حرم الحلال المزنية، والظلال اليزنية، والهمم السنية، والشيم التي لا ترضى بالدون ولا بالدنية، حيث الرفد الممنوح، والطير الميامن يزجر لها السنوح والمثوى الذي إليه مهما تقارع الكرام على الضيفان، حول جوابي الجفان، فهو الجنوح:

كتب كأن عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصباح عمودا

ومن حل بتلك المثابة فقد اطمأن جنبه، وتغمد بالعفو ذنبه، و لله در القائل:

فوحقّه لقد انتدبت لوصفه بالبخل لولا أن حمصاً داره
بلد متى أذكره تهتج لوعتي وإذا قدحت الزند طار شراره

اللّهم غفراً، وأين قراره النخيل، من مثوى الأقلف البخيل، ومكذبة المخيل، وأين ثانيه هجر، من متبوأ من ألحد وفجر:

من أنكر غيثاً منشؤه في الأرض ينوء بمخلفها
فبنان بني مزنى مزن تنهل بلطف مصرفها
مزن مذ حل ببسكرة يوما نطقت بمصحفها
شكرت حتى بعبارتها وبمعناها وبأحرفها
ضحكت بأبي العباس من الأ يام ثنايا زخرفها
وتنكرت الدنيا حتى عرفت منه بمعرفها

بل نقول: يا محل الولد ﴿لا أقسم بهذا البلد. وأنت حل بهذا البلد﴾ لقد حل بينك عرى الجلد، وخلد الشوق بعدك يا ابن خلدون في الصميم من الخلد، فحيا اللّه زماناً شفيت في قربك زمانته، واجتلت في صدف مجدك جمانته، وقضيت في مرعى خلتك لبانته، وأهلا بروض أظلت أشتات معارفك بانته، فحمائمه بعدك تندب فيساعدها الجندب، ونواسمه ترق فتتغاشى، وعشياته تتخافت وتتلاشى، وأدواحه في ارتباك، وحمائمه في مأتم ذي اشتباك، كأن لم تكن قمر هالات قبابه، ولم يكن أنسك شارع بابه، إلى صفوة الظرف ولبابه، ولم يسبح إنسان عينك في ماء شبابه، فلهفي عليك من درة اختلستها يد النوى، ومطل بردها الدهر ولوى، ونعق الغراب بينها في ربوع الهوى، ونطق بالزجر فما نطق عن الهوى، وبأي شيء يعتاض منك أيتها الرياض، بعد أن طما نهرك الفياض، وفهقت الحياض، ولا كان الشانىء المشنوء والجرب المهنوء من قطع ليل أغار على الصبح فاحتمل، وشارك في الذم الناقة والجمل، واستأثر جنحه ببدر النادي لما كمل، نشر الشراع فراع، وواصل الإسراع، فكأنما هو تمساح النيل ضايق الأحباب في البرهة، واختطف لهم من الشط نزهة العين، وعين النزهة، ولجج بها، والعيون تنظر، والغمر عن الاتباع يحظر، فلم يقدر إلا على الأسف، والتماح الأثر المتسف، والرجوع بملء العيبة من الخيبة، ووقر الجسرة من الحسرة، إنما نشكو إلى اللّه البث والحزن، ونستمطر من عبراتنا المزن، وبسيف الرجاء نصول، وإذا اشرعت لليأس أسنة ونصول:

ما أقدر اللّه أن يدني على شحط من داره الحزن ممن داره صول

فإن كان كلم الفراق رغيباً، لما نويت مغيباً، وجللت الوقت الهني تشغيباً، فلعل الملتقى يكون قريباً، وحديثه يروى صحيحاً غريباً.

إيه سيدي! كيف حال تلك الشمايل المزهرة الخمائل،

والشيم الهامية الديم؟ هل يمر ببالها من راعت بالبعد باله، وأخمدت بعاصف البين ذباله؟ أو ترثي لشئون شأنها سكب لا يفتر، وشوق يبت حبال الصبر ويبتر وضنى تقصر عن حلله الفاقعة صنعاء وتستر والأمر أعظم واللّه يستر، وما الذي يضيرك صين من لفح السموم نضيرك، بعد أن أضرمت وأشعلت وأوقدت، وجعلت، وفعلت فعلتك التي فعلت، إن تترفق بذماء، أو ترد بنغبة ماء، أرماق ظماء، وتتعاهد المعاهد بتحية يشم عليها شذا أنفاسك، أو تنظر إلينا -على البعد- بمقلة حوراء من بياض قرطاسك وسواد أنفاسك، فربما قنعت الأنفس المحبة بخيال زور، وتعللت بنوال منزور، ورضيت لما لم تصد العنقاء بزرزور:

يا من ترحل والرياح لأجله تشتاق إن هبت شذا رياها
تحيا النفوس إذا بعثت تحية وإذا عزمت أقرأ «ومن أحياها»

ولئن أحييت بها فيما سلف نفوساً تفديك، واللّه إلى الخير يهديك، فنحن نقول معشر مواديك «ثني ولا تجعليها بيضة لديك» وعذراً فإني لم أجترئ على خطابك بالفقر الفقيرة، وأدللت لدى حجراتك برفع العقيرة، عن نشاط بعثت مرسومه ولا اغتباط بالأدب تغري بسياسة سوسه، وانبساط أوحى إلي على الفترة ناموسه وإنما هو اتفاق جرته نفثة المصدور، وهناء الجرب المجدور، وإن تعلل به مخارق، فثم قياس فارق، أو لحن غنى به بعد البعد مخارق؛ والذي هيأ هذا القدر وسببه، وسهل المكروه إلي منه وحببه، ما اقتضاه الصنو يحيى، -مد اللّه حياته، وحرس من الحوادث ذاته- من خطاب ارتشف به لهذه القريحة بلالتها، بعد أن رضي علالتها، ورشح إلى الصهر الحضرمي سلالتها، فلم يسع إلا إسعافه، بما أعافه، فأمليت مجيباً ما لا يعد في يوم الرهان نجيباً، وأسمعته وجيبا لما ساجلت بهذه الترهات سحراً عجيباً، حتى إذا ألف القلم العريان سبحه، وجمح برذون الغزارة فلم أطق كبحه، لم أفق من غمرة غلوه وموقف متلوه، إلا وقد تحيز إلى فئتك معتزا بل معتراً، واستقبلها ضاحكاً مفترا، وهش لها براً، وإن كان من الخجل مصفراً، وليس بأول من هجر، في التماس والوصل ممن هجر، أو بعث التمر إلى هجر، وأي نسب بيني اليوم وبين زخرف الكلام، وإجالة جياد الأقلام، في محاورة الأعلام، بعد أن حال الجريض دون القريض، وشغل المريض عن التعريض، وغلب حتى الكسل، ونصلت الشعرات البيض كأنها الأسل، تروع برقط الحيات، سرب الحياة، وتطرق بذوات الغرر، والشباب عند البيات، والشيب الموت العاجل، وإذا ابيض زرع صبحته المناجل، والمعتبر الآجل، وإذا اشتغل الشيخ بغير معاده، حكم في الظاهر بإبعاده، وأسره في ملكة عاده، فأغض أبقاك اللّه، واسمح لمن قصر عن المطمح، وبالعين الكليلة فالمح، واغتنم لباس ثوب الثواب، واشف بعض الجوى بالجواب.

تولاك اللّه فيما استضفت وملكت، ولا بعدت ولا هلكت، وكان لك أية سلكت، ووسمك في السعادة بأوضح السمات، وأتاح لقاءك من قبل الممات، والسلام الكريم يعتمد حلال ولدي وساكن خلدي، بل أخي وإن اتقيت عتبه وسيدي، ورحمة اللّه وبركاته، من محبة المشتاق إليه محمد بن عبد اللّه بن الخطيب في الرابع عشر من شهر ربيع الثاني من عام سبعين وسبعمائة.

وكان تقدم منه قبل هذه الرسالة كتاب آخر إلي، بعث به إلى تلمسان فتأخر وصوله، حتى بعث به الأخ يحيى عند وفادته على السلطان، ونص الكتاب.

يا سيدي إجلالاً واعتداداً، وأخي وداً واعتقاداً، ومحل ولدي شفقة سكنت مني فؤاداً.

طال علي انقطاع أنبائك، واختفاء أخبارك، فرجوت أن تبلغ النية هذا المكتوب إليك، وتخترق به الموانع دونك، وإن كنت في مباثتك كالعاطش الذي لا يروى، والآكل الذي لا يشبع، شأن من تجاوز الحدود الطبيعية، والعوائد المألوفة، فأنا الآن -بعد إنهاء التحية المطلولة الروض بماء الدموع، وتقرير الشوق القديم اللزيم، وشكوى البعاد الأليم، وسؤال إناحة القرب قبل الفوت من اللّه ميسر العسير، ومقرب البعيد، أسأل عن أحوالك سؤال أبعد الناس محالاً في مجال الخلوص لك، وأشدهم حرصاً على اتصال سعادتك، وقد اتصل بي في هذه الأيام ما جرى به القدر من تنويع الحال لديك، واستقرارك ببسكرة محل الغبطة بك باللجا إلى تلك الرياسة الزكية، الكريمة الأب، الشهيرة الفضل، المعروفة القدر على البعد، حرسها اللّه ملجأ للفضلاء، ومخيماً لرجال العلياء، ومهبا لطيب الثناء، بحوله وقوته، وما كل وقت تتاح فيه السلامة فاحمدوا اللّه على الخلاص، وقاربوا في معاملة الآمال، وضنوا بتلك الذات الفاضلة عن المشاق، وأبخلوا بها عن المتالف، فمطلوب الحريص على الدنيا خسيس، والموانع الحافة جمة، والحاصل حسرة، وبأقل السعي تحصل حاله العافية، والعاقل لا يستنكحه الاستغراق فيما آخره الموت، إنما ينال منه الضروري، ومثلك لا يعجزه -مع التماس العافية- إضعاف ما يرجى به العمر من المأكل والمشرب، وحسبنا اللّه.

وإن تشوفت لحال المحب تلك السيادة الفذة والبنوة البرة، فالحال حال من جعل الزمام بيد القدر، والسير في مهيع الغفلة، والسبح في تيار الشواغل، ومن وراء الأمور غيب محجوب، وأجل

مكتوب، نؤمل فيه عادة الستر من اللّه، إلا أن الضجر الذي تعلمونه حفظه الناس لما عجزت الحيلة، وأعوز المناص وسدت المذاهب، والشأن اليوم شأن الناس فيما يقرب من الاعتدال.

وفيما يرجع إلى السلطان -تولاه اللّه- على أضعاف ما باشر سيدي من الأعباء في البر، ووصل سبب الالتحام والاشتمال مع الاسقلال وما ينتجه متعود الظهور، وا لحمد لله.

وفما يرجع إلى الأحباب والأولاد فعلى ما علمت إلا أن الشوق مخامر القلوب، وتصور اللقاء مما يزهد في الوطن، وحاضر النعم سنّى اللّه ذلك على أفضل حال، ويسره قبل الارتحال عن دار المحال.

وفيما يرجع إلى الوطن فأحلام النائم خصباً، وهدنة وظهوراً على العدو، وحسبك فافتتاح حصن آشر وبرغة القاطعة بين بلاد الإسلام، ووبذة والعارين وبيغه وحصن السهلة في عام.

ثم دخول بلد إطريرة بنت إشبيلية عنوة، والاستيلاء على ما يناهز خمسة آلاف من السبي ثم فتح دار الملك، ولدة قرطبة: ومدينة جيان عنوة في اليوم الأغر المحجل، وقتل المقاتلة، وسبي الذرية، وتعفية الآثار حتى لا يلم بها العمران، ثم افتتاح مدينة أبدة التي تلف جيان في ملاءتها، دار التجر، والرفاهية والبنى الحافلة، والنعم الثرة، نسأل اللّه -جل وعلا- أن يصل عوائد نصره، ولا يقطع عنا سبب رحمته، وأن ينفع بما أعان عليه من السعي في ذلك والإعانة عليه.

ولم يتزيد من الحوادث إلا ما علمتم من أخذ اللّه لنسمة السوء، وخبث الأرض، المسلوب من أثر الخير: عمر بن عبد اللّه، وتحكم شر الميتة في نفسه، وإتيان النكال على حاشيته، والاستئصال على ذاته، والاضطراب مستول على الوطن بعده، إلا أن الغرب على علاته لا يرجحه غيره.

والأندلس اليوم شيخ غزاتها عبد الرحمن بن علي ابن السلطان أبي علي، بعد وفاة الشيخ أبي الحسن: علي بن بدر الدين رحمه اللّه.

وقد استقر بها -بعد انصراف- سيدي الأمير المذكور، والوزير مسعود بن رحو، وعمر بن عثمان بن سليمان.

والسلطان ملك النصارى بطره قد عاد إلى ملكه بإشبيلية، وأخوه مجلب عليه بقشتالة وقرطبة مخالفة عليه، قائمة بطائفة من كبار النصارى الخائفين على أنفسهم، داعين لأخيه، والمسلمون قد اغتنموا هبوب هذه الريح.

وخرق اللّه لهم عوائد في باب الظهور والخير، لم تكن تخطر في الآمال.

وقد تلقب السلطان -أيده اللّه- بعقب هذه المكيفات «بالغني باللّه» وصدرت عنه مخاطبات بمجمل الفتوح ومفصلها يعظم الحرص على إيصالها إلى تلك الفضائل لو أمكن.

وأما ما يرجع إلى ما يتشوف إليه ذلك الكمال من شغل الوقت، فصدرت تقاييده، وتصانيف يقال فيها - بعد ما أعملته تلك السيادة من الانصراف - يا إبراهيم ولا إبراهيم اليوم.

منها: أن كتاباً رفع إلى السلطان في المحبة من تصنيف ابن أبي حجلة من المشارقة أشار الأصحاب بمعارضته فعارضته، وجعلت الموضوع أشرف، وهو محبة اللّه، فجاء كتاباً ادعى الأصحاب غرابته.

وقد وجه إلى المشرق وصحبة كتاب: «تاريخ غرناطة» وغيره من تآليفي.

وتعرف تحبيسه بخانقاه سعيد السعداء من مصر، وانثال الناس عليه، وهو في لطافة الأغراض، يتكلف أغراض المشارقة من ملحه:

سلمت لمصرفي الهوى من بلد يهديه هواؤه لدى استنشاقه
من ينكر دعواي فقل عني له تكفي امرأة العزيز من عشاقه؟

واللّه يرزق الإعانة في انتساخه وتوجيهه.

وصدر عني جزء سميته: (الغيرة على أهل الحيرة) وجزء سميته: «حمد الجمهور على السنن المشهور».

والإكباب على اختصار كتاب (التاج) للجوهري ورد حجمه إلى مقدار الخمس، مع حفظ ترتيبه السهل، واللّه المعين على مشغلة نقطع بها هذه البرهة القريبة البداءة من التتمة، ولا حول ولا قوة إلا باللّه.

والمطلوب المثابرة على تعريف يصل من تلك السيادة والبنوة، إذ لا يتعذر وجود قافل من حج، أو لاحق بتلمسان يبعثها السيد الشريف منها، فالنفس شديدة التعطش، والقلوب قد بلغت من - الشوق والاستطلاع - الحناجر.

واللّه أسأل أن يصون في البعد وديعتي منك لديه، ويلبسك العافية، ويخلصك وإياي من الورطة، ويحملنا أجمعين على الجادة.

ويختم لنا بالسعادة.

والسلام الكريم عوداً على بدء، ورحمة اللّه وبركاته من المحب المتشوق الذاكر الداعي ابن الخطيب، في الثاني من جمادى الأولى من عام تسعة وستين وسبعمائة انتهى.

فأجبته عن هذه المخاطبات، وتفاديت من السجع خشية القصور عن مساجلته فلم يكن شأوه يلحق.

ونص الجواب: سيدي مجداً وعلواً، وواحدي ذخراً مرجواً ومحل والدي براً وحنواً.

ما زال الشوق - مذ نأت بي وبك الدار، واستحكم بيننا البعاد - يرعى سمعي أنباءك، ويخيل إلي من أيدي الرياح تناول رسائلك، حتى ورد كتابك العزيز على استطلاع، وعهد غير مضاع وود ذي أجناس وأنواع، فنشر بقلبي ميت السلو وحشر أنواع المسرات، وقدح للقائك زناد الأمل، ومن والله أسأل الإمتاع بك قبل الفوت على ما يرضيك، ويسني أماني وأمانيك.

وحييته تحية الهائم، لمواقع الغمائم، والمدلج للصباح المتبلج، وأملّ على مقترح الأولياء خصوصا فيك، من اطمئنان الحال، وحسن القرار، وذهاب الهواجس، وسكون النفرة، وعموما في الدولة من رسوخ القدم، وهبوب ريح النصر، والظهور على عدو الله باسترجاع الحصون التي استنقذوها في اعتلال الدولة، وتخريب المعاقل التي هي قواعد النصرانية، غريبة لا تثبت إلا في الحلم وآية من آيات الله، وإن خبيئة هذا الفتح في طي العصور السالفة إلى هذه المدة الكريمة، لدليل على عناية الله بتلك الذات الشريفة، حين ظهرت على يدها خوارق العادة، وما تجدد آخر الأيام من معجزات الملة، وكمل فيها والحمد لله بحسن التدبير ويمن النقيبه، من حميد الأثر، وخالد الذكر، طراز في حلة الخلافة النصرية، وتاج في مفرق الوزارة.

كتبه الله لكم فيما يرضاه الله من عباده.

ووقفت عليه الأشراف من أهل هذا القطر المحروس، وأذعته في الملأ سروراً لعز الإسلام وإظهاراً للنعمة، واستطراداً لذكر الدولة المولوية بما تستحقه من طيب الثناء والتماس الدعاء، والحديث بنعمتها، والإشادة بفضلها على الدول السالفة والخالفة وتقدمها، فانشرحت الصدور حباء، وامتلأت القلوب إجلالاً وتعظيماً، وحسنت الآثار اعتقاداً ودعاء.

وكان كتاب سيدي لشرف تلك الدولة عنواناً، ولما عساه يستعجم من نعتي في مناقبها ترجمانا، زاده الله من فضله، وأمتع المسلمين ببقاءه وبثته شكوى الغريب من الشوق المزعج، والحيرة التي تكاد تذهب بالنفس أسفاً لتجافي عن مهاد الأمن والتقويض عن دار العزيز المولى المنعم، والسيد الكريم، والبلد الطيب، والإخوان البررة ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾، وإن تشوفت السيادة الكريمة إلى الحال، فعلى ما علمتم سيراً مع الأمل، ومغالبة للأيام على الحظ، وإقطاعاً للغفلة جانب العمر.

هل نافعي والجد في صبب مري مع الآمال في صعد

رجع الله بنا إليه، ولعل في عظتكم النافعة شفاء هذا الداء، العياء إن شاء الله، على أن لطف الله مصاحب وجوار هذه الرياسة المزنية، وحسبك بها علمية عصمة وافية، صرفت وجه القصد إلى ذخيرتي التي كنت أعتدها منهم كما علمتم، على حين تفاقم الخطب، وتلون الدهر، والإفلات من مظان النكبة، وقد رتعت حولها بعدما جرته الحادثة بمهلك السلطان المرحوم على يد ابن عمه، قريعه في الملك وقسيمه في النسب، والتياث الجاه، وتغير السلطان، واعتقال الأخ المخلف، واليأس منه لولا تكييف الله في نجائه، والعيث بعده في المنزل والولد، واغتصاب الضياع المقتناة من بقايا ما متعت به الدولة النصرية أبقاها الله من النعمة، فآوى إلى الوكر، وساهم في الحادث وأشرك في الجاه والمال، وأعان على نوائب الدهر وطلب الوتر حين رأى الدهر قلاني وأمل الملوك استخلاصي، وتجاوروا في إتحافي والله المخلص من عقال الآمال، والمرشد إلى نبذ هذه الحظوظ المورطة.

وأنبأني سيدي بما صدر عنه من التصانيف الغريبة والرسائل البليغة في هذه الفتوحات الجليلة، وبودي لو وقع الإتحاف بها أو بعضها، فلقد عاودني الندم على ما فرطت.

وأما أخبار هذا القطر فلا زيادة على ما علمتم من استقرار السلطان أبي إسحاق ابن السلطان أبي يحيى بتونس مستبداً بأمره بالحضرة بعد مهلك شيخ الموحدين أبي محمد بن تافراكين القائم بأمره، رحمة الله عليه مضايقاً في جباية الوطن وأحكامه بالعرب، المستظهرين بدعوته، مصانعا لهم بوفرة على أمان الرعايا والسابلة.

لو أمكن حسن السياسة جهد الوقت، ومن انتظام بجاية محل دولتنا في أمر صاحب قسنطينة وبونة غلاباً كما علمتم، محملا الدولة بصرامته وقوة شكيمته فوق طوقها، من الاستبداد والضرب على أيدي المستغلين من الأعراب، منتقض الطاعة أكثر أوقاته لذلك إلا ما شمل البلاد من تغلب العرب ونقص الأرض من الأطراف والوسط، وخمود ذبال الدول في كل جهة وكل بداية فإلى تمام.

وأما أخبار المغرب الأقصى والأدنى فلديكم طلعه.

وأما المشرق فأخبار الحاج هذه السنة من اختلاله، وانتقاض سلطانه، وانتزاء الجفاة على كرسيه، وفساد المصانع والسقايات المعدة لوفد الله وحاج بيته، ما يسخن العين ويطيل البث، حتى زعموا أن الهيعة اتصلت بالقاهرة أياماً.

وكثر الهرج في أزقتها وأسواقها لما وقع بين أسندمر المتغلب بعد يلبغا الخاصكي، وبين سلطانه ظاهر القلعة، من الجولة التي كانت دائرتها عليه، أجلت عن زهاء الخمسمائة قتلى، من حاشيته، وموالي يلبغا، وتقبض على الباقين، فأودع منهم السجون، وصلب الكثير، وقتل أسندمر في محبسه، وألقى زمام الدولة بيد كبير من موالي السلطان فقام بها مستبداً وقادها مستقلاً، وبيد اللّه تصاريف الأمور ومظاهر الغيوب جل وعلا.

ورغبتي من سيدي أبقاه اللّه أن لا يغب خطابه عني متى أمكن، يصل بذلك منته الجمة، وأن يقبل عني أقدام تلك الذات المولوية، ويعرفه بما عندي من التشيع لسلطانه، والشكر لنعمته، وأن ينهي عني لحاشيته وأهل اختصاصه التحية المختلسة من أنفاس الرياض، كبيرهم وصغيرهم.

وقد تأدى مني إلى حضرته الكريمة خطاب على يد الحاج نافع سلمه اللّه تناوله من الأخ يحيى عند لقائه إياه بتلمسان بحضرة السلطان أبي حمو أيده اللّه، فربما يصل وسيدي يوضح من ثنائي ودعائي ما عجز عنه الكتاب، واللّه يبقيكم ذخراً للمسلمين وملاذاً للآملين بفضله، والسلام عليكم، وعلى من لاذ بكم من السادة الأولاد المناجيب، والأهل والحاشية والأصحاب، من المحب فيكم المعتد بكم شيعة فضلكم ابن خلدون ورحمة اللّه وبركاته.

عنوانه سيدي وعمادي ورب الصنائع والأيادي والفضائل الكريمة الخواتم والمبادي إمام الأمة، علم الأئمة، تاج الملة فخر العلماء الجلة عماد الإسلام، مصطفى الملوك الكرام، نكتة الدول، كافل الإمامة، تاج الدول أثير اللّه، ولي أمير المسلمين، الغني باللّه أيده اللّه، الوزير أبو عبد اللّه بن الخطيب أبقاه اللّه، وتولى عن المسلمين جزاه.

وكتب إلي من غرناطة: يا سيدي ووليي وأخي ومحل ولدي! كان اللّه لكم حيث كنتم ولا أعدمكم لطفه وعنايته، لو كان مستقركم بحيث يتأتى اليه ترديد رسول، واو إيفاد متطلع أو توجيه نائب، لرجعت على نفسي باللائمة في إغفال حقكم، ولكن العذر ما علمتم، واحمدوا اللّه على الاستقرار في كنف ذلك الفاضل الذي وسعكم كنفه، وشملكم فضله، شكر ا لله حسبه الذي لم يخلف وشهرته التي لم تكدر.

وإني اغتنمت سفر هذا الشيخ وافد الحرمين بمجموع الفتوح في إيصال كتابي هذا، وبودي لو وقفتم على ما لديه من البضاعة التي أنتم رأسها وصدرها، فيكون لكم في ذلك بعض أنس، وربما تأدى ذلك في بعضه مما لم يختم عليه وظواهر الأمور نحيل عليه في تعريفكم بها، وأما البواطن فمما لا تتأتى كثرة وجامة، وأخص بالصاد ما أظن تشوفكم إليه حالي، فاعلموا أني قد بلغ بي الماء الزبى واستولى علي سوء المزاج المنحرف، وتوالت الأمراض، وأعوز العلاج لبقاء السبب، والعجز عن دفعه، وهي هذه المداخلة جعل اللّه عاقبتها إلى خير، ولم أترك وجها من وجوه الحيلة إلا بذلته، فما أغنى ذلك عني شيئاً، ولولا أني بعدكم شغلت الفكر بهذا التأليف مع الزهد، وبعد العهد، وعدم الإلماع بمطالعة الكتب، لم يتمش حالي من طريق فساد الفكر إلى هذا الحد، وآخر ما صدر عني كناش سميته باستنزال اللطف الموجود في أسر الوجود.

أمليته في هذه الأيام التي أقيم فيها رسم النيابة عن السلطان في سفره إلى الجهاد بودي لو وقفتم عليه، وعلى كتابي في المحبة، وعسى اللّه أن ييسر ذلك.

ومع هذا كله واللّه ما قصرت في الحرص على إيصال مكتوب إليكم إما من جهة أخيكم أو من جهة السيد الشريف أبي عبد اللّه، حتى من المغرب إذا سمعت الركب متوجهاً منه، فلا أدري هل بلغكم شيء من ذلك أم لا، والأحوال كلها على ما تركتموها عليه، وأحبابكم بخير على ما علمتم من الشوق والتشوف، والارتماض لمفارقتكم، ولا حول ولا قوة إلا باللّه.

واللّه يحفظكم ويكون لكم، ويتولى أموركم، والسلام عليكم ورحمة اللّه.

من المحب الواحش الشيخ ابن الخطيب في غرة ربيع الثاني من عام إحدى وسبعين وسبعمائة.

وبباطنه مدرجة نصها:

سيدي رضي اللّه عنكم استقر بتلمسان في سبيل تقلب ومطاوعة مزاج تعرفونه صاحبنا المقدم في صنعة الطب أبو عبد اللّه الشقوري.

فإذا اتصل بكم فأعينوه على ما يقف عليه اختياره، وهذا لا يحتاج معه إلى مثلكم.

عنوانه سيدي ومحل أخي الفقيه الجليل الصدر الكبير المعظم الرئيس الحاجب العالم الفاضل الوزير ابن خلدون.

وصل اللّه سعده وحرس مجده بمنه.

وإنما طولت بذكر هذه المخاطبات، وإن كانت فيما يظهر خارجة عن غرض الكتاب لأن فيها كثيراً من أخباري وشرح حالي فيستوفي ذلك منها ما يتشوف إليه من المطالعين للكتاب.

ثم إن السلطان أبا حمو لم يزل معتملاً في الإجلاب على بجاية واستلاف قبائل رياح لذلك، ومعولاً علي مشايعتي فيه، ووصل يده مع ذلك بالسلطان أبي إسحاق ابن السلطان أبي بكر صاحب تونس من بني أبي حفص، لما كان بينه وبين أبي العباس صاحب بجاية وقسنطينة وهو ابن اخيه من العداوة التي تقتضيها مقاسمة النسب والملك، فكان يوفد رسله عليه في كل وقت، ويمرون بي وأنا ببسكرة.

فأكد الوصلة بمخاطبة كل منهما، وكان أبو زيان ابن عم السلطان أبي حمو بعد إجفاله عن بجاية واختلال معسكره قد سار في أثره إلى تلمسان، وأجلب على نواحيها فلم يظفر بشيء، وعاد إلى بلاد حصين فأقام بينهم، واشتملوا عليه، ونجم النفاق في سائر أعمال المغرب الأوسط واختلف أحياء زغبة على السلطان، وانتبذ الكثير عنه إلى القفر.

ولم يزل يستألفهم حتى اجتمع له الكثير منهم، فخرج في عساكره منتصف تسع وستين وسبعمائة إلى حصين وأبي زيان، واعتصموا بجبل تيطرى، وبعث إلي في استنفار الدواودة للأخذ بحجزتهم من جهة الصحراء، وكتب يستدعي أشياخهم يعقوب بن علي كبير أولاد محمد، وعثمان بن يوسف كبير أولاد سباع بن يحيى.

وكتب إلى ابن مزني قعيدة وطنهم بإمدادهم في ذلك، فأمدهم، وسرنا مغربين إليه حتى نزلنا القطفا قبلة تيطرى، وقد أحاط السلطان به من جهة التل، على أنه إذا فرغ من شأنهم سار معنا إلى بجاية، وبلغ الخبر إلى صاحب بجاية أبي العباس فعسكر بمن استألف من بقي من قبائل رياح، وعسكر بطرف ثنية القصاب المفضية إلى المسيلة.

وبينما نحن على ذلك اجتمع المخالفون من زغبة، وهم خالد بن عامر كبير بني عامر، وأولاد عريف كبراء سويد، ونهضوا إلينا بمكاننا من القطفا، فأجفلت أحياء الدواودة، وتأخرنا إلى المسيلة.

ثم إلى الزاب، وسارت زغبة إلى تيطرى واجتمعوا مع أبي زيان وحصين وهجموا على معسكر أبي حمو ففلوه ورجع منهزماً إلى تلمسان.

ولم يزل من بعد ذلك على استلاف زغبه ورياح يؤمل الظفر بوطنه وابن عمه، والكرة على بجاية عاماً فعاماً، وأنا على حالي في مشايعته، وايلاف ما بينه وبين الدواودة، والسلطان أبي إسحاق صاحب تونس وابنه خالد من بعده.

ثم دخلت زغبة في طاعته واجتمعوا على خدمته ونهض من تلمسان لشفاء نفسه من حصين وبجاية، وذلك في أخريات إحدى وسبعين وسبعمائة فوفدت عليه بطائفة من الدواودة أولاد عثمان بن يوسف بن سليمان لنشارف أحواله، ونطالعه بما يرسم لهم في خدمته، فلقيناه بالبطحاء، وضرب لنا موعداً بالجزائر، انصرف به العرب إلى أهليهم، وتخلفت بعدهم لقضاء بعض الأغراض واللحاق بهم، وصليت به عيد الفطر على البطحاء، وخطبت به وأنشدته عند انصرافه من المصلى تهنئة بالعيد وغرضه:

هذي الديار فحيهن صباحا ... وقف المطايا بينهن طلاحا
لا تسأل الأطلال إن لم تروها ... عبرات عينك واكفاً ممتاحا
فلقد أخذن على جفونك موثقاً ... أن لا يرين مع البعاد شحاحا
إيه عن الحي الجميع وربما ... طرب الفؤاد لذكرهم فارتاحا
ومنازل للظاعنين استعجمت ... حزناً وكانت بالسرور فصاحا

وهي طويلة، ولم يبق في حفظي منها إلا هذا.

وبينما نحن في ذلك بلغ الخبر بأن السلطان عبد العزيز صاحب المغرب الأقصى من بني مرين قد استولى على جبل عامر بن محمد الهنتاتي بمراكش، وكان أخذ بمخنقه منذ حول، وساقه إلى فاس، فقتله بالعذاب، وأنه عازم على النهوض إلى تلمسان لما سلف من السلطان أبي حمو أثناء حصار السلطان عبد العزيز لعامر في جبلة، من الإجلاب على ثغور المغرب، ولحين وصول هذا الخبر، أضرب السلطان أبو حمو على ذلك الشأن الذي كان فيه، وكر راجعا إلى تلمسان.

وأخذ في أسباب الخروج إلى الصحراء مع شيعة بني عامر من أحياء زغبة، فاستألف وجمع وشد الرحال وقضى عيد الأضحى، وطلبت منه الإذن في الانصراف إلى الأندلس لتعذر الوجهة إلى بلاد رياح، وقد أظلم الجو بالفتنة، وانقطعت السبل، فأذن لي وحملني رسالة فيما بينه وبين السلطان ابن الأحمر.

وانصرفت إلى المرسى بهنين، وجاءه الخبر بنزول صاحب المغرب تازا في عساكره، فأجفل بعدي من تلمسان ذاهباً إلى الصحراء على طريق البطحاء.

وتعذر علي ركوب البحر من هنين فأقصرت، وتأدى الخبر إلى السلطان عبد العزيز بأني مقيم بهنين، وأن معي وديعة احتملتها إلى صاحب الأندلس، تخيل ذلك بعض الغواة، وكتب إلى السلطان عبد العزيز فأنفذ من وقته سرية من تازا تعترضني لاسترجاع تلك الوديعة، واستمر هو إلى تلمسان، ووافتني السرية

بهنين وكشفوا الخبر، فلم يقفوا على صحته، وحملوني إلى السلطان فلقيته قريباً من تلمسان، واستكشفني عن ذلك الخبر فأعلمته بيقينه، وعنفني على مفارقة دارهم، فاعتذرت له بما كان من عمر بن عبد الله المستبد عليهم، وشهد لي كبير مجلسه، وولي أبيه وابن وليه ونزمار بن عريف، ووزيره عمر بن مسعود بن منديل بن حمامة، واحتفت الألطاف، وسألني في ذلك المجلس عن أمر بجاية، وأفهمني أنه يروم تملكها، فهونت عليه السبيل إلى ذلك فسر به، وأقمت تلك الليلة في الاعتقال، ثم أطلقني من الغد فعمدت إلى رباط الشيخ الولي أبي مدين ونزلت بجواره مؤثراً للتخلي والانقطاع للعلم، لو تركت له.

مشايعة السلطان عبد العزيز صاحب المغرب على بني عبد الواد

ولما دخل السلطان عبد العزيز إلى تلمسان واستولى عليها، وبلغ خبره إلى أبي حمو وهو بالبطحاء، فأجفل من هنالك، وخرج في قومه وشيعته من بني عامر ذاهباً، إلى بلاد رياح، فسرح السلطان وزيره أبا بكر بن غازي في العساكر لاتباعه.

وجمع عليه أحياء زغبة والمعقل باستئلاف وليه ونزمار وتدبيره.

ثم أعمل السلطان نظره ورأى أن يقدمني أمامه إلى بلاد رياح لأوطد أمره، وأحملهم على مناصرته وشفاء نفسه من عدوه بما كان السلطان أيس من استتباع رياح وتصريفهم فيما يريده من مذاهب الطاعة، فاستدعاني من خلوتي بالعباد عند رباط الولي أبي مدين.

وأنا قد أخذت في تدريس العلم واعتزمت على الانقطاع، فآنسني وقربني، ودعاني لما ذهب إليه من ذلك، فلم يسعني إلا إجابته، وخلع علي وحملني، وكتب إلى شيوخ الدواودة بامتثال أمري وما ألقيه إليهم من أوامره، وكتب إلى يعقوب بن علي وابن مزني بمساعدتي على ذلك، وأن يحاولوا على استخلاص أبي حمو من بين أحياء بني عامر، ويحولوه إلى حي يعقوب بن علي، فودعته وانصرفت في عاشوراء سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة فلحقت الوزير في عساكره وأحياء العرب من المعقل وزغبة على البطحاء، ولقيته ودفعت إليه كتاب السلطان، وتقدمت أمامه وشيعني ونزمار يومئذ وأوصاني بأخيه محمد، وقد كان أبو حمو قبض عليه عندما أحس منهم بالخلاف، وأنهم يرومون الرحلة إلى المغرب.

وأخرجه معه من تلمسان مقيداً واحتمله في معسكره، فأكد على ونزمار يومئذ في المحاولة على استخلاصه بما أمكن، وبعث معي ابن أخيه عيسى في جماعة من سويد يبذرق بي ويتقدم إلى أحياء حصين بإخراج أبي زيان من بينهم، فسرنا جميعاً وانتهينا إلى أحياء حصين وأخبرهم فرح بن عيسى بوصية عمه ونزمار إليهم فنبذوا إلى أبي زيان عهده، وبعثوا معه منهم من أوصله إلى بلاد رياح.

ونزل على أولاد يحيى بن علي بن سباع، وتوغلوا به في القفر، واستمريت أنا ذاهباً إلى بلاد رياح، فلما انتهيت إلى المسيلة ألفيت السلطان أبا حمو وأحياء رياح معسكرين قريباً منها في وطن أولاد سباع بن يحيى من الدواودة، وقد تسايلوا إليه، وبذل فيهم العطاء ليجتمعوا إليه، فلما سمعوا بمكاني بالمسيلة، جاؤوا إلي فحملتم على طاعة السلطان عبد العزيز، وأوفدت أعيانهم وشيوخهم على الوزير أبي بكر بن غازي، فلقوه ببلاد الديالم عند نهر واصل، فأتوه طاعتهم، ودعوه إلى دخول بلادهم في اتباع عدوه، ونهض معهم.

وتقدمت أنا من المسيلة إلى بسكرة، فلقيت بها يعقوب بن علي، واتفق هو وابن مزني على طاعة السلطان، وبعث ابنه محمداً للقاء أبي حمو، وأمير بني عامر خالد بن عامر يدعوهم إلى نزول وطنه، والبعد به عن بلاد السلطان عبد العزيز، فوجده متدلياً من المسيلة إلى الصحراء.

ولقيه على الدوسن وبات ليلته يعرض عليهم التحول من وطن أولاد بني سباع إلى وطنهم بشرقي الزاب.

وأصبح يومه كذلك، فما راعهم آخر النهار إلا انتشار العجاج خارجاً إليهم من أفواه الثنية، فركبوا يستشرفون، وإذا بهوادي الخيل طالعة من الثنية، وعساكر بني مرين والمعقل وزغبة متتالية أمام الوزير أبي بكر بن غازي قد دل بهم الطريق وفد أولاد سباع الذين بعثتهم من المسيلة، فلما أشرفوا على المخيم أغاروا عليه مع غروب الشمس، فأجفل بنو عامر وانتهب مخيم السلطان أبي حمو ورحائله وأمواله.

ونجا بنفسه تحت الليل، وتمزق شمل ولده وحرمه حتى خلصوا إليه بعد أيام، واجتمعوا بقصور مصاب من بلاد الصحراء وامتلأت أيدي العساكر والعرب من نهابهم، وانطلق محمد بن عريف في تلك الهيعة وأطلق الموكلون به وجاء إلى الوزير وأخيه ونزمار وتلقوه بما يجب له، وأقام الوزير أبو بكر بن غازي بالدوسن أياماً أراح فيها.

وبعث إليه ابن مزنى بطاعته وأرغد له من الزاد والعلوفة، وارتحل راجعاً إلى المغرب، وتخلفت بعده أياماً عند أهلي ببسكرة، ثم ارتحلت إلى السلطان في وفد عظيم من الدواودة، يقدمهم أبو دينار أخو يعقوب بن علي وجماعة من أعيانهم.

فسابقنا الوزير إلى تلمسان وقدمنا على السلطان فوسعنا من حبائه وتكرمته، ونزله ما بعد العهد بمثله.

ثم جاء من بعدنا الوزير أبو بكر بن غازي على الصحراء بعد أن مر بقصور بني عامر هنالك، فخربها وكان يوم قدومه على السلطان يوماً مشهوداً، وأذن بعدها لوفود الدواودة بالانصراف إلى بلادهم.

وقد كان ينتظر بهم قدوم الوزير ووليه ونزمار بن عريف، فودعوه وبالغ في الإحسان إليهم وانصرفوا إلى بلادهم.

ثم أعمل نظره في إخراج أبي زيان من بين أحياء الدواودة لما خشي من رجوعه إلى حصين، فوامرني في ذلك، وأطلقني إليهم في محاولة انصرافه عنهم، فانطلقت لذلك.

وكان أحياء حصين قد توجسوا الخيفة من السلطان، وتنكروا له، وانصرفوا إلى أهلهم بعد مرجعهم من غزاتهم مع الوزير، وبادروا باستدعاء أبي زيان من مكانه عند أولاد يحيى بن علي، وأنزلوه بينهم، واشتملوا عليه، وعادوا إلى الخلاف الذي كانوا عليه أيام أبي حمو واشتعل المغرب الأوسط ناراً.

ونجم صبي من بيت الملك في مغراوة وهو حمزة بن علي بن راشد، فر من معسكر الوزير ابن غازي أيام مقامه عليها، فاستولى على شلف وبلاد قومه، وبعث السلطان وزيره عمر بن مسعود في العساكر لمنازلته، وأعيا داؤه وانقطعت أنا ببسكرة، وحال ذلك ما بيني وبين السلطان إلا بالكتاب والرسالة.

وبلغني في تلك الأيام وأنا ببسكرة مفر الوزير ابن الخطيب من الأندلس وقدومه على السلطان بتلمسان حين توجس الخيفة من سلطانه، بما كان له من الاستبداد عليه، وكثرة السعاية من البطانة فيه، فأعمل الرحلة إلى الثغور المغربية لمطالعتها بإذن سلطانه، فلما حاذى جبل الفتح قبل الفرضة دخل إلى الجبل وبيده عهد السلطان عبد العزيز إلى القائد هنالك بقبوله.

وأجاز البحر من حينه إلى سبتة، وسار إلى السلطان بتلمسان، وقدم عليهما في يوم مشهود، وتلقاه السلطان من الحظوة والتقريب وإدرار النعم بما لا يعهد مثله.

وكتب إلي من تلمسان يعرفني بخبره، ويلم ببعض العتاب على ما بلغه من حديثي الأول بالأندلس، ولم يحضرني الآن كتابه فكان جوابي عنه ما نصه:

الحمد لله ولا قوة إلا بالله، ولا راد لما قضاه الله.

يا سيدي ونعم الذخر الأبدي، والعروة الوثقى التي اعتقلتها يدي أسلم عليك سلام القدوم على المخدوم، والخضوع للملك المتبوع، لا! بل أحييكم تحية المشوق للمعشوق، والمدلج للصباح المتبلج، وأقرر ما أنتم أعلم بصحيح عقدي فيه من حبي لكم، ومعرفتي بمقداركم، وذهابي إلى أبعد الغايات في تعظيمكم، والثناء عليكم، والإشادة في الانفاق بمناقبكم ديدناً معروفاً، وسجية راسخة يعلم الله وكفى بالله شهيداً.

وبهذا كما في علمكم قسماً ما اختلف لي فيه أولاً وأخراً، ولا شاهداً ولا غائباً، وأنتم أعلم بما في نفسه وأكبر شهادة في خفايا ضميري، ولو كنت ذاك فقد سلف من حقوقكم، وجميل أخذكم، واجتلاب الحظ لو هيأه القدر، لمساعيكم وإيثاري بالمكان من سلطانكم ودولتكم، ما يستلين معاطف القلوب، ويستل سخائم الهواجس، فأنا أحاشيكم من استشعار نبوة أو إحقاق ظن، ولو تعلق بقلب ساق حر ذرء وذره فحاش لله أن يقدح في الخلوص لكم، أو يرجح سوابقكم، إنما هو خبيئة الفؤاد إلى الحشر أو اللقاء.

وو الله وجميع ما يقسم به، ما اطلع على مستكنه مني غير صديقي، وصديقكم الملابس، كان لي ولكم، الحكيم الفاضل العلم أبي عبد الله الشقوري أعزه الله، نفثة مصدور، ومباثة خلوص، إذ أنا أعلم الناس بمكانه منكم، وقد علم ما كان مني حين مفارقة صاحب تلمسان واضمحلال أمره من إجماع الأمر على الرحلة إليكم، والخفوف إلى حاضرة البحر للإجازة إلى عدوتكم تعرضت فيها للتهم، ووقفت بمجال الظنون، حتى تورطت في الهلكة بما ارتفع عني مما لم آته، ولا طويت العقد عليه، لولا حلم مولانا الخليفة وحسن رأيه في وثبات بصيرته، لكنت في الهالكين الأولين، كل ذلك شوقاً إلى لقائكم، وتمثلاً لأنسكم، فلا تظنوا بي الظنون، ولا تصدقوا فيّ التوهمات، فأنا من عملتم صداقة وسذاجة وخلوصاً، واتفاق ظاهر وباطن، أثبت الناس عهداً وأحفظهم غيباً، وأعرفهم بوزن الإخوان، ومزايا الفضلاء، ولأمر ما تأخر كتابي من تلمسان، فإني كنت أستشعر ممن استضافني ريباً بخطاب سواه، خصوصاً جهتكم، لقديم ما بين الدولتين من الاتحاد والمظاهرة، واتصال اليد مع أن الرسول تردد إلي وأعلمني اهتمامكم واهتمام السلطان تولاه الله باستكشاف ما انبهم من حالي، فلم أترك شيئاً مما أعلم تشوقكم إليه إلا وكشفت له قناعه، وأمنته على بلاغه، ولم أزل بعد انتياش مولانا الخليفة لدمائي وجذبه بضبعي، سابحاً

في تيار الشواغل كما علمتم القاطعة حتى عن الفكر.

وسقطت إلي بمحل خدمتي من هذه القاصية، أخبار خلوصكم إلى المغرب قبل وصول راجلي إلى الحضرة، غير جليه ولا ملتئمة، ولم يتعين ملقي العصى، ولا مستقر النوى، فأرجيت الخطاب إلى استجلائها، وأفدت في كتابكم العزيز علي الجاري على سنن الفضل، ومذاهب المجد، غريب ما كيفه القدر من تنويع الحال لديكم، وعجبت من تأتي أملكم الشارد فيه كما كنا نستبعده عند المفاوضة، فحمدت الله لكم على الخلاص من ورطة الدول على أحسن الوجوه، وأجمل المخارج الحميدة العواقب في الدنيا والدين، العائدة بحسن المآل في المخلف: من أهل وولد ومتاع وأثر بعد أن رضتم جموح الأيام وتوقلتم قلل العز وقدتم الدنيا بمذافيرها وأخذتم بآفاق السماء على أهلها.

وهنيئاً فقد نالت نفسكم التواقة أبعد أمانيها، ثم تاقت إلى ما عند الله، وأشهد لما ألهمتم للإعراض عن الدنيا، ونزع اليد من حطامها عند الإصحاب والإقبال، ونهى الآمال إلا جذباً وعناية من الله وحباً، وإذا أراد الله أمراً يسر أسبابه.

واتصل بي ما كان من تحفي المثابة المولوية بكم واهتزاز الدولة لقدومكم، ومثل تلك الخلافة، أيدها الله من يثابر على المفاخر، ويستأثر بالأخاير، وليت ذلك عند إقبالكم على الحظ، وأنسكم باجتلاب الآمال، حتى يحسن المتاع بكم ويتجمل السرير الملوكي بمكانكم، فالظن إن هذا الباعث الذي هزم الآمال ونبذ الحظوظ، وهون المفارق العزيز يسومكم الفرار إلى الله حتى يأخذ بيدكم إلى فضاء المجاهدة، ويستوي بكم على جودي الرياضة، والله يهدي للتي هي أقوم.

وكأني بالأقدام بتلت والبصائر بإلهام الحق صقلت والمقامات خلفت، بعد أن استقبلت، والعرفان شيمة أنسواره وبوارقه، والوصول انكشفت حقائقه لما ارتفعت عوائقه.

وأما حالي والظن بكم الاهتمام بها، والبحث عنها فغير خفية بالباب المولوي أعلاه الله، ومظهرها في طاعته، ومصدرها عن أمره، وتصاريفها في خدمته، والزعم أني قمت المقام المحمود في التشيع والانحياش، واستمالة الكافة إلى المناصحة، ومخالطة القلوب للولاية، وما يتشوفه مجدكم، ويتطلع إليه فضلكم، واهتمامكم من خاصتها في النفس والولد، فجهينة خبره مؤدي كتابي إليكم، ناشيء تأدبي وثمرة تربيتي، فسهلوا له الإذن، وألينوا له جانب النجوى حتى يؤدي ما عندي وما عندكم، وخذوه بأعقاب الأحاديث أن يقف عند مبادئها، وائتمنوه على ما تحدثون، فليس بظنين على السر.

وتشوفي بما يرجع به إليكم سيدي وصديقي وصديقكم المغرب في المجد والفضل، المساهم في الشدائد، كبير المغرب، وظهير الدولة، أبو يحيى بن أبي مدين، - كان الله له - في شأن الولد والمخلف تشوف الصديق لكم، الضنين على الأيام بقلامة الظفر من ذات يدكم، فأطلعوني طلع ذلك، ولا يهمكم فالفراق الواقع حسن، والسلطان كبير، والأثر جميل، والعدو الساعي قليل وحقير، والنية صالحة، والعمل خالص، ومن كان لله كان الله له.

واستطلاع الرياسة المزنية الكافلة - كافأ الله يدها البيضاء - عني وعنكم إلى مثله من أحوالكم استطلاع من يسترجح وزانكم، ويشكر الزمان على ولاوه بمثلكم.

وقد قررت من لعلومه من مناقبكم، وبعد شأوكم وغريب منحاكم، ما شهدت به آثاركم الشائعة الخالدة في الرسائل، المتأدية على ألسنة الصادر والوارد من الكافة، من حمل الدولة، واستقامة السياسة، ووقفته على سلامكم، وهو يراجعكم بالتحية، ويساهمكم بالدعاء.

وسلامي على سيدي، وفلذة كبدي ومحل ولدي، الفقيه الزكي الصدر أبي الحسن نجلكم، أعزه الله وقد وقع مني موقع البشرى حلوله من الدولة بالمكان العزيز والرتبة النابهة، والله يلحفكم جميعاً رداء العافية، والستر ويمهد لكم محل الغبطة والأمن، ويحفظ عليكم ما أسبغ من نعمته، ويجريكم على عوائد لطفه وعنايته، والسلام الكريم يخصكم من المحب الشاكر الداعي الشائق شيعة فضلكم، عبد الرحمن بن خلدون ورحمة الله وبركاته.

في يوم الفطر عام اثنين وسبعين وسبعمائة.

وكان بعث إلي مع كتابه نسخة كتابه إلى سلطانه ابن الأحمر، صاحب الأندلس عندما دخل جبل الفتح، وصار إلى إيالة بني مرين، فخاطبه من هنالك بهذا الكتاب، فرأيت أن أثبته هنا، وإن لم يكن من غرض التأليف لغرابته، ونهايته في الجودة، وإن مثله لا يهمل من مثل هذا الكتاب، مع ما فيه من زيادة الاطلاع على أخبار الدول في تفاصيل أحوالها ونص الكتاب:

بانوا فمن كان باكيا يبكي هذي ركاب السرى بلا شك
فمن ظهور الركاب معملة إلى بطون الربى إلى الفلك
تصدع الشمل مثلما انحدرت إلى صبوب جواهر السلك
من النوى قبل لم أزل حذراً هذا النوى جل مالك الملك

مولاي كان الله لكم، وتولى أمركم.

أسلم عليكم سلام الوداع، وأدعو الله في تيسر اللقاء

والاجتماع، بعد التفرق والانصداع، وأقرر لديكم أن الإنسان أسير الأقدار، مسلوب الاختيار، متقلب في حكم الخواطر والأفكار، وأن لا بد لكل أول من آخر، وأن التفرق لما لزم كل اثنين بموت أو في حياة، ولم يكن منه بد، كان خير أنواعه الواقعة بين الأحباب، ما وقع على الوجوه الجميلة البريئة من الشرور.

ويعلم مولاي حال عبده منذ وصل إليكم من المغرب بولدكم، ومقامه لديكم بحال قلق، ولولا تعليلكم ووعدكم وارتقاب اللطائف في تقليب قلبكم، وقطع مراحل الأيام حريصاً على استكمال سنكم، ونهوض ولدكم واضطلاعكم بأمركم، وتمكن هدنة وطنكم، وما تحمل في ذلك من ترك غرضه لغرضكم، وما استقر بيده من عهودكم، وأن العبد الآن لما تسبب لكم في الهدنة من بعد الظهور والعز، ونجح السعي وتأتى لسنين كثيرة الصلح، ومن بعد أن لم يبق لكم بالأندلس مشغب من القرابة، وتحرك لمطالعة الثغور الغربية، وقرب من فرضة المجاز واتصال الأرض ببلاد المشرق، طرقته الأفكار وزعزعت صبره رياح الخواطر، وتذكر أشراف العمر على التمام، وعواقب الاستعراق، وسيرة الفضلاء عند شمول البياض، فغلبته حال شديدة هزمت التعشق بالشمل الجميع، والوطن المليح، والجاه الكبير، والسلطان القليل النظير، وعمل بمقتضى قوله: «موتوا قبل أن تموتوا» فإن صحت الحال المرجو من إمداد الله، تنقلت الأقدام إلى أمام، وقوي التعلق بعروة الله الوثقى، وإن وقع العجز، وافتضح العزم، فالله يعاملنا بلطفه، وهذا المرتكب مرام صعب، لكن سهله علي أمور: منها أن الانصراف لما لم يكن منه بد، لم يتعين على غير هذه الصورة، إذ كان عندكم من باب المحال، ومنها أن مولاي لو سمح لي بغرض الانصراف لم تكن لي قدرة على موقف وداعه، لا والله! ولكان الموت أسبق إلي، وكفى بهذه الوسيلة الحسنة - التي يعرفها - وسيلة.

ومنها حرصي على أن يظهر صدق دعواي فيما كنت أهتف به، وأظن أني لا أصدق.

ومنها اغتنام المفارقة في زمن الأمان والهدنة الطويلة والاستغناء إذا كان الانصراف المفروض ضروريا قبيحاً في غير هذه الحال.

ومنها - وهو أقوى الأعذار - أني مهما لم أطق تمام هذا الأمر أو ضاق ذرعي به، لعجز أو مرض أو خوف طريق، أو نفاد زاد أو شوق غالب، رجعت رجوع الأب الشفيق إلى الولد البر الرضي، إذ لم أخلف ورائي مانعاً من الرجوع من قول قبيح أو فعل، بل خلفت الوسائل المرعية، والآثار الخالدة، والسير الجميلة، وانصرفت بقصد شريف فقت به أشياخي وكبار وطني وأهل طوري، وتركتكم على أتم ما أرضاه، مثنياً عليكم داعياً لكم، وإن فسح الله في الأمد، وقضى الحاجة، فأملي العودة إلى ولدي وتربتي، وإن قطع الأجل فأرجو أن أكون ممن وقع أجره على الله.

فإن كان تصرفي صواباً وجارياً على السداد، فلا يلام من أصاب، وإن كان عن حمق، وفساد عقل، فلا يلام من اختل عقله، وفسد مزاجه، بل يعذر ويشفق عليه، ويرحم، وإن لم يعط مولاي أمري حقه من العدل، وجلبت الذنوب، وحشرت بعدي العيوب، فحياؤه وتناصفه ينكر ذلك، ويستحضر الحسنات من التربية والتعليم وخدمة السلف، وتخليد الآثار وتسمية الولد وتلقيب السلطان، والإرشاد إلى الأعمال الصالحة، والمداخلة والملابسة، لم يتخلل ذلك قط خيانة في مال ولا سر، ولا غش في تدبير ولا تعلق به عار، ولا كدره نقص، ولا حمل عليه خوف منكم، ولا طمع فيما بيدكم، فإن لم تكن هذه دواعي الرعي والوصلة والإبقاء، ففيم تكون بين بني آدم؟

وأنا قد رحلت فلا أوصيكم بمال، فهو عندي أهون متروك، ولا بولد فهم رجالكم، وخدامكم، وممن يحرص مثلكم على الاستكثار منهم، ولا بعيال، فهي من مربيات بيتكم، وخواص داركم، إنما أوصيكم بحظي العزيز، كان علي بوطنكم، وهو أنتم، فأنا أوصيكم بكم، فارعوني فيكم خاصة.

أوصيكم بتقوى الله والعمل لغد، وقبض عنان اللهو في موطن الجد، والحياء من الله الذي محص وأقال، وأعاد النعمة بعد زوالها ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، وأطلب منكم عوض ما وفرته عليكم من زاد طريق ومكافأة وإعانة، زاداً سهلاً عليكم، وهو أن تقولوا لي: غفر الله لك ما ضيعت من حقي خطأ أو عمداً، وإذا فعلتم ذلك فقد رضيت.

وأعلموا أيضا على جهة النصيحة أن ابن الخطيب مشهور في كل قطر، وعند كل ملك، واعتقاده وبره والسؤال عنه وذكره بالجميل، والأذن في زيارته نجابة منكم وسعه ذرع، ودهاء، فإنما كان ابن الخطيب بوطنكم سحابة رحمة نزلت، ثم أقشعت وتركت الأزاهر تفوح والمحاسن تلوح، ومثاله معكم مثل المرضعة، أرضعت السياسة، والتدبير الميمون، ثم رقدتكم في مهد الصلح والأمان، وغطتكم بقناع العافية، وانصرفت إلى الحمام تغسل اللبن والوضر، وتعود فإن وجدت الرضيع نائماً فحسن، أو قد انتبه فلم تتركه إلا في حد الفطام.

وتختم لكم هذه الغزارة بالحلف الأكيد أني ما تركت لكم

وجه نصيحة في دين ولا في دنيا إلا وقد وفيتها لكم، ولا فارقتكم إلا عن عجز، ومن ظن خلاف هذا فقد ظلمني وظلمكم، واللّه يرشدكم ويتولى أمركم، ونقول: خاطركم في ركوب البحر.

انتهت نسخة الكتاب وفي طيها هذه الأبيات:

صاب مزن الدموع من جفن صبك عندما استروح الصبا من مهبك
كيف يسلو يا جنني عنك قلب وقد كان قبل الوجود جن بحبك
ثم قل كيف كان بعد انتشاء الـ ـروح من أنسك الشهي وقربك
لم يدع بيتك المنيع حماه لسواه إلا إلى بيت ربك
أول عذري الرضى فما جئت بدعاً دمت والفضل والرضا من دأبك
وإذا ما ادعيت كرباً لفقدي أين كربي ووحشتي من كربك
ولدي في ذراك وكري في دو حك لحدي وتربتي في تربك
يا زماناً أغرى الفراق بشملي ليتني أهبتي أخذت لحربك
أركبتني صروفك الصعب حتى جئت بالبين وهو أصعب صعبك

وكتب آخر النسخة يخاطبني:

هذا ما تيسر، واللّه ولي الخيرة لي ولكم من هذا الخباط الذي لا نسبة بينه وبين أولي الكمال، ردنا اللّه إليه، وأخلص توكلنا عليه، وصرف الرغبة إلى ما لديه.

وفي طي النسخة مدرجة نصها:

رضي اللّه عن سيادتكم، أونسكم بما صدر مني أثناء هذا الواقع، مما استحضره الولد في الوقت، وهو يسلم عليكم بما يجب لكم، وقد حصل من حظوة هذا المقام الكريم على حظ وافر، وأجزل إحسانه ونوه بجرايته، وأثبت الفرسان خلفه، والحمد لله انتهى.

ثم اتصل مقامي ببسكرة والمغرب الأوسط، مضطرب بالفتنة المانعة من الاتصال بالسلطان عبد العزيز وحمزة بن علي بن راشد ببلاد مغراوة والوزير عمر بن مسعود في العساكر يحاصره، بحصن تاجحمومت وأبو زيان العبد الوادي ببلاد حصين وهم مشتملون عليه وقائمون بدعوته.

ثم سخط السلطان وزيره عمر بن مسعود ونكر منه تقصيره في أمر حمزة وأصحابه، فاستدعاه إلى تلمسان وقبض عليه، وبعث به إلى فاس معتقلاً، فحبس هناك، وجهز العساكر مع الوزير ابي بكر بن غازي، فنهض إليه، وحاصره ففر من الحصن ولحق بمليانة مجتازاً عليها، فأنذر به عاملها فتقبض عليه، وسيق إلى الوزير في جماعة من أصحابه، فضرب أعناقهم، وصلبهم عظة ومزدجراً لأهل الفتنة.

ثم أوعز السلطان الى الوزير بالمسير إلى حصين وأبي زيان، فسار في العسكر واستنفر أحياء العرب من زغبة فأوعبهم ونهض إلى حصين فامتنعوا بجبل تطرى، ونزل الوزير بعساكره ومن معه من أحياء زغبة على جبل تيطرى من جهة التل، فأخذ بمخنقهم، وكاتب السلطان أشياخ الدواودة من رياح بالمسير إلى حصار تيطرى من جهة القبلة.

وكاتب أحمد بن مزني صاحب بسكرة بإمدادهم بأعطياتهم، وكتب إلي يأمرني بالمسير بهم لذلك، فاجتمعوا علي، وسرت بهم أول سنة أربع وسبعين وسبعمائة حتى نزلنا بالقطفة، ووفدت في جماعة منهم على الوزير بمكانه من حصار تيطرى، فحد لهم حدود الخدمة، وشارطهم على الجزاء.

ورجعت إلى أحيائهم بالقطفة، فاشتدوا في حصار الجبل وألجأوهم بسوامهم وظهرهم إلى قنته، فهلك لهم الخف والحافر، وضاق ذرعهم بالحصار من كل جانب، وراسل بعضهم في الطاعة خفية فارتاب بعضهم من بعض وانفضوا ليلاً من الجبل، وأبو زيان معهم ذاهبين إلى الصحراء، واستولى الوزير على الجبل بما فيه من مخلفهم، ولما بلغوا مأمنهم من القفر نبذوا إلى أبي زيان عهده، فلحق بجبال غمرة، ووفد أعيانهم على السلطان عبد العزيز بتلمسان، وفاؤوا إلى طاعته فتقبل فيئتهم، وأعادهم إلى أوطانهم، وتقدم الى الوزير - عن أمر السلطان - بالمسير مع أولاد يحيى بن علي بن سباع للقبض على أبي زيان في جبل غمرة، وفاء بحق الطاعة لأن غمرة من رعاياهم، فمضينا لذلك، فلم نجده عندهم، وأخبرونا أنه ارتحل عنهم إلى بلد وإن كلا من مدن الصحراء، فنزل على صاحبها أبي بكر بن سليمان، فانصرفنا من هنالك، ومضى أولاد يحيى بن علي إلى أحيائهم، ورجعت أنا إلى أهلي ببسكرة، وخاطبت السلطان بما وقع في ذلك، وأقمت منتظراً أوامره حتى جاءني استدعاؤه إلى حضرته فارتحلت إليه.

فضل الوزير ابن الخطيب

وكان الوزير ابن الخطيب آية من آيات اللّه في النظم والنثر، والمعارف والأدب، لا يساجل مداه، ولا يهتدى فيها بمثل هداه.

فمما كتب عن سلطانه إلى سلطان تونس جواباً عن كتاب وصل إليه مصحوباً بهدية من الخيل والرقيق، فراجعهم عنه بما نصه إلى آخره:

الخلافة التي ارتفع في عقائد فضلها الأصيل القواعد الخلاف، واستقلت مباني فخرها الشائع، وعزها الذائع، على ما أسسه الأسلاف ووجب لحقها الجازم، وفرضها اللازم الاعتراف،

ووسعت الآملين لها الجوانب الرحيبة والأكناف فامتزاجنا بعلائها المنيف، وولائها الشريف، كما امتزج الماء والسلاف، وثناؤنا على مجدها الكريم، وفضلها العميم، كما تأرجت الرياض الأفواف، لما زارها الغمام الوكاف، ودعاؤنا بطول بقائها، واتصال علائها، يسمو به إلى قرع أبواب السموات العلا الاستشراف، وحرصنا على توفية حقوقها العظيمة، وفواضلها العميمة، لا تحصره الحدود، ولا تدركه الأوصاف، وإن عذر في التقصير عن نيل ذلك المرام الكبير الحق والإنصاف، خلافة وجهة تعظيمنا إذ توجهت الوجوه ومن نؤثره إذا أهمنا ما نرجوه، ونفديه ونبديه إذا استمنح المحقوب واستدفع المكروه السلطان الكذا بن أبي إسحاق بن السلطان الكذا، أبي يحيى بن أبي بكر بن السلطان الكذا، أبي زكرياء بن السلطان الكذا، أبي إسحاق ابن الأمير الكذا، أبي زكرياء ابن الشيخ الكذا، أبي محمد بن عبد الواحد بن أبي حفص، أبقاه الله ومقامه مقام إبراهيم رزقاً وأماناً.

لا يخص جلب الثمرات إليه وقتاً ولا يعين زماناً، وكان على من يتخطف الناس من حوله مؤيداً بالله معاناً.

معظم قدره العالي على الأقدار، ومقابل داعي حقه بالابتدار، المثنى على معاليه المخلدة الآثار، في اصونة، النظام والنثار، ثناء الروضة المعطار، على الأمطار، الداعي إلى الله بطول بقائه في عصمة منسدلة الأستار، وعزة ثابتة المركز مستقيمة المدار، وأن يختم له بعد بلوغ غايات الحال، ونهاية الأعمال، بالزلفى وعقبي الدار.

عبد الله الغني بالله أمير المسلمين، محمد بن مولانا أمير المسلمين، أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر.

سلام كريم كما حملت أحاديث الأزهار نسمات الأسحار، وروت ثغور الأقاحي والبهار، عن مسلسلات الأنهار، وتجلى على منصة الاشتهار، وجه عروس النهار يخص خلافتكم الكريمة النجار، العزيزة الجار ورحمة الله وبركاته.

أما بعد أحمد الله الذي أخفى حكمته البالغة عن أذهان البشر، فعجزت عن قياسها، وجعل الأرواح اجناداً مجندة كما ورد في الخبر. تحن إلى أجناسها، منجد هذه الملة من أوليائه الجلة بمن يروض الآمال بعد شماسها، ويسر الأغراض قبل التماسها، ويعنى بتجديد المودات في ذاته وابتغاء مرضاته على حين أخلاق لباسها الملك الحق، واصل الأسباب بحوله، بعد انتكاث أمراسها ومغني النفوس بطوله، بعد إفلاسها حمداً يدر أخلاف النعم بعد إيباسها، وينشر رمم الأموال من أرماسها، ويقدس النفوس بصفات ملائكة السموات بعد إبلاسها.

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله سراج الهداية ونبراسها عند اقتناء الأنوار واقتباسها، مطهر الأرض من أوضارها وأدناسها، ومصطفى الله من بين ناسها، وسيد الرسل الكرام ما بين شيثها وإلياسها، الآتي مهيمناً على آثارها، في حين فترتها ومن بعد نصرتها واستيئاسها، مرغم الضراغم في أخياسها، بعد افترارها وافتراسها، ومعفر أجرام الأصنام ومصمت أجراسها.

والرضا عن آله وأصحابه وعترته وأحزابه، حماة شرعته البيضاء وحراسها، وملقحي غراسها، ليوث الوغى عند احتدام مراسها، ورهبان الدجى تتكفل مناجاة السميع العليم، في وحشة الليل البهيم بإيناسها، وتفاوح نسيم الأسحار، عند الاستغفار، بطيب أنفاسها.

والدعاء لخلافتكم العلية المستنصرية بالصنائع التي تشعشع أيدي العزة القعساء من أكواسها، ولا زالت العصمة الأهية كفيلة باحترامها واحتراسها، وأنباء الفتوح، المؤيدة بالملائكة والروح، ريحان جلاسها وآيات المفاخر التي ترك الأول للآخر، مكتبة الأسطار بأطراسها وميادين الوجود مجالاً لجياد جودها وباسها، والعز والعدل منسوبين لفسطاطها وقسطاسها، وصفيحة النصر العزيز تقبض كفها، المؤيدة بالله، على رياسها، عند اهتياج أضدادها، وشره أنكاسها، لانتهاب البلاد وانتهاسها وهبوب رياح رياحها وتمرد مرداسها.

فإنا كتبناه إليكم كتب الله لكم من كتائب نصره أمداداً تذعن أعناق الأنام لطاعة ملككم المنصور الأعلام، عند إحساسها، وآتاكم من آيات العنايات، آية تضرب الصخرة الصماء، ممن عصاها بعصاها، فتبادر بانبجاسها، من حمراء غرناطة، حرسها الله، وأيام الإسلام، بعناية الملك العلام تحتفل وفود الملائكة الكرام، لولائمها وأعراسها، وطواعين الطعان، في عدو الدين المعان، تجدد عهدها بعام عمواسها.

والحمد لله حمداً معاداً يقيد شوارد النعم، ويستدر مواهب الجود والكرم ويؤمن من انتكاث الجدود وانتكاسها، ولي الآمال ومكاسها وخلافتكم هي المثابة التي يزهى الوجود بمحاسن مجدها، زهو الرياض بوردها وآسها، وتستمد أضواء الفضائل من مقباسها، وتروي رواة الإفادة، والإجادة غريب الوجادة، عن ضحاكها وعباسها.

وإلى هذا أعلى الله معارج قدركم، وقد فعل، وأنطق بحجج فخركم من احتفى وانتعل، فإنه وصلنا كتابكم الذي حسبناه، على

صنائع اللّه لنا، تميمة لا تقلع بعدها عين، وجعلناه على حلل مواهبه قلادة لا يحتاج معها زين، ودعوناه من جيب الكنانة آية بيضاء الكتابة، لم يبق معها شك ولا مين، وقرأنا منه وثيقة ود هضم فيها عن غريم الزمان دين، ورأينا منه إنشاء، خدم اليراع بين يديه وشّاءً، واحتزم بهميان عقدته مشاءة، وسئل عن معانيه الاختراع فقال: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾، فأهلا به من عربي أبي يصف السانح والبانة، ويبين فيحسن الإبانة، أدى الأمانة، وسئل عن حيه فانتمى إلى كنانة، وأفصح وهو لا ينبس، وتهللت قسماته وليل جبره يعبس وكأن خاتمه المقفل على صوانه، المتحف بباكر الورد في غير أوانه، رعف من مسك عنوانه اللّه من قلم ديج تلك الحلل، ونقع بمجاج الدواة المستمدة من عين الحياة الغلل فلقد تخارق في الجود، مقتدياً بالخلافة التي خلد فخرها في الوجود، فجاد بسر البيان ولبابه، وسمح في سبيل الكرم حتى بماء شبابه، وجمع لفرط بشاشته وفهامته، بعد شهادة السيف بشهامته، فمشى من الترحيب، في الطرس الرحيب، على أم هامته.

وأكرم به من حكيم، أفصح بملغوز الإكسير، في اللفظ اليسير، وشرح بلسان الخبير، سر صناعة التدبير، كأنما خدم الملكة الساحرة بتلك البلاد، قبل اشتجار الجلاد، فآثرته بالطارف من سحرها والتلاد، أو عثر بالمعلقة، وتيك القديمة المطلقة، بدفية دار، أو كنز تحت جدار، أو ظفر لباني الحنايا، قبل أن تقطع به عن أمانيه المنايا، ببديعة، أو خلف جرجير الروم، قبل منازلة القروم، على وديعة، أو أسلمه ابن أبي سرح، في نشب للفتح وسرح، أو حتم له روح بن حاتم ببلوغ المطلب، أو غلب الحظوظ بخدمة آل الأغلب، أو خصه زيادة اللّه بمزيد، أو شارك الشيعة في أمر أبي يزيد، أو سار على منهاج، في مناصحة بني صنهاج، وفضح بتخليد أمداحهم كل هاج.

وأعجب به، وقد عزز منه مثنى البيان بثالث، فجلب سحر الأسماع، واسترقاق الطباع، بين مثان للإبداع ومثالث، كيف اقتدر على هذا المجيد، وناصح مع التثليث مقام التوحيد، نستغفر اللّه ولي العون، على الصمت والصون، فالقلم هو الموحد قبل الكون، والمتصف من صفات السادة، أولي العبادة، بضمور الجسم وصفرة اللون، إنما هي كرامة فاروقية، وأثارة من حديث سارية وبقية، سفر وجهها في الأعقاب، بعد طول الانتقاب، وتداول الأحقاب، ولسان مناب، عن كريم جناب، وإصابة السهم لسواه محسوبة، وإلى الرامي الذي سدده منسوبة، ولا تنكر على الغمام بارقة، ولا على المتحققين بمقام التوحيد كرامة خارقة، فما شاءه الفضل من غرائب بر وجد، ومحاريب خلق كريم ركع الشكر فيها وسجد، حديقة بيان استثارت نواسم الإبداع من مهبها، واستزارت غمائم الطباع من مصبها، فآتت أكلها مرتين بإذن ربها.

لا بل كتيبة عز طاعنت بقنا الألفات سطورها، فلا يرومها النقد ولا يطورها، ونزعت عن قسي النونات خطوطها، واصطفت من بياض الطرس، وسواد النقس، بلق تحوطها.

فما كأس المدير، على الغدير، بين الخورنق والسدير، تقامر بنرد الحباب، عقول ذوي الألباب، وتغرق كسرى في العباب، وتهدي، وهي الشمطاء نشاط الشباب، وقد أسرج ابن سريج والجم، وأفصح الغريض بعد ما جمجم، وأعرب التاي الأعجم، ووقع معبد بالقضيب، وشرعت في حساب العقد بنان الكف الخضيب، وكأن الأنامل فوق مثالث العود ومثانيه، وعند إغراء الثقيل بثانيه، وإجابة صدى الغناء بين مغانيه، المراود تشرع في الوشي، أو العناكب تسرع في المشي، وما المخبر بنيل الرغائب، أو قدوم الحبيب الغائب.

لا بل إشارة البشير، بكم المشير، على العشير، بأجلب للسرور، من زائره المتلقى بالبرور، وأدعى للحبور، من سفيره المبهج السفور، فلم نر مثله من كتيبة كتاب تجنب الجرد، تمرح في الأرسان، وتتشوف مجالي ظهورها إلى عرائس الفرسان، وتهز معاطف الارتياح، من صهيلها الصراح، بالنغمات الحسان، إذا أوجست الصريخ نازعت أفناء الأعنة، وكاثرت بأسنة آذانها مشرعة الأسنة، فإن ادعى الظليم أشكالها فهو ظالم، أو نازعها الظبي هواديها وأكفالها فهو هاذ أو حالم، وإن سئل الأصمعي عن عيوب الغرر والأوضاح، قال مشيراً إلى وجوهها الصباح:

"جلدة بين العين والأنف سالم"

من كل عبل الشوى، مسابق للنجم إذا هوى، سامي التليل، عريض ما تحت الشليل، ممسوحة أعطافه بمنديل النسيم البليل.

من أحمر كالمدام، تجلى على الندام، عقب الفدام، أتحف لونه بالورد، في زمن البرد، وحيي أفق محياه بكوكب السعد، وتشوف الواصفون إلى عد محاسنه فأعيت على العد، بحر يساجل البحر عند المد، وريح تباري الريح عند الشد، بالذراع الأشد، حكم له مدير فلك الكفل باعتدال فصل القد، وميزه قدره المميز عند الاستباق، بقصب السباق، عند اعتبار الحد، وولد مختط غرته أشكال الجمال، على الكمال، بين البياض والحمرة ونقاء الخد، وحفظ الخلق الوجيه، عن جده الوجيه، ولا تنكر الرواية على الحافظ ابن الجد.

وأشقر، أبي الخلق، والوجه الطلق أن يحقر، كأنما صيغ من العسجد، وطرف بالدر وأنعل بالزبرجد، ووسم في الحديث بسمة

اليمن والبركة، واختص بفلج الخصام، عند اشتجار المعركة، وانفرد بمضاعف السهام، المنكسرة على الهام، في الفرائض المشتركة، واتصف فلك كفله بحركتي الإرادة والطبع من أصناف الحركة، أصغى إلى السماء بأذن ملهم، وأغرى لسان الصهيل عند التباس معاني الهمز والتسهيل ببيان المبهم، وفتنت العيون من ذهب جسمه، ولجين نجمه، بالدينار والدرهم، فإن انقض فرجم، أو ريح لها حجم، و إن اعترض فشفق لاح به للنجم نجم.

وأصفر قيد الأوابد الحرة، وأمسك المحاسن وأطلق الغرة، وسئل من أنت في قواد الكتائب، وأولي الأخبار العجائب؟ فقال: أنا المهلب بن أبي صفرة، نرجس هذه الألوان، في رياض الأكوان، تحشى به وجوه الحرب العوان، أغار بنخوة الصائل، على معصفرات الأصائل، فارتداها، وعمد إلى خيوط شعاع الشمس، عند جانحة الأمس، فألحم منها حلته وأسداها، واستعدت عليه تلك المحاسن فما أعداها، فهو أصيل تمسك بذيل الليل عرفه وذيله، وكوكب يطلعه من القتام ليله، فيحسده فرقد الأفق وسهيله.

وأشهب تغشى من لونه مفاضة، وتسربل منه لامةً فضفاضة، قد احتفل زينه، لما رقم بالنبال لجينه، فهو الأشمط، الذي حقه لا يغمط، والدارع المسارع، والأعزل الذارع، وراقي الهضاب الفارع، ومكتوب الكتيبة البارع.

وأكرم به من مرتاض سالك، ومجتهد على غايات السابقين الأولين متهالك، وأشهب يروي من الخليفة، ذي الشيم المنيفة، عن مالك.

وحبارى كلما سابق وبارى، استعار جناح الحبارى، فإذا أعملت الحسبة، قيل من هنا جاءت النسبة، طرد النمر، لما عظم أمره وأمر، فنسخ وجوده بعدمه، وابتزه الفروة ملطخة بدمه، وكأن مضاعف الورد نثر عليه من طبقه، أو الفلك، لما ذهب الحلك، مزج فيه بياض صبحه بحمرة شفقه.وقرطاسي حقه لا يجهل، متى ما ترقى العين فيه تسفل، إن نزع عنه جله، فهو نجم كله، انفرد بمادة الألوان، قبل أن تشوبها يد الأكوان، أو تمزجها أقلام الملوان، يتقدم الكتيبة منه لواء ناصع، أو أبيض مناصع، لبس وقار المشيب، في ريعان العمر القشيب، وأنصتت الآذان من صهيلة المطيل المطيب، لما ارتدى بالبياض إلى نغمة الخطيب، وإن تعتب منه للتأخير متعتب، قلنا: الواو لا ترتب، ما بين فحل وحرة، وبهرمانة ودرة، ويا لله من ابتسام غرة، ووضوح يمن في طرة، وبهجة للعين وقرة، وإن ولع الناس بامتداح القديم، وخصوا الحديث بفري الأديم، أوجب المتعصب، وإن أبى المنصب، مرتبة التقديم، وطمح إلى رتبة المخدوم طرف الخديم، وقورن المثري بالعديم، وبخس في سوق الكسد الكيل، ودجا الليل، وظهر في فلك الأنصاف الميل، لما تذوكرت الخيل، فجيء بالوجيه والخطار، والذائد وذي الخمار وداحس والسكب، والأبجر وزاد الركب، والجموح واليحموم، والكميت ومكتوم، والأعوج وحلوان، ولاحق والغضبان، وعفرز والزعفران والمحبر واللعاب، والأغر والغراب، وشعلة والعقاب، والفياض واليعبوب، والمذهب واليعسوب، والصموت والقطيب، وهيدب والصبيب، وأهلوب وهداج، والحرون وخراج، وعلوى والجناح، والأحوى ومجاح، والعصا والنعامة، والبلقاء والحمامة، وسكاب والجرادة، وخوصاء والعرادة، فكم بين الشاهد والغائب، والفروض والرغائب، وفرق ما بين الأثر والعيان، غني عن البيان، وشتان بين الصريح والمشتبه، و لله در القائل:

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به

والناسخ يختلف به الحكم، وشر الدواب عند التفضيل بين هذه الدواب الصم البكم إلا ما ركبه نبي، أو كان له يوم الافتخار وبرهان خفي ومفضل ما سمع على ما رأى غبي، فلو أنصفت محاسنها التي وصفت، لأقضمت حب القلوب علفاً، وأوردت ماء الشبيبة نطفاً، واتخذت لها من عذر الخدود الملاح عذر موشية، وعللت بصفير الحان القيان كل عشية، وأنعلت بالأهلة، وغطيت بالرياض بدل الأجلة إلى الرقيق، الخليق بالحسن الحقيق، يسوقه إلى مثوى الرعاية روقه الفتيان رعاته، ويهدي عقيقها من سبجه أشكالاً تشهد للمخترع سبحانه بإحكام مخترعاته، وقفت ناظر الاستحسان لا يريم، لما بهره منظرها الوسيم، وتخامل الظليم، وتضاؤل الريم وأخرس مفوه اللسان، وهو بملكات البيان، الحفيظ العليم، وناب لسان الحال، عن لسان المقال، عند الاعتقال، فقال يخاطب المقام الذي أطلعت أزهارها غمائم جوده، واقتضت اختيارها بركات وجوده: لو علمنا أيها الملك الأصيل، الذي كرم منه الأجمال والتفصيل، أن الثناء يوازيها، لكلنا لك بكيلك، أو الشكر يعادلها ويجازيها، لتعرضنا بالوشل إلى نيل نيلك، أو قلنا هي التي أشار إليها مستصرخ سلفك المستنصر بقوله:

" أدرك بخيلك "، حين شرق بدمعه الشرق، وانهزم الجمع واستولى الفرق، واتسع فيه والحكم لله الخرق ورأى أن مقام التوحيد بالمظاهرة على التثليث، وحزبه الخبيث، الأولى والأحق.

والآن قد أغنى الله بتلك النية، عن اتخاذ الطوال الردينية، وبالدعاء من تلك المثابة الدينية إلى رب البنية، عن الأمداد السنية والأجواد تخوض بحر الماء إلى بحر المنية وعن الجرد العربية، في مقاود الليوث الأبية، وجدد برسم هذه الهدية، مراسيم العهود

الودية، والذمم الموحدية، لتكون علامة على الأصل، ومكذبة لدعوى الوقف والفصل، وإشعاراً بالألفة التي لا تزال ألفها ألف الوصل، ولأمها حراماً على النصل.

وحضر بين يدينا رسولكم، فقرر من فضلكم ما لا ينكره من عرف علو مقداركم، وأصالة داركم، وفلك إبداركم، وقطب مداركم، وأجبناه عنه بجهد ما كنا لنقنع من جناه المهتصر، بالمقتضب المختصر، ولا لنقابل طول طوله بالقصر، لولا طرو الحصر.

وقد كان بين الأسلاف رحمة اللّه عليهم ورضوانه ود أبرمت من أجل اللّه معاقده، ووثرت للخلوص، الجلي النصوص، مضاجعه القارة ومراقده، وتعاهد بالجميل يوجع لفقده فاقده، أبى اللّه إلا أن يكون لكم الفضل في تجديده، والعطف بتوكيده، فنحن الآن لا ندري أي مكارمكم نذكر، أو أي فواضلكم نشرح أو نشكر، أمفاتحكم التي هي في الحقيقة عندنا فتح، أم هديتكم، وفي وصفها للأقلام سبح، ولعدو الإسلام بحكمة حكمتها كبح، إنما نكل الشكر لمن يوفي في جزاء الأعمال البرة، ولا يبخس مثقال الذرة ولا أدنى من مثقال الذرة، ذي الرحمة الثرة، والألطاف المتصلة المستمرة، لا إله إلا هو.

وإن تشوفتم إلى الأحوال الراهنة، وأسباب الكفر الواهية بقدرة اللّه الواهنة، فنحن نطرفكم بطرفها، ونطلعكم على سبيل الإجمال بطرفها، وهو أننا لما أعادنا اللّه من التمحيص، إلى مثابة التخصيص، من بعد المرام العويص، كحلنا بتوفيق اللّه بصر البصيرة، ووقفنا على سبيله مساعي الحياة القصيرة، ورأينا كما نقل إلينا، وكرر على من قبلنا وعلينا أن الدنيا وإن غر الغرور وأنام على سرر الغفلة السرور، فلم ينفع الخطور على أجداث الأحباب والمرور، جسر يعبر، ومتاع لا يغبط من حبي به ولا يحبر، إنما هو خير يخبر، وأن الحسرة بمقدار ما على تركه يجبر، وأن الأعمار أحلام، وأن الناس نيام، وربما رحل الراحل عن الخان، وقد جلله بالأذى والدخان، أو ترك به طيباً، وثناء يقوم بعد للآتي خطيباً، فجعلنا العدل في الأمور ملاكاً، والتفقد للثغور مسواكا، وضجيع المهاد، حديث الجهاد، وأحكامه مناط الاجتهاد، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ﴾ من حجج الاستشهاد، وبادرنا رمق الحصون المضاعة وجنح التقية دامس، وعواريها لا ترد يد لامس، وساكنها بائس، والأعصم في شعفاتها من العصمة يائس، فزينا ببيض الشرفات ثناياها، وأفعمنا بالعذب الفرات ركاياها وغشينا بالصفيح المضاعف أبوابها، واحتسبنا عند موفي الأجور ثوابها، وبيضنا بناصع الكلس أثوابها، فهي اليوم توهم حس العيان، أنها قطع من بيض العنان، وتكاد تناول قرص البدر بالبنان، متكفلة للمؤمنين من فزع الدنيا والآخرة بالأمان.

وأقرضنا اللّه قرضاً، وأوسعنا مدونة الجيش عرضاً، وفرضنا إنصافه مع الأهلة فرضاً، واستندنا من التوكل على اللّه الغني الحميد إلى ظل لواء، ونبذنا إلى الطاغية عهده على سواء وقلنا: ربنا أنت العزيز، وكل جبار لعزك ذليل، وحزبك هو الكثير، وما سواه قليل، أنت الكافي، ووعدك الوعد الوافي، فأفض علينا مدارع الصابرين، واكتبنا من الفائزين بحظوظ رضاك الظافرين، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين.

فتحركنا أول الحركات، وفاتحة مصحف البركات، في خف من الحشود، واقتصار على ما بحضرتنا من العساكر المظفرة والجنود، إلى حصن آشر البازي المطل، وركاب العدو الضال المضل، ومهدي نفثات الصل، على امتناعه وارتفاعه، وسمو يفاعه، وما بذل العدو فيه من استعداده، وتوفير أسلحته وأزواده، وانتخاب أنجاده، فصلينا بنفسنا ناره، وزاحمنا عليه الشهداء نصابر أواره ونلقى بالجوارح العزيزة سهامه المسمومة، وجلامده الملمومة وأحجاره، حتى فرعنا بحول من لا حول ولا قوة إلا به أبراجه المنيعة وأسواره، وكففنا عن البلاد والعباد أضراره، بعد أن استضفنا إليه حصن السهلة جاره، ورحلنا عنه بعد أن شحناه رابطة وحامية، وأزواداً نامية، وعملنا بيدنا في رم ما ثلم القتال، وبقر من بطون مسابقة الرجال، واقتدينا بنبينا صلوات اللّه عليه وسلامه في الخندق لما حمى ذلك المجال، ووقع الارتجاز المنقول حديثة والارتجال، وما كان ليقر للإسلام مع تركه القرار، وقد كثب الجوار، وتداعى الدعرة وتعاوى الشرار.

وقد كنا أغرينا من بالجهة الغربية من المسلمين بمدينة برغة التي سدت بين القاعدتين رندة ومالقة الطريق، وألبست ذل الفراق ذلك الفريق، ومنعتهما أن يسيغا الريق، فلا سبيل إلى الإلمام، لطيف المنام، إلا في الأحلام، ولا رسالة إلا أجنحة هدل الحمام، فيسر اللّه فتحها، وعجل منحها، بعد حرب أنبتت فها النحور، وتزينت الحور.

وتبع هذه الأم بنات شهيرة، وبقع للزرع والضرع خيرة، فشفي الثغر من بؤسه، وتهلل وجه الإسلام بتلك الناحية الناجية بعد عبوسه.

ثم أعملنا الحركة إلى مدينة إطريرة، على بعد المدى، وتغلغلها في بلاد العدا، واقتحام هول الفلا وغول الردى، مدينة تبتها حمص فأوسعت الدار، وأغلت الشوار، وراعت الاستكثار،

وبسطت الاعتمار، رجح لدينا قصدها على البعد، والطريق الجعد، ما أسفت به المسلمين من استصال طائفة من أسراهم، مروا بها آمنين، وبطائرها المشؤوم متيمنين، قد أنهكهم الاعتقال، والقيود الثقال، وأضرعهم الأسار وجللهم الإنكسار، فجدلوهم في مصرع واحد، وتركوهم عبرة للرائي والمشاهد، وأهدوا بوقيعتهم إلى الإسلام ثكل الواجد، وترة الماجد، فكبستاها كبساً، وفجأناها بإلهام من لا يضل ولا ينسى وصبحتها الخيل، ثم تلاحق الرجل لما جن الليل، وحاق بها الويل، فأبيح منها الذمار، وأخذها الدمار، ومحقت من مصانعها البيض الأهلة وخسفت الأقمار، وشفيت من دماء أهلها الضلوع الحرار، وسلطت على هياكلها النار، واستولى على الآلاف العديدة من تسبيها الأسار، وانتهى إلى إشبيلية الثكلى المغار فجلل وجوه من بها من كبار النصرانية الصغار، واستولت الأيدي على ما لا يسعه الوصف ولا تقله الأوقار.

وعدنا والأرض تموج سبياً، لم نترك بعفرين شبلاً ولا بوجرة ظبياً، والعقائل حسرى، والعيون يبهرها الصنع الأسرى وصبح السرى قد حمد من بعد المسرى، فسبحان الذي أسرى، ولسان الحمية ينادي، في تلك الكنائس المخربة والنوادي: يا لثارات الأسرى!

ولم يكن إلا أن نفلت الأنفال، ووسمت بالأوضاح الأغفال، وتميزت الهوادي والأكفال، وكان إلى غزو مدينة جيان الاحتفال، قدنا إليها الجرد تلاعب الظلال نشاطاً، والأبطال تقتحم الأخطار رضى بما عند الله واغتباطاً، والمهندة الدلق تسبق إلى الرقاب استلالاً واختراطاً، واستكثرنا من عدد القتال احتياطاً، وأزحنا العلل عمن أراد جهاداً منجياً غباره من دخان جهنم ورباطاً، ونادينا الجهاد! الجهاد! يا أمة الجهاد! راية النبي الهاد! الجنة تحت ظلال السيوف الحداد! فهز النداء إلى الله تعالى كل عامر وغامر، وائتمر الجم من دعوى الحق إلى أمر آمر، وأتى الناس من الفجوج العميقة رجالاً وعلى كل ضامر، وكاثرت الرايات أزهار البطاح لوناً وعداً، وسدت الحشود مسالك الطريق العريضة سداً، ومد بحرها الزاخر مداً، فلا يجد لها الناظر ولا المناظر حدا.

وهذه المدينة هي الأم الولود، والجنة التي في النار لسكانها من الكفار الخلود، وكرسي الملك، ومجنبة الوسطى من السلك، باءت بالمزايا العديدة ونجحت، وعند الوزان بغيرها من أمات البلدان رجحت، غاب الأسود، وجحر لحيات السود، ومنصب التماثيل الهائلة، ومعلق النواقيس المصلصلة.

فأدنينا إليها المراحل، وعنينا ببحار المحلات المستقلات منها الساحل، ولما أكثبنا جوارها، وكدنا نلتمح نارها، تحركنا إليها ووشاح الأفق المرقوم، بزهر النجوم، قد دار دائره، والليل من خوف الصباح، على سطحه المستباح، قد شابت غدائره، والنسر يرفرف باليمن طائره، والسماك الرامح يثار بعز الإسلام ثائره، والنعائم راعدة فرائص الجسد، من خوف الأسد، والقوس يرسل سهم السعادة، بوتر العادة، إلى أهداف النعم المعادة، والجوزاء عابرة نهر المجرة، والزهرة تغار من الشعرى العبور بالضرة، وعطارد يسدي في حبل الحروب، على البلد المحروب ويلحمه، ويناظر على أشكالها الهندسية فيفحمه، والأحمر يبهر، وبعلمه الأبيض يغري وينهر، والمشتري يبدىء في فضل الجهاد ويعيد، ويزاحم في الحلقات على ما للسعادة من الصفقات، ويزيد، وزحل عن الطالع منزحل، وعن العاشر مرتحل، وفي زلق السعود وحل، والبدر يطالع حجر المنجنيق، كيف يهوي إلى النيق، ومطلع الشمس يرقب، وجدار الأفق يكاد بالعيون عنها ينقب.

ولما فشا سر الصباح، واهتزت أعطاف الرايات بتحيات مبشرات الرياح أطلعنا عليه إطلال الأسود على الفرائس، والفحول على العرائس، فنظرنا منظراً يروع بأساً ومنعة، ويروق وضعاً وصنعة، تلفعت معاقله الشم للسحاب ببرود، ووردت من غدر المزن في برود، وأشرعت لاقتطاف أزهار النجوم والذراع بين النطاق معاصم رود، وبلداً يعيي الماسح والذارع، وينتظم المحاني والأجارع، فقلنا: اللّهم نفله أيدي عبادك، وأرنا فيه آية من آيات جهادك، ونزلنا بساحتها العريضة المتون، نزول الغيث الهتون، وتيمنا من فحصها بسورة "التين والزيتون"، متبرئة من أمان الرحمان للبلد المفتون، وأعجلنا الناس بحمية نفوسهم النفيسة، وسجية شجاعتهم البئيسة، عن أن تبوأ للقتال المقاعد، وتدني بأسماع شهير النفير منهم الأباعد، وقبل أن يلتقي الخديم بالمخدوم، ويركع المنجنيق ركعتي القدوم، فدفعوا من أصحر إليهم من الفرسان وسبق إلى حومة الميدان، حتى أحجروهم في البلد، وسلبوهم لباس الجلد، في موقف يذهل الوالد عن الولد، صابت السهام فيه غماماً، وطارت كأسراب الحمام تهدى حماماً، وأضحت القنا قصداً، بعد أن كانت شهاباً رصداً، وماج بحر القتام بأمواج النصول، وأخذ الأرض الرجفان لزلزال الصياح الموصول، فلا ترى إلا شهيداً تظلل مصرعه الحور، وصريعاً تقذف به إلى الساحل تلك البحور، ونواشب تبأى بها الوجوه الوجيهة عند الله والنحور، فالمقضب، فوده يخضب، والأسمر، غصنه يستثمر، والمغفر، حماه يخفر، وظهور القسي تقصم، وعصم الجند الكوافر تفصم، وورق اليلب في المنقلب يسقط، والبيض تكتب والسمر تنقط، فاقتحم الربض الأعظم لحينه، وأظهر الله لعيون المبصرين

والمستبصرين عزة دينه، وتبرأ الشيطان من خدينه، ونهب الكفار وخذلوا، وبكل مرصد جدلوا ثم دخل البلد بعده غلابا، وجلل قتلاً واستلاباً، فلا تسل إلا الظبا والأسل عن قيام ساعته، وهول يومها وشناعته، وتخريب المبائت والمباني، وغنى الأيدي من خزائن تلك المغاني، ونقل الوجود الأول إلى الوجود الثاني وتخارق السيف فجاء بغير المعتاد، ونهلت القنا الردينية من الدماء، حتى كادت تورق كالأغصان المغترسة والأوتاد، وهمت أفلاك القسي وسحت، وأرنت حتى بحت، ونفدت موادها فشحت، مما ألحت، وسدت المسالك جثث القتلى فمنعت العابر، واستأصل اللّه من عدوه الشافة وقطع الدابر، وأزلف الشهيد وأحسب الصابر، وسبقت رسل الفتح الذي يسلم يسمع بمثله في الزمن الغابر تنقل البشرى من أفواه المحابر، إلى آذان المنابر.

أقمنا بها أياماً نعقر الأشجار، ونستأصل بالتخريب الوجار، ولسان الانتقام من عبدة الأصنام، ينادي: يا لثارات الإسكندرية تشفياً من الفجار، ورعياً لحق الجار، وقفلنا وأجنحة الرايات، برياح العنايات، خافقة وأوفاق التوفيق الناشئة من خطوط الطريق، موافقة، وأسواق العز باللّه نافقة، وحملاء الرفق مصاحبة والحمد للّه مرافقة، وقد ضاقت ذروع الجبال، عن أعناق الصهب السبال، ورفعت على الأكفال، ردفاء كرائم الأنفال، وقلقلت من النواقيس أجرام الجبال، بالهندام والاحتيال، وهلك بمهلك هذه الأم بنات كن يرتضعن ثديها الحوافل، ويستوثرن حجرها الكافل، شمل التخريب أسوارها، وعجلت النار بوارها.

ثم تحركنا بعدها حركة الفتح، وأرسلنا دلاء الأدلاء قبل المتح، فبشرت بالمنح وقصدنا مدينة أبدة، وهي ثانية الجناحين، وكبرى الأختين، ومساهمة جيان في حين الحين، مدينة أخذت عرض الفضاء الأخرق، وتمشت فيه أرباضها تمشي الكتابة الجامحة في المهرق، المشتملة على المتاجر والمكاسب، والوضع المتناسب، والفلح المعيي ريعه عمل الحاسب وكوارة الدبر اللاسب المتعددة اليعاسب، فأناخ العفاء بربوعها العامرة، ودارت كؤوس عقار الحتوف، ببنان السيوف، على متديريها المعاقرة، وصبحتها طلائع الفاقرة، وأغريت ببطون أسوارها عوج المعاول الباقرة، ودخلت مدينتها عنوة السيف، في أسرع من خطرة الطيف، ولا تسأل عن الكيف، فلم يبلغ العفاء من مدينة حافلة، وعقيلة في حلل المحاسن رافلة، ما بلغ من هذه البائسة التي سجدت لآلهة النيران أبراجها، وتضاءل بالرغام معراجها، وضفت على أعطافها ملابس الخذلان، وأقفر من كنائسها كناس الغزلان.

ثم تأهبنا لغزو أم القرى الكافرة، وخزائن المزاين الوافرة، وربة الشهرة السافرة، والأنباء المسافرة، قرطبة، وما أدراك ماهية! ذات الأرجاء الحالية الكاسية، والأطواد الراسخة الراسية، والمباني المباهية، والزهراء الزاهية، والمحاسن غير المتناهية، حيث هالة بدر السماء قد استدارت من السور المشيد البناء داراً، ونهر المجرة من نهرها الفياض، المسلول حسامه من غمود الغياض، قد لصق بها جاراً، وفلك الدولاب، المعتدل الانقلاب، قد استقام مداراً، ورجع الحنين اشتياقاً إلى الحبيب الأول وادكاراً حيث الطود كالتاج، يزدان بلجين العذب المجاج، فيزري بتاج كسرى وداراً، حيث قسي الجسور المديدة، كأنها عوج المطي العديدة، تعبر النهر قطاراً، حيث آثار العامري المجاهد، تعبق بين تلك المعاهد، شذى معطاراً، حيث كرائم السحائب، تزور عرائس الرياض الحبائب، فتحمل لها من الدر نثاراً، حيث شمول الشمال تدار على الأدواح، بالغدو والرواح، فترى الغصون سكارى، وما هي بسكارى حيث أيدي الافتتاح، تفتض من شقائق البطاح أبكاراً، حيث ثغور الأقاح الباسم، تقبلها بالسحر زوار النواسم، فتخفق قلوب النجوم الغيارى، حيث المصلى العتيق، قد رحب مجالاً وطال مناراً، وأزرى ببلاط الوليد احتقاراً، حيث الظهور المثارة بسلاح الفلاح، تجب عن مثل أسنمة المهارى، والبطون كأنها لتدميث الغمائم بطون العذارى، والأدواح العالية، تخترق أعلامها الهادية، بالجداول الحيارى.

فما شئت من جو بقيل، ومعرس للحسن ومقيل، ومالك للعقل وعقيل، وخمائل، كم فيها للبلابل، من قال وقيل، وخفيف يجاوز بثقيل، وسنابل تحكي من فوق سوقها، وقصب بسوقها، الهمزات على الألفات، والعصافير البديعة الصفات، فوق القضب المؤتلفات، تميل لهبوب الصبا والجنوب، مالئة الجيوب، بدر الحبوب، وبطاح لا تعرف عين المحل، فتطلبه بالذحل، ولا تصرف في خدمة بيض قباب الأزهار، عند افتتاح السوسن والبهار، غير العبدان من سودان النحل، وبحر الفلاحة الذي لا يدرك ساحله، ولا يبلغ الطية البعيدة راحله، إلى الوادي، وسمر النوادي، وقرار دموع الغوادي، للتجاسر على تخطيه، عند تمطيه، الجسر العادي، والوطن الذي ليس من عمرو ولا زيد، والفرا الذي في جوفه كل صيد أقل كرسيه خلافة الإسلام، وأغار بالرصافة والجسر دار السلام، وما عسى أن تطنب في وصفه ألسنة الأقلام أو تعبر به عن ذلك الكمال فنون الكلام.

فأعملنا إليها السرى والسير، وقدنا إليها الخيل قد عقد اللّه في نواصيها الخير.

ولما وقفنا بظاهرها المبهت المعجب، واصطففنا بخارجها

المنبت المنجب، والقلوب تلتمس الإعانة من منعم مجزل، وتستنزل مدد الملائكة من منجد منزل، والركائب واقفة من خلفنا بمعزل، تتناشد في معاهد الإسلام:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

برز من حاميتها المحاميه، ووقود النار الحامية، وبقية السيف الوافرة على الحصاد النامية، قطع الغمائم الهامية، وأمواج البحور الطامية، واستجنت بظلال أبطال المجال، أعداد الرجال، الناشبة والرامية، وتصدى للنزال، من صناديدها الصهب السبال، أمثال الهضاب الراسية، تجنها جنن السوابغ الكاسية، وقواميسها المفادية للصلبان يوم بؤسها بنفوسها المواسية، وخنازيرها التي عدتها عن قبول حجج الله ورسوله، ستور الظلم الغاشية، وصخور القلوب القاسية، فكان بين الفريقين أمام جسرها الذي فرق البحر، وحلى بلجينه، ولآليء زينه، منها النحر، حرب لم تنسج الأزمان على منوالها، ولا أتت الأيام الخبالى بمثل أجنة أهوالها، من قاسها بالفجار أفك وفجر، أو مثلها بجفر الهباءة خرف وهجر، ومن شبهها بحرب داحس والغبراء، فما عرف الخبر، فليسأل من جرب وخبر، ومن نظرها بيوم شعب جبلة فهو ذو بله، أو عادلها ببطن عاقل، فغير عاقل، أو احتج بيوم ذي قار، فهو إلى المعرفة ذو افتقار،أو ناضل بيوم الكديد، فسهمه غير السديد، إنما كان مقاماً غير معتاد، ومرعى نفوس سلم يف بوصفه لسان مرتاد وزلزال جبال أوتاد، ومتلف مذخور لسلطان الشيطان وعتاد، أعلم فيه البطل الباسل، وتورد الأبيض الباتر، وتأود الأسمر العاسل، ودوم الجليد المتكاسل، وانبعث من حدب الحنية، إلى هدف الرمية، الناشر الناسل، ورويت لمرسلات السهام المراسل، ثم أفضى أمر الرماح إلى التشاجر والارتباك، ونشبت الأسنة في الدروع نشب السمك في الشباك، ثم اختلط المرعي بالهمل، وعزل الرديني عن العمل، وعادت السيوف من فوق المفارق تيجاناً، بعد أن شقت غدر السوابغ خلجاناً، واتحدت جداول الدروع، فصارت بحراً، وكان التعانق، فلا ترى إلا نحراً يلازم نحراً، عناق وداع، وموقف شمل ذي انصداع، وإجابة مناد إلى فراق الأبد وداع، واستكشفت مآل الصبر الأنفس الشفاقة، وهبت بريح النصر الطلائع المبشرة الهفافة، ثم أمد السيل ذلك العباب، وصقل الاستبصار الألباب، واستخلص العزم صفوة اللباب، وقال لسان النصر: [ادخلوه عليهم الباب]فأصبحت طوائف الكفار، حصائد مناجل الشفار، فمغافرهم قد رضيت حرماتها بالأخفار، ورؤوسهم محطوطة في غير مقام الاستغفار، وعلت الرايات من فوق تلك الأبراج المستطرقة والأسوار، ورفرف على المدينة جناح البوار، لولا الانتهاء إلى الحد والمقدار، والوقوف عند اختفاء سر الأقدار.

ثم عبرنا نهرها، وشددنا بأيدي الله قهرها، وضيقنا حصرها، وأدرنا بلآلىء القباب البيض خضرها وأقمنا بها أياما تحوم عقبان البنود على فريستها حياما، وترمي الأدواح ببوارها، وتسلط النيران على أقطارها، فلولا عائق المطر، لحصلنا من فتح ذلك الوطن على الوطر، فرأينا أن نروضها بالاجتثاث والانتساف، ونوالي على زروعها وربوعها كرات رياح الاعتساف، حتى يتهيأ للإسلام لوك طعمتها، ويتهنا بفضل الله إرث نعمتها، ثم كانت من موقفها الإفاضة من بعد نحر النحور، وقذف جمار الدمار على العدو المدحور، وتدافعت خلفنا السيقات المتسقات تدافع أمواج البحور.

وبعد أن ألححنا على جناتها المصحرة، وكرومها المستبحرة إلحاح الغريم، وعوضناها المنظر الكريه من المنظر الكريم، وطاف عليها طائف من ربنا فأصبحت كالصريم، وأغرينا حلاق النار بجمم الجميم، وراكمنا في أحواف أجرافها غمائم الدخان، يذكر طيبه البان بيوم العميم، وأرسلنا رياح الغاراتلا تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، واستقبلنا الوادي يهول مدّاً، ويروع سيفه الصقيل حدّاً، فيسره الله من بعد الأعواز، وانطلقت على الفرصة بتلك الفرضة أيدي الانتهاز، وسألنا من سائله أسد بن الفرات فأفتى برجحان الجواز، فعم الاكتساح والاستباح جميع الأحواز فأديل المصون، وانتهبت القرى، وهدت الحصون، واجتثت الأصول، وحطمت الغصون ولم نرفع عنها إلى اليوم غارة تصابحها بالبوس، وتطلع عليها غررها الضاحكة باليوم العبوس، فهي الآن مجرى السوابق ومجر العوالي على التوالي، والحسرات تتجدد في أطلالها البوالي، وكأن بها قد ضرعت، وإلى الدعوة المحمدية أسرعت، بقدرة من لو أنزل القرآن على الجبال لخشعت من خشية الله وتصدعت، وعزة من أذعنت الجبابرة لعزه وخضعت، وعدنا والبنود لا يعرف اللف نشرها، والوجوه المجاهدة لا يخالط التقطيب بشرها، والأيدي بالعروة الوثقى متعلقة، والألسن بشكر نعم الله منطلقة، والسيوف في مضاجع الغمود قلقه، وسرابيل الدروع خلقه، والجياد من ردها إلى المرابط والأواري، رد العواري حنقة، وبعبرات الغيظ المكظوم مختنقة، تنظر إلينا نظر العاتب، وتعود من ميادين الاختيال والمراح، تحت حلل السلاح، عود الصبيان إلى المكاتب، والطبل بلسان العز هادر والعزم إلى منادي العود الحميد مبادر، ووجود نوع الرماح، من بعد ذلك الكفاح نادر، والقاسم يرتب بين يديه من السبي النوادر، ووارد مناهل الأجور، غير المحلاء، ولا المهجور، غير صادر، ومناظر الفصل الآتي، عقب

أخيه الشاتي، على المطلوب المواتي مصادر واللّه على تيسير الصعاب، وتخويل المنن الرغاب قادر، لا إله إلا هو.

فما أجمل لنا صنعه الخفي، وأكرم بنا لطفه الخفي، اللّهم لا نحصي ثناء عليك، ولا نلجأ منك إلا إليك، ولا نلتمس خير الدنيا والآخرة إلا لديك، فأعد علينا عوائد نصرك، يا مبدىء يا معيد، وأعنا من وسائل شكرك، على ما ينثال به المزيد، يا حي يا قيوم يا فعال لما يريد.

وقارنت رسالتكم الميمونة لدينا حذق فتح بعيد صيته، مشرئب ليته، وفخر من فوق النجوم العوائم مبيته عجبنا من تأتي أمله الشارد، وقلنا: البركة في قدم الوارد وهو أن ملك النصارى لاطفنا بجملة من الحصون كانت من مملكة الإسلام قد غصبت، والتماثيل فيها ببيوت اللّه قد نصبت أدالها اللّه بمحاولتنا. الطيب من الخبيث، والتوحيد من التثليث، وعاد إليه الإسلام عود الأب الغائب، إلى البنات الحبائب، يسأل عن شؤونها، ويمسح دموع الرقة من جفونها وهي للروم خطة خسف قلما ارتكبوها فيما نعلم من العهود، ونادرة من نوادر الوجود.

وإلى اللّه علينا وعليكم عوارف الجود، وجعلنا في محاريب الشكر من الركع السجود.

عرفناكم بمجملات أمور تحتها تفسير، وبمن من اللّه وتيسير، إذ استيفاء الجزئيات عسير لنسركم بما منح اللّه دينكم، ونتوج بعز الملة الحنيفية جبينكم، ونخطب بعده دعاءكم وتأمينكم، فإن دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب سلاح ماض، وكفيل بالمواهب المسؤولة من المنعم الوهاب متقاض وأنتم أولى من ساهم في بر، وعامل اللّه بخلوص سر، وأين يذهب الفضل عن بيتكم، وهو صفة حيكم، وتراث ميتكم، ولكم مزية القدم، ورسوخ القدم والخلافة مقرها إيوانكم، وأصحاب الإمام مالك رضي اللّه عنه مستقرها قيروانكم، وهجير المنابر ذكر إمامكم، والتوحيد إعلام، والوقائع الشهيرة في الكفر منسوبة إلى أيامكم، والصحابة الكرام فتحة أوطانكم، وسلالة الفاروق عليه السلام وشائج سلطانكم، ونحن نستكثر من بركة خطابكم، ووصلة جنابكم ولولا الأعذار لوالينا بالمزيدات تعريف أبوابكم.

واللّه عز وجل. يتولى عنا من شكركم المحتوم، ما قصر المكتوب منه عن المكتوم، ويبقيكم لإقامة الرسوم، ويحل محبتكم من القلوب محل الأرواح من الجسوم، وهو سبحانه يصل سعدكم، ويحرس مجدكم، ويوالي نعمه عندكم.

والسلام الكريم، الطيب الزكي المبارك البر العميم، يخصكم كثيراً أثيراً، ما أطلع الصبح وجهاً منيراً، بعد أن أرسل النسيم سفيرا، وكان الوميض الباسم لأكواس الغمائم، على أزهار الكمائم مديراً، ورحمة اللّه وبركاته.

وكتب إلي يهنئني بمولود، ويعاتب على تأخير الخبر بولاده عنه:

هنيئاً أبا الفضل الرضا وأبا زيد وأمنت من بغي يخاف ومن كيد
بطالع يمن طال في السعد شأوه فما هو من عمرو الرجال ولا زيد
وقيد بشكر اللّه أنعمه التي أوابدها تأبى سوى الشكر من قيد

أهلا بدري المكاتب، وصدري المراتب، وعتبى الزمن العاتب وبكر المشتري والكاتب، ومرحباً بالطالع، في أسعد المطالع، والثاقب في أجلى المراقب، وسهلاً بغني البشير، وعزة الأهل والعشير، وتاج الفخر الذي يقصر عنه كسرى وأردشير، الآن اعتضدت الحلة الحضرمية بالفارس، وأمن السارح في حمى الحارس، وسعدت بالمنير الكبير، أفلاك التدوير، من حلقات المدارس، وقرت بالجنى الكريم عين الغارس، واحتقرت أنظار الآبلي وأبحاث ابن الدارس وقيل للمشكلات: طالما ألفت الخمرة، وأمضيت على الأذهان الأمرة، فتأهبي للغارة المبيحة لحماك، وتحيزي إلى فئة البطل المستأثر برشف لماك.

و لله من نصبة احتفى فيها المشتري واحتفل، وكفى سني تربيتها وكفل، واختال عطارد في حلل الجذل لها ورفل، واتضحت الحدود، وتهللت الوجوه، وتنافست المثلثات تؤمل الحظ وترجوه، ونبه البيت على واجبه، وأشار لحظ الشرف بحاجبه، وأسرع نير النوبة في الأوبة، قائماً في الاعتذار مقام التوبة، واستأثر بالبروج المولدة بيت البنين، وتخطت خطا ألقمر رأس الجوزهر وذنب التنين، وساوق منها حكم الأصل، حذوك النعل بالنعل، تحويل السنين، وحقق هذا المولود بين المواليد نسبة عمر الوالد، فتجاوز درجة المئين، واقترن بعاشره السعدان، اقتران الجسد، وثبت بدقيقه مركزه قلب الأسد، وسرق من بيت أعدائه خرثي الغل والحسد، ونظفت طرق التسيير، كما نفعل بين يدي السادة عند المسير، وسقط الشيخ الهرم من الدرج في البير، ودفع المقاتل إلى الوبال الكبير:

لم لا ينال العلا أو يعقد التاج والمشتري طالع والشمس هيلاج
والسعد يركض في ميدانها مرحا جذلان والفلك الدوار هملاج

كأن به واللّه يهديه قد انتقل من مهد التنويم، إلى النهج القويم، ومن أريكة الذراع، إلى تصريف اليراع، ومن كتد الداية، إلى مقام الهداية، والغاية المختطقة البداية جعل اللّه وقايته عليه عوذة، وقسم حسدته قسمة محرم اللحم، بين منخنقة ونطيحة

ومتردية وموقوذة، وحفظ هلاله في البدار إلى تمه وبعد تمه، وأقر به عين أبيه وأمه.

غير أني. والله يغفر لسيدي بيد أني راكع في سبيل الشكر وساجد، فأنا عاتب وواجد، إذ كان ظني أن البريد بهذا الخبر إلي يعمل، وإن إتحافي به لا يهمل، فانعكست القضية، ورابت الحال المرضية، وفضلت الأمور الذاتية الأمور العرضية، والحكم جازم، وأحد الفرضين لازم إما عدم السوية، ويعارضه اعتناء حبله مغار، وعهده سلم لم يدخلها جزية ولا صغار، أو جهل بمقدار الهبة، ويعارضه علم بمقدار الحقوق، ورضى مناف للعقوق، فوقع الأشكال وربما لطف عذر كان عليه الاتكال.

وإذا لم يبشر مثلي بمنحة الله قبل تلك الذات السرية، الخليقة بالنعم الحرية، فمن الذي يبشر، وعلى من يعرض بزها أو ينشر، وهي التي واصلت التفقد، وبهرجت المعاملة وأبت أن تنقد، وأنست الغربة وجرحها غير مندمل، ونفست الكربة وجنحها على الجوانح مشتمل، فمتى فرض نسيان الحقوق لم ينلني فرض، ولاشهد به علي سماء ولا أرض، وإن قصر فيما يجب لسيدي عمل، لم يقصر رجاء ولا أمل، ولي في شرح حمده ناقة وجمل.

ومنه جل وعلا نسأل أن يريه قرة العين في نفسه وماله وبنيه، ويجعل أكبر عطايا الهيالج أصغر سنيه، ويقلد عواتق الكواكب البابانية حمائل أمانيه وإن تشوف سيدي لحال وليه، فخلوة طيبة، ورحمة من جانب الله صيبة، وبرق يشام، فيقال: حدث ما وراءك يا هشام.

و لله در شيخنا إذ يقول:

لا بارك الله في إن لم أصرف النفس في الأهم
وكثر الله في همومي إن كان غير الخلاص همي

وإن أنعم سيدي بالإلماع بحالة، وحال الولد المبارك، فذلك من غرر إحسانه، ومنزلته في لحظ لحظي، بمنزلة إنسانه، والسلام.

العودة إلى المغرب الأقصى

ولما كنت في الاعتمال في مشايعة السلطان عبد العزيز ملك المغرب، كما ذكرت تفاصيله، وأنا مقيم ببسكرة في جوار صاحبها أحمد بن يوسف بن مزني، وهو صاحب زمام رياح، وأكثر عطائهم من السلطان مفترض عليه في جباية الزاب، وهم يرجعون إليه في الكثير من أمورهم، فلم أشعر إلا وقد حدثت المنافسة منه في استتباع العرب، ووغر صدره، وصدق فيّ ظنونه وتوهماته، وطاوع الوشاة فيما يوردون على سمعه من التقول والاختلاق، وجاش صدره بذلك، فكتب إلى ونزمار بن عريف، ولي السلطان، وصاحب شواره، يتنفس الصعداء من ذلك، فأنهاه إلى السلطان، فاستدعاني لوقته، وارتحلت من بسكرة بالأهل والولد، في يوم المولد الكريم سنة أربع وسبعين وسبعمائة متوجهاً إلى السلطان وقد كان طرقه المرض فما هو إلا أن وصلت مليانة من أعمال المغرب الأوسط، فلقيني هنالك خبر وفاته، وأن ابنه أبا بكر السعيد نصب بعده للأمر في كفالة الوزير أبي بكر بن غازي وأنه ارتحل إلى المغرب الأقصى مغذاً السير إلى فاس، وكان على مليانة يومئذ علي بن حسون بن أبي علي الياطي من قواد السلطان وموالي بيته، فارتحلت معه إلى أحياء العطاف ونزلنا على أولاد يعقوب بن موسى من أمرائهم، بذرق لي بعضهم إلى حلة أولاد عريف: أمراء سويد، ثم لحق بنا بعد أيام علي بن حسون في عسكره وارتحلنا جميعاً إلى المغرب على طريق الصحراء، وكان أبو حمو قد رجع بعد مهلك السلطان من مكان انتباذه بالقفر في تيكورارين إلى تلمسان فاستولى عليها وعلى سائر أعماله، فأوعز إلى بني يغمور من شيوخ عبيد الله من المعقل أن يعترضونا بحدود بلادهم من رأس العين مخرج وادي زا، فاعترضونا هنالك فنجا من نجامنا على خيولهم إلى جبل دبدو وانتهبوا جميع ما كان معنا وأرجلوا الكثير من الفرسان، وكنت فيهم، وبقيت يومين في قفره ضاحياً عارياً إلى أن خلصت إلى العمران ولحقت بأصحابي بجبل دبدو ووقع في خلال ذلك من الألطاف إلى ما لا يعبر عنه، ولا يسع الوفاء بشكره.

ثم سرنا إلى فاس ووفدت على الوزير أبي بكر وابن عمه محمد بن عثمان بفاس في جمادى من السنة، وكان لي معه قديم صحبة واختصاص منذ نزع معي إلى السلطان أبي سالم بجبل الصفيحة، عند إجازته من الأندلس لطلب ملكه كما مر في غير موضع من الكتاب، فلقيني من بر الوزير وكرامته وتوفير جرايته وإقطاعه، فوق ما أحتسب وأقمت بمكاني من دولتهم أثير المحل، نابه الرتبة عريض الجاه، منوه المجلس عند السلطان.

ثم انصرم فصل الشتاء وحدث بين الوزير أبي بكر بن غازي وبين السلطان ابن الأحمر منافرة بسبب ابن الخطيب، وما دعا إليه ابن الأحمر من إبعاده عنهم وأنف الوزير من ذلك فأظلم الجو بينهما، وأخذ الوزير في تجهيز بعض القرابة من بني الأحمر للإجلاب على الأندلس فبادر ابن الأحمر إلى إطلاق الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن من ولد السلطان أبي علي، والوزير مسعود بن رحو بن ماساي كان حبسهما أيام السلطان عبد العزيز وبإشارته بذلك لابن الخطيب حين كان في وزارته بالأندلس، فأطلقهما الآن وبعثهما لطلب الملك بالمغرب، وأجازهما في

الأسطول إلى سواحل غساسة فنزلوا بها ولحقوا بقبائل بطوية هنالك، فاشتملوا عليهم، وقاموا بدعوة الأمير عبد الرحمن.

ونهض ابن الأحمر من غرناطة في عساكر الأندلس فنزل على جبل الفتح يحاصره، وبلغت الأخبار بذلك إلى الوزير أبي بكر بن غازي القائم بدوله بني مرين، فجهز لحينه ابن عمه محمد بن عثمان بن الكاس إلى سبتة لإمداد الحامية الذين لهم بالجبل، ونهض هو في العساكر إلى بطوية لقتال الأمير عبد الرحمن، فوجده قد ملك تازى، فأقام عليها يحاصره، وكان السلطان عبد العزيز قد جمع شباباً من بني أبيه المرشحين، فحبسهم بطنجة.

فلما وافى محمد بن الكاس سبتة وقعت المراسلة بينه وبين ابن الأحمر وعتب كل منهما صاحبه على ما كان منه، واشتد عذل ابن الأحمر على إخلائهم الكرسي من كفئه، ونصبهم السعيد بن عبد العزيز صبياً لم يثغر، فاستعتب له محمد، واستقال من ذلك، فحمله ابن الأحمر على أن يبايع لأحد الأبناء المحبوسين بطنجة، وقد كان الوزير أبو بكر أوصاه أيضاً بأنه إن تضايق عليه الأمر من الأمير عبد الرحمن، فيفرج عنه بالبيعة لأحد أولئك الأبناء.

وكان محمد بن الكاس قد استوزره السلطان أبو سالم لابنه احمد أيام ملكه، فبادر من وقته إلى طنجة وأخرج أحمد ابن السلطان أبي سالم من محبسه، وبايع له وسار به إلى سبتة، وكتب لابن الأحمر يعرفه بذلك، ويطلب منه المدد على أن ينزل له عن جبل الفتح، فأمده بما شاء من المال والعسكر واستولى على جبل الفتح وشحنه بحاميته، وكان أحمد ابن السلطان أبي سالم قد تعاهد مع بني أبيه في محبسهم، على أن من صار الملك إليه منهم، يجيز الباقين إلى الأندلس، فلما بويع له ذهب إلى الوفاء لهم بعهدهم، وأجازهم جميعاً، فنزلوا على السلطان ابن الأحمر، فأكرم نزلهم ووفر جراياتهم.

وبلغ الخبر بذلك كله إلى الوزير أبي بكر بمكانه من حصار الأمير عبد الرحمن بتازة، فأخذه المقيم المقعد من فعلة ابن عمه، وقوّض راجعاً إلى دار الملك، وعسكر بكدية العرائس من ظاهرها وتوعد ابن عمه محمد بن عثمان فاعتذر بأنه إنما امتثل وصيته، فاستشاط وتهدده واتسع الخرق بينهما وارتحل محمد بن عثمان بسلطانه ومدده من عسكر الأندلس إلى أن احتل بجبل زرهون المطل على مكناسة، وعسكر به، واشتملوا عليه، وزحف إليهم الوزير أبو بكر وصعد الجبل فقاتلوه وهزموه، ورجع إلى مكانه بظاهر دار الملك، وكان السلطان ابن الأحمر قد أوصى محمد بن عثمان بالاستعانة بالأمير عبد الرحمن والاعتضاد به، ومساهمته في جانب من أعمال المغرب يستبد به لنفسه، فراسله محمد بن عثمان في ذلك، واستدعاه واستمده وكان ونزمار بن عريف ولي سلفهم قد أظلم الجو بينه وبين الوزير أبي بكر، لأنه سأله وهو يحاصر تازى في الصلح مع الأمير عبد الرحمن فامتنع، واتهمه بمداخلته والميل له، فاعتزم على القبض عليه، ودس إليه بذلك بعض عيونه، فركب الليل ولحق بأحياء الأحلاف من المعقل، وكانوا شيعة للأمير عبد الرحمن، ومعهم علي بن عمر الويغلاني كبير بني ورتاجن، كان انتقض على الوزير ابن غازي ولحق بالسوس.

ثم خاض القفر إلى هؤلاء الأحلاف فنزل بينهم مقيماً لدعوة الأمير عبد الرحمن، فجاءهم ونزمار مفلتاً من حبالة الوزير أبي بكر وحرضهم على ما هم فيه، ثم بلغهم خبر السلطان أحمد بن أبي سالم ووزيره محمد، ابن عثمان، وجاءهم وافد الأمير عبد الرحمن يستدعيهم.

وخرج من تازى فلقيهم، ونزل بين أحيائهم، ورحلوا جميعاً إلى إمداد السلطان أبي العباس حتى انتهوا إلى صفووى.

ثم اجتمعوا جميعاً على وادي، النجا، وتعاقدوا على شأنهم، وأصبحوا من الغد على التعبئة، كل من ناحيته.

وركب الوزير أبو بكر لقتالهم فلم يطق، وولى منهزماً فانحجر بالبلد الجديد، وخيم القوم بكدية العرائس محاصرين له، وذلك أيام عيد الفطر من سنة خمس وسبعين وسبعمائة فحاصروها ثلاثة أشهر وأخذوا بمخنقها إلى أن جهد الحصار الوزير ومن معه، فأذعن للصلح على خلع الصبي المنصوب السعيد ابن السلطان عبد العزيز، وخروجه إلى السلطان أبي العباس ابن عمه، والبيعة له، وكان السلطان العباس والأمير عبد الرحمن قد تعاهدوا عند الاجتماع بوادي النجا على التعاون والتناصر، على أن الملك للسلطان أبي العباس بسائر أعمال المغرب، وأن للأمير عبد الرحمن بلدا سجلماسة ودرعة والأعمال التي كانت لجده السلطان أبي علي أخي السلطان أبي الحسن.

ثم بدا للأمير عبد الرحمن في ذلك أيام الحصار، واشتط بطلب مراكش وأعمالها فأغضوا له في ذلك، وشارطوه عليه حتى يتم لهم الفتح، فلما انعقد بما بين السلطان أبي العباس والوزير أبي بكر، وخرج إليه من البلد الجديد، وخلع سلطانه الصبي المنصوب، ودخل السلطان أبو العباس إلى دار الملك فاتح ست وسبعين وسبعمائة وارتحل الأمير عبد الرحمن يغذ السير إلى مراكش، وبدا للسلطان أبي العباس ووزيره محمد بن عثمان في شأنه، فسرحوا العساكر في اتباعه، وانتهوا خلفه إلى وادي بهت فواقفوه ساعة من

نهار، ثم أحجموا عنه، وولوا على راياتهم، وسار هو إلى مراكش، ورجع عنه وزيره مسعود بن ماساي بعد أن طلب منه الإجازة إلى الأندلس يتودع بها، فسرحه لذلك، وسار إلى مراكش فملكها.

وأما أنا فكنت مقيماً بفاس في ظل الدولة وعنايتها، منذ ندمت على الوزير سنة أربع وسبعين وسبعمائة كما مر، عاكفاً على قراءة العلم وتدريسه، فلما جاء السلطان أبو العباس والأمير عبد الرحمن وعسكروا بكدية العرائس، وخرج أهل الدولة إليهم من الفقهاء والكتاب والجند، وأذن للناس جميعاً في مباكرة أبواب السلطانين من غير نكير في ذلك، فكنت أباكرهما معاً، وكان بيني وبين الوزير محمد بن عثمان ما مر ذكره قبل هذا، فكان يظهر لي رعاية ذلك، ويكثر من المواعيد، وكان الأمير عبد الرحمن يميل إلي ويستدعيني أكثر أوقاته، ويشاورني في أحواله، فغص بذلك الوزير محمد بن عثمان وأغرى سلطانه فقبض علي.

وسمع الأمير عبد الرحمن بذلك، وعلم أني إنما وتيت من جراه، فحلف ليقوضن خيامه، وبعث وزيره مسعود بن ماساي لذلك، فأطلقوني من الغد، ثم كان افتراقهما لثالثة.

ودخل السلطان أبو العباس دار الملك، وسار الأمير عبد الرحمن إلى مراكش، وكنت أنا يومئذ مستوحشاً، فصحبت الأمير عبد الرحمن معتزماً على الإجازة إلى الأندلس من ساحل أسفي، معولاً في ذلك على صحابة الوزير مسعود بن ماساي لهواي فيه، فلما رجع مسعود أثنى عزمي في ذلك، ولحقنا بونزمار بن عريف بمكانه من نواحي كرسيف، لنقدمه وسيلة إلى السلطان أبي العباس صاحب فاس في الجواز إلى الأندلس، ووافينا عنده داعي السلطان فصحبناه إلى فاس، واستأذنه في شأني، فأذن لي بعد مطاولة وعلى كره من الوزير محمد بن عثمان وسليمان بن داود بن أعراب، ورجال الدولة.

وكان الأخ يحيى لما رحل السلطان أبو حمو من تلمسان، رجع عنه من بلاد زغبة إلى السلطان عبد العزيز، فاستقر في خدمته، وبعده في خدمة ابنه محمد السعيد المنصوب مكانه.

ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد استأذن الأخ في اللحاق بتلمسان، فأذن له وقدم على السلطان أبي حمو، فأعاده إلى كتابة سره كما كان أول أمره، وأذن لي أنا بعده فانطلقت إلى الأندلس بقصد القرار والدعة إلى أن كان ما نذكر إن شاء الله تعالى.

الإجازة ثانية إلى الأندلس ثم إلى تلمسان واللحاق بأحياء العرب والمقامة عند أولاد عريف

ولما كان ما قصصته من تنكر السلطان أبي العباس صاحب فاس والذهاب مع الأمير عبد الرحمن ثم الرجوع عنه إلى ونزمار بن عريف طلباً لوسيلته في انصرافي إلى الأندلس بقصد القرار والانقباض، والعكوف على قراءة العلم، فتم ذلك ووقع الإسعاف به بعد الامتناع، وأجزت إلى الأندلس في ربيع[سنة] ست وسبعين وسبعمائة ولقيني السلطان بالبر والكرامة وحسن النزل على عادته وكنت لقيت بجبل الفتح كاتب السلطان ابن الأحمر من بعد ابن الخطيب الفقيه أبا عبد الله بن زمرك، ذاهباً إلى فاس في غرض التهنئة، وأجاز إلى سبتة في أسطوله، وأوصيته بإجازة أهلي وولدي إلى غرناطة، فلما وصل إلى فاس، وتحدث مع أهل الدولة في إجازتهم، تنكروا لذلك، وساءهم استقراري بالأندلس، واتهموا أني ربما أهل السلطان ابن الأحمر على الميل إلى الأمير عبد الرحمن الذي اتهموني بملابسته، ومنعوا أهلي من اللحاق بي.

وخاطبوا السلطان ابن الأحمر في أن يرجعني إليهم، فأبى من ذلك، فطلبوا منه أن يجيزني إلى عدوة تلمسان، وكان مسعود بن ماساي قد أذنوا له في اللحاق بالأندلس، فحملوه على مشافهة السلطان بذلك، وأبدوا له أني كنت ساعياً في خلاص ابن الخطيب، وكانوا قد اعتقلوه لأول استيلائهم على البلد الجديد وظفرهم به.

وبعث إليّ ابن الخطيب من محبسه مستصرخاً بي، ومتوسلاً، فخاطبت في شأنه أهل الدولة، وعولت فيه منهم على ونزمار وابن ماساي، فلم تنجح تلك السعاية، وقتل ابن الخطيب، بمحبسه، فلما قدم ابن ماساي على السلطان ابن الأحمر. وقد أغروه بي فألقى إلى السلطان ما كان مني في شأن ابن الخطيب، فاستوحش لذلك، وأسعفهم بإجازتي إلى العدوة، ونزلت بهنين والجو بيني وبين السلطان أبي حمو مظلم بما كان مني في إجلاب العرب عليه بالزاب كما مر.

فأوعز بمقامي بهنين، ثم وفد عليه محمد بن عريف فعذله في شأني فبعث عني إلى تلمسان، واستقررت بها بالعباد، ولحق بي أهلي وولدي من فاس، وأقاموا معي وذلك في عيد الفطر سنة ست وسبعين وسبعمائة وأخذت في بث العلم، وعرض للسلطان

أبي حمو أثناء ذلك رأي في الدواودة، وحاجة إلى استئلافهم، فاستدعاني وكلفني السفارة إليهم في هذا الغرض، فاستوحشت منه ونكرته على نفسي لما آثرته من التخلي والإنقطاع، وأجبته إلى ذلك ظاهراً، وخرجت مسافراً من تلمسان حتى انتهيت إلى البطحاء، فعدلت ذات اليمين إلى منداس ولحقت بأحياء أولاد عريف قبلة جبل كزول فتلقوني بالتحفي والكرامة، وأقمت بينهم أياماً حتى بعثوا عن أهلي وولدي بتلمسان، وأحسنوا العذر إلى السلطان عني في العجز عن قضاء خدمته، وأنزلوني بأهلي في قلعة ابن سلامة من بلاد بني توجين التي صارت لهم بأقطاع السلطان فأقمت بها أربعة أعوام متخلياً عن الشواغل كلها، وشرعت في تأليف هذا الكتاب، وأنا مقيم بها، وأكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة، فسألت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتخضت زبدتها، وتألفت نتائجها، وكانت من بعد ذلك الفيئة إلى تونس كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الفيئة إلى السلطان أبي العباس بتونس والمقام بها

ولما نزلت بقلعة ابن سلامة بين أحياء أولاد عريف، وسكنت بقصر أبي بكر بن عريف الذي اختطه بها وكان من أحفل المساكن وأوثقها.

ثم طال مقامي هنالك وأنا مستوحش من دولة المغرب وتلمسان، وعاكف على تأليف هذا الكتاب، وقد فرغت من مقدمته إلى أخبار العرب والبربر وزناتة، وتشوفت إلى مطالعة الكتب والدواوين التي لا توجد إلا بالأمصار، بعد أن أمليت الكثير من حفظي، وأردت التنقيح والتصحيح، ثم طرقني مرض أوفى بي على الثنية لولا ما تدارك من لطف الله، فحدث عندي ميل إلى مراجعة السلطان أبي العباس والرحلة إلى تونس، حيث قرار آبائي ومساكنهم، وآثارهم وقبورهم، فبادرت إلى خطاب السلطان بالفيئة إلى طاعته والمراجعة، وانتظرت فما كان غير بعيد، وإذا بخطابه وعهوده بالإمان والاستحثاث للقدوم؛ فكان الخفوف للرحلة فطعنت عن أولاد عريف مع عرب الأخضر من بادية رياح، كانوا هنالك ينتجعون الميرة بمنداس، وارتحلنا في رجب سنة ثمانين وسبعمائة وسلكنا القفر إلى الدوسن من أطراف الزاب.

ثم صعدت إلى التل مع حاشية يعقوب بن علي وجدتهم بفرفار الضيعة التي اختطها بالزاب، فرحلتهم معه إلى أن نزلنا عليه بضاحية قسنطينة، ومعه صاحبها الأمير إبراهيم ابن السلطان أبي العباس بمخيمه وفي معسكره، فحضرت عنده وقسم لي من بره وكرامته فوق الرضى وأذن لي في الدخول إلى قسنطينة وإقامة أهلي في كفالة إحسانه، بينما أصل إلى حضرة أبيه، وبعث يعقوب بن علي معي ابن أخيه أبي دينار في جماعة من قومه، وسرنا إلى السلطان أبي العباس وهو يومئذ قد خرج من تونس في العساكر إلى بلاد الجريد لاستنزال شيوخها عن كراسي الفتنة التي كانوا عليها، فوافيته بظاهر سوسة، فحيا وفادتي وبر مقدمي وبالغ في تأنيسي، وشاورني في مهمات أموره، ثم ردني إلى تونس وأوعز إلى نائبه بها مولاه فارح بتهيئه المنزل، والكفاية في الجراية والعلوفة، وجزيل الإحسان، فرجعت إلى تونس في شعبان من السنة، وآويت إلى ظل ظليل من عناية السلطان وحرمته، وبعثت إلى الأهل والولد وجمعت شملهم في مرعى تلك النعمة، وألقيت عصا التسيار، وطالت غيبة السلطان إلى أن افتتح أمصار الجريد، وذهب فلهم في النواحي، ولحق زعيمهم يحيى بن يملول ببسكرة، ونزل على صهره ابن مزني، وقسم السلطان بلاد الجريد بين ولده، فأنزل ابنه محمدا المنتصر بتوزر وجعل نفطة ونفزاوة من أعماله، وأنزل ابنه أبا بكر بقفصة، وعاد إلى تونس مظفراً ماهداً، فأقبل على وستدناني لمجالسته، والنجي في خلوته، فغص بطانته من ذلك، وأفاضوا في السعايات عند السلطان فلم تنجح، وكانوا يعكفون على إمام الجامع، وشيخ الفتيا محمد بن عرفة، وكان في قلبه نكتة من الغيرة من لدن اجتماعنا في المربى بمجالس الشيوخ، فكثيراً ما كان يظهر شفوفي عليه، وإن كان أسن مني فاسودت تلك النكتة في قلبه، ولم تفارقه، ولما قدمت تونس انثال علي طلبة العلم من أصحابه وسواهم؛ يطلبون الإفادة والاشتغال، وأسعفتهم بذلك، فعظم عليه، وكان يسر التنفير إلى الكثير منهم، فلم يقبلوا، واشتدت غيرته ووافق ذلك اجتماع البطانة إليه، واتفقوا على شأنهم في التأنيب عليّ والسعاية بي، والسلطان خلال ذلك معرض عنهم في ذلك، وقد كلفني بالأكباب على تأليف هذا الكتاب لتشوفه إلى المعارف والأخبار، واقتناء الفضائل فأكملت منه أخبار البربر وزناتة، وكتبت من أخبار الدولتين وما قبل الإسلام ما وصل إلي منها، وأكملت منها نسخة رفعتها إلى خزانته.

وكان مما يغرون به على السلطان قعودي عن امتداحه، فإني كنت قد أهملت الشعر وانتحاله جملة، وتفرغت للعلم فقط، فكانوا يقولون له: إنما ترك ذلك استهانة بسلطانك لكثرة امتداحه للملوك قبلك، وتنسمت ذلك عنهم من جهة بعض الصديق من بطانتهم، فلما رفعت له الكتاب وتوجته باسمه أنشدت في ذلك

اليوم هذه القصيدة أمتدحه، وأذكر سيره وفتوحاته وأعتذر عن انتحال الشعر وأستعطفه بهدية الكتاب إليه فقلت:

هل غير بابك للغريب مؤمل ... أوعن جنابك للأماني معدل
هي همة بعثت إليك على النوى ... عزماً كما شحذ الحسام الصيقل
متبوأ الدنيا ومنتجع المنى ... والغيث حيث العارض المتهلل
حيث القصور الزاهرات منيفة ... تعنى بها زهر النجوم وتحفل
حيث الخيام البيض يرفع للعلا ... والمكرمات طرافها المتهدل
حيث الحمى للعز في ساحاته ... ظل أفاءته الوشيج الذبل
حيث الكرام ينوب عن نار ... القرى عرف الكباء بحيهم والمندل
حيث الرماح يكاد يورق عودها ... مما تعل من الدماء
حيث الجياد أملهن شجعان بنو ... مما أطالوا في المغار وأوغلوا
حيث الوجوه الغر قنعها الحيا ... والبشر في صفحاتها يتهلل
حيث الملوك الصيد والنفر الألى ... عز الجوار لديهم والمستزل
من شيعة المهدي بل من شيعة ... التوحيد به الكتاب يفصل
شادوا على التقوى مباني عزهم ... لله ما شادوا بذاك وأثلوا
بل شيعة الرحمن ألقى حبهم ... في خلقه فسموا بذاك وفضلوا
قوم أبو حفص أب لهم وما ... أدراك والفاروق جد أول
نسب كما اضطردت أنابيب القنا ... وأتى على تقويمهن معدل
سام على هام الزمان كأنه ... للفخر تاج بالبدور مكلل
فضل الأنام حديثهم وقد يهم ... ولأنت إن فضلوا أعزوا وأفضل
وبنوا على قلل النجوم ووطدوا ... وبناؤك العالي أشد وأطول
ولقد أقول لخائض بحر الفلا ... والليل مزبد الجوانب أليل
ماض على غول الدجى لا يتقي ... تيهاً وذابله ذبال مشعل
متقلب فوق الرحال كأنه ... طيف بأطراف المهاد موكل
يبغي منال الفوز من طرق الغنى ... ويرود مخصبها الذي لا يمحل
أرح الركاب فقد ظفرت بواهب ... يعطي عطاء المنعمين فيجزل
لله من خلق كريم في الندى ... كالروض حياه ندي مخضل
هذا أمير المؤمنين إمامنا ... في الدين والدنيا إليه المؤئل
هذا أبو العباس خير خليفة ... شهدت له الشيم التي لا تجهل
مستنصر بالله في قهر العدا ... وعلى إعانة ربه متوكل
سبق الملوك إلى العلا متمهلا ... لله منك السابق المتمهل
فلأنت أعلى المالكين وإن غدوا ... يتسابقون إلى العلاء وأكمل
قايس قديماً منهم بقديمهم ... فالأمر فيه واضح لا يجهل
دانوا لقومكم بأقوم طاعة ... هي عروة الدين التي لا تفصل
سائل تلمسانا بها وزناتة ... ومرين قبلهم كما قد ينقل
وأسال بأندلس مدائن ملكها ... تخبرك حين استياسوا واستوهلوا
وأسال بذا مراكشاً وقصورها ... ولقد تجيب رسومها من يسأل
يا أيها الملك الذي في نعته ... ملء القلوب وفوق ما يتمثل
لله منك مؤيد عزماته ... تمضي كما يمضي القضاء المرسل
جئت الزمان بحيث أعضل خطبة ... فافتر عنه وهو أكلح أعصل
والشمل من أبنائه متصدع ... وحمى خلافته مضاع مهمل
والخلق قد صرفوا إليك قلوبهم ... ورجوا صلاح الحال منك وأملوا
فعجلته لما انتدبت لأمره ... بالبأس والعزم الذي لا يهمل
ذللت منه جامحاً لا ينثني ... سهلت وعراً كاد لا يتسهل
وألنت من شرس العتاة وذدتهم ... عن ذلك الحرك الذي قد حللوا
كانت لصولة صولة ولقومه ... يعدو ذؤيب بها وتسطو المعقل
ومهلهل تسدي وتلحم في التي ... ما أحكموها فهي بعد مهلهل

والمراد بصولة هنا صولة بن خالد بن حمزة أولاد أبي الليل.

وذؤيب: هو ابن عمه أحمد بن حمزة.

والمعقل فريق من العرب من أحلافهم، ومهلهل: هم بنو مهلهل بن قاسم أنظارهم وأقتالهم.

ثم رجعت إلى وصف العرب وأحيائهم:

عجب الأنام لشأنهم بادون قد ... قذفت بجهم المطي الذلل
رفعوا القباب على العماد ... الجرد السلاهب والرماح العسل
في كل ظامي الترب متقد الحصى ... تهوي للجته الظماء فتنهل
جن شرابهم السراب ورزقهم ... رمح يروح به الكمي ومنصل
حي حلول بالعراء ودونهم ... قذف النوى إن يظعنوا أو يقبلوا
كانوا يروعون الملوك بما بدوا ... وغدت ترفه بالنعيم وتخفل
فبدوت لا تلوي على دعة ... ولا تأوي إلى ظل القصور وتهدّلُ
طورا يصافحك الهجير وتارة ... فيه بخفاق البنود تظلل
وإذا تعاطى الضمر في يوم الوغى ... كأس النجيع فبالصهيل تعلل
مخشوشناً في العز معتملاً له ... في مثل هذا يحسن المستعمل
تفري حشى البيداء لا يسري بها ... ركب ولا يهوي إليه جحفل
وتجر أذيال الكتائب فوقها ... تختال في السمر الطوال وترفل
ترميهم منها بكل مدجج ... شاكي السلاح إذا استعار الأعزل
وبكل أسمر غصنه متأود ... وبكل أبيض شطه متهدل
حتى تفرق ذلك الجمع الألى ... عصفت بهم ريح الجلاد فزلزلوا
ثم استملتهم بأنعمك التي ... خضعوا لعزك بعدها وتذللوا
ونزعت من أهل الجريد غوابة ... كانت بهم أبداً تجد وتهزل
خربت من بنيانها ما شيدوا ... وقطعت من أسبابها ما أصّلوا
ونظمت من أمصاره وثغوره ... للملك عقداً بالفتوح يفصل
فسددت مطلع النفاق وأنت لا ... تنبو ظباك ولا العزيمة تنكل
بشكيمة مرهوبة وسياسة ... تجري كما يجري فرات سلسل
عذب الزمان لها ولذ مذاقه ... من بعد ما قد مر منه الحنظل
فضوى الأنام لعز أروع مالك ... سهل الخليقة ماجد متفضل

وتطابقت فيه القلوب على الرضى ... سيان منها الطفل والمتكهل
يا مالكاً وسع الزمان وأهله دعةً ... وأمناً فوق ما قد أملوا
فالأرض لا تخشى بها غول ولا ... يعدو بساحتها الهزبر المشبل
والسفر يجتابون كل تنوفة ... سرب القطاما راعهن الأجدل
سبحان من بعلاك قد أحيا المنى ... وأعاد حلي الجيد وهو معطل
سبحان من بهداك أوضح للورى ... قصد السبيل فأبصر المتأمل
فكأنما الدنيا عروس تجتلي ... فتميس في حلل الجمال وترفل
وكأن مطبقة البلاد بعدله عادت ... فسيحاً ليس فيها مجهل
وكأن أنوار الكواكب ضوعفت ... من نور غرته التي هي أجمل
وكأنما رفع الحجاب لناظر ... فرأى الحقيقة في الذي يتخيل

ومنها في العذر عن مدحه:

مولاي غاضت فكرتي وتبلدت ... مني الطباع فكل شيء مشكل
تسمو إلى درك الحقائق همت ... فأصد عن إدراكهن وأعزل
وأجد ليلى في امتراء قريحت ... وتعود غوراً بينما تسترسل
فأبيت يعتلج الكلام بخاطري ... والنظم يشرد والقوافي تجفل
من بعد حول أنتقيه ولم يكن ... في الشعر حولي يعاب ويهمل
فأصونه عن أهله متوارياً ... أن لا يضمهم وشعري محفل
وهي البضاعة في القبول نفاقها ... سيان فيه الفحل والمتطفل
وبنات فكري إن أتتك كليلة ... زهراء تخطر في القصور وتخطل
فلها الفخار إذا منحت قبولها ... وأنا على ذاك البليغ المقول

ومنها في ذكر الكتاب المؤلف بخزانته:

وإليك من سير الزمان وأهله ... عبراً يدين بفضلها من يعدل
صحفا تترجم عن أحاديث الأولى ... غبروا فتجمل عنهم وتفصل
تبدي التبابع والعمالق سرها ... وثمود قبلهم وعاد الأول
والقائمون بملة الإسلام من ... مضر وبربرهم إذا ما حصلوا
لخصت كتب الأولين لجمعها ... وأتيت أولها بما قد أغفلوا
وألنت حوشي الكلام كأنما ... شرد للغات بها لنطقي ذلل
أهديت منه إلى علال جواهراً ... مكنونة وكواكباً لا تأفل
وجعلته لصوان ملكك مفخرا ... يبأى الندي به ويزهو المحفل
والله ما أسرفت فيما قلته شيئا ... ولا الإسراف مما يجمل
ولأنت أرسخ في المعارف رتبة ... من أن يموه عنده متطفل
فملاك كل فضيلة وحقيقة ... بيديك تعرف وضعها إن بدلوا
والحق عندك في الأمور مقدم ... أبداً فماذا يدعيه المبطل
والله أعطاك التي لا فوقها ... فاحكم بما ترضى فأنت الأعدل
أبقاك ربك للعباد تربهم ... فالله يخلقهم ورعيك يكفل

وكنت لما انصرفت من معسكره على سوسة إلى تونس، بلغني وأنا مقيم بها أنه أصابه في طريقه مرض، وعقبه إبلال فخاطبته بهذه القصيدة:

ضحكت وجوه الدهر بعد عبوس ... وتجللتنا رحمة من بوس
وتوضحت غرر البشائر بعدما ... أنبهمت فأطلعها حداة العيس
صدعوا بها ليل الهموم كأنما ... صدعوا الظلام بجذوة المقبوس
فكأنهم بثوا حياة في الورى ... نشرت لها الآمال من مرموس
قرت عيون الخلق منها بالتي ... أضفت من النعماء خير لبوس
فكأن قومي نادمتهم ترقف ... شربوا النعيم لها بغير كؤوس
يتمايلون من المسرة والرضا ... ويقابلون أهلة بشموس
من راكب وافى يُحيي راكبا ... وجليس أنس قاده لجليس
ومشفع لله يؤنس عنده ... أثر الهدى في المعهد المأنوس
يعتد منها رحمة قدسية ... فيبوء للرحمن بالتقديس
طب بإخلاص الدعاء وإنه ... يشفي من الداء العيا يوسي

والمعني به إمام الجامع الأعظم، جامع الزيتونة بتونس.

يا ابن الخلافة والذين بنورهم ... نهجت سبيل الحق بعد دروس
والناصر الدين القويم بعزمة ... طردت إمامتها بغير عكوس
هجر المنى فيها ولذات المنى ... في لذة التهجير والتغليس
حاط الرعية بالسياسة فانضوت ... منه لأكرم مالك وسيوس
أسد يحامي عن حمى أشباله ... حتى ضووا منه لأمنع خيس
قسماً بموشي البطاح وقد غدت ... تختال زهواً في ثياب عروس
والمائلات من الحنايا جثما ... يخبرن عن طسم وفل جليس
خوص مضمرة البطون كأنها ... أنضاء ركب في الفلاة حبيس
وخز البلى منها الغوارب والذرى ... فلفتن حذراً بالعيون الشوس
لبقاك حرز للأنام وعصمة ... وحياة أرواح لنا ونفوس
ولأنت كافل ديننا بحماية ... لولاك ضيع عهدها وتنوسي
اللّه أعطاك التي لا فوقها ... وحباك حظّاً ليس بالموكوس
تعنو القلوب إليك قبل وجوهنا ... سيان من رأس ومن مرؤوس
فإذا أقمت فإن رعبك راحل ... يحمي على الأعداء كل وطيس
وإذا رحلت فللسعادة آية ... تقتادها في موكب وخميس
وإذا الأدلة في الكمال تطابقت ... جاءت بمسموع لها ومقيس
فانعم بملكك دولة عادية ... تشقي الأعادي بالعذاب اليس
وإليكها مني على خجل بها ... عذراء قد حليت بكل نفيس
عذراً فقد طمس الشباب ونوره ... وأضاء صبح الشيب عند طموس
لولا عنايتك التي أوليتني ... ما كنت أعني بعدها بطروس
واللّه ما أبقت ممارسة ... النوى مني سوى مرس أحم دريس
انحنى الزمان علي في الأدب الذي ... دارسته بمجامع ودروس
فسطا على وفري وروع مأمني ... واجتث من دوح النشاط غروسي
ورضاك رحمتي التي أعتدها ... تحيي مني نفسي وتذهب بوسي

ثم كثرت سعاية البطانة بكل نوع من أنواع السعايات، وابن عرفة يزيد في إغرائهم متى اجتمعوا إليه، إلى أن أغروا السلطان بسفري معه، ولقنوا النائب بتونس القائد فارح من موالي السلطان أن يتفادى من مقامي معه خشية على أمره مني بزعمه، وتواطأوا على أن يشهد ابن عرفة بذلك للسلطان شهد به في غيبة مني ونكر السلطان عليهم ذلك، ثم بعث إلي وأمرني بالسفر معه، فسارعت إلى الامتثال، وقد شق ذلك علي، إلا أني لم أجد محيصاً عنه، فخرجت معه وانتهيت إلى تبسة، وسط تلول أفريقية، وكان منحدراً في عسكره وتوابعه من العرب إلى توزر لأن ابن يملول أجلب عليها سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة واستنقذها من يد ابنه، فسار السلطان إليه، وشرده عنها، وأعاد إليها ابنه وأولياءه. ولما نهض من تبسة رجعني إلى تونس فأقمت بضيعتي الرياحين من نواحيها لضم زروعي بها إلى أن قفل السلطان ظافراً منصوراً فصحبته إلى تونس.

ولما كان شهر شعبان من سنة أربع وثمانين وسبعمائة أجمع السلطان الحركة إلى الزاب بما كان صاحبه ابن مزني قد آوى ابن يملول إليه ومهد له في جواره، فخشيت أن يعود في شأني ما كان في السفرة قبلها، وكان بالمرسى سفينة لتجار الإسكندرية قد شحنها التجار بأمتعتهم وعروضهم، وهي مقلعة إلى الإسكندرية فتطارحت على السلطان، وتوسلت إليه في تخلية سبيلي لقضاء فرضي، فأذن لي في ذلك، وخرجت إلى المرسى والناس متسايلون على أثري من أعيان الدولة والبلد وطلبة العلم. فودعتهم وركبت البحر منتصف شعبان من السنة، وقوضت عنهم بحيث كانت الخيرة من الله سبحانه، وتفرغت لتجديد ما كان عندي من آثار العلم، والله ولي الأمور سبحانه.

الرحلة إلى المشرق وولاية القضاء بمصر

ولما رحلت من تونس منتصف شعبان من سنة أربع وثمانين وسبعمائة أقمنا في البحر نحواً من أربعين ليلة، ثم وافينا مرسى الإسكندرية يوم الفطر، ولعشر ليال من جلوس الملك الظاهر على التخت، واقتعاد كرسي الملك دون أهله بني قلاوون، وكنا على ترقب ذلك، لما كان يؤثر بقاصية البلاد من سموه لذلك، وتمهيده له. وأقمت بالإسكندرية شهراً لتهيئة أسباب الحج ولم يقدر عامئذ، فانتقلت إلى القاهرة أول ذي العقدة فرأيت حاضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام وكرسي الملك، تلوح القصور والأواوين في جوه، وتزهر الحوانك والمدارس والكواكب بآفاقه، وتضيء البدور والكواكب من علمائه، قد مثل بشاطىء بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه السماء، يسقيهم العلل والنهل سيحه، ويجبي إليهم الثمرات والخيرات ثجه ومررت في سكك المدينة تغص بزحام المارة، وأسواقها تزخر بالنعم. وما زلنا نتحدث عن هذا البلد وبعد مداه في العمران واتساع الأحوال، ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا حاجهم وتاجرهم في الحديث عنه، سألت صاحبنا قاضي الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب أبا عبد الله المقري مقدمه من الحج سنة أربعين وسبعمائة فقلت له: كيف هذه القاهرة؟ فقال: من لم يرها لم يعرف عز الإسلام.

وسألت شيخنا أبا العباس بن إدريس كبير العلماء ببجاية مثل ذلك فقال: كأنما انطلق أهله من السحاب يشير إلى كثرة أممه وأمنهم العواقب.

وحضر صاحبنا قاضي العسكر بفاس الفقيه الكاتب أبو القاسم البرجي بمجلس السلطان أبي عنان، منصرفه من السفارة عنه إلى ملوك مصر وتأدية رسالته النبوية إلى الضريح الكريم سنة ست وخمسين وسبعمائة فسألته عن القاهرة فقال:

أقول في العبارة عنها على سبيل الاختصار: إن الذي يتخيله الإنسان فإنما يراه دون الصورة التي تخيلها لاتساع الخيال عن كل محسوس، إلا القاهرة فإنها أوسع من كل ما يتختل فيها. فأعجب السلطان والحاضرون لذلك.

ولما دخلتها أقمت أياماً وانثال علي طلبة العلم بها يلتمسون الإفادة مع قلة البضاعة، ولم يوسعوني عذراً فجلست للتدريس بالجامع الأزهر منها.

ثم كان الاتصال بالسلطان فابر اللقاء مقامي وآنس الغربة، ووفر الجراية من صدقاته شأنه مع أهل العلم، وانتظرت لحاق أهلي وولدي من تونس، وقد صدهم السلطان هنالك عن السفر اغتباطاً بعودي إليه فطلبت من السلطان صاحب مصر الشفاعة إليه لتخلية سبيلهم، فخاطبه في ذلك بما نصه.

بسم الله الرحمن الرحيم.

عبد الله وليه أخوه برقوق [....]

السلطان الأعظم، المالك الملك الظاهر، السيد الأجل، العالم العادل، المؤيد المجاهد، المرابط المثاغر، المظفر، الشاهنشاه، سيف الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، محيي العدل في العالمين، منصف المظلومين من الظالمين، وارث الملك، سلطان العرب والعجم والترك، إسكندر الزمان، مولي الإحسان، مملك أصحاب

التخوت والأسرة والتيجان، واهب الأقاليم والأقطار، مبيد الطغاة والبغاة والكفار، ملك البحرين، مسلك سبيل القبلتين، خادم الحرمين الشريفين، ظل اللّه في أرضه، القائم بسنته وفرضه، سلطان البسيطة مؤمن الأرض المحيطة، سيد الملوك والسلاطين، قسيم أمير المؤمنين، أبو سعيد برقوق ابن الشهيد شرف الدنيا والدين أبي المعالي أنس. خلد اللّه سلطانه، ونصر جيوشه وأعوانه - يخص الحضرة السنية السرية، المظفرة الميمونة، المنصورة المصونة، حضرة السلطان العالم، العادل المؤيد، المجاهد الأوحد، أبي العباس، ذخر الإسلام والمسلمين، عدة الدنيا والدين، قدوة الموحدين، ناصر الغزاة والمجاهدين، سيف جماعة الشاكرين، صلاح الدول. لا زالت مملكته بقوته عامرة، ومهابته لنفوس الجبابرة قاهرة، ومعدلته تبوئه غرفات العز في الدنيا والآخرة. سلام صفا ورده وضفا برده، وثناء فاح نده، ولاح سعده، ووداد زاد وجده، وجاد جده.

أما بعد حمد اللّه الذي جعل القلوب أجناداً مجندة، وأسباب الوداد على البعاد مؤكدة، ووسائل المحبة بين الملوك في كل يوم مجددة؛ والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد عبده ورسوله، الذي نصره اللّه بالرعب مسيرة شهر وأيده وأعلى به منار الدين وشيده، وعلى آله وأصحابه الذين اقتفوا طريقه وسؤدده، صلاة دائمة مؤبده.

فإننا نوضح لعلمه الكريم، أن اللّه - وله الحمد - جعل جبلتنا الشريفة مجبولة على تعظيم العلم الشريف وأهله، ورفعة شأنه، ونشر إعلامه، ومحبة أهله وخدامه، وتيسير مقاصدهم، وتحقيق أملهم، والإحسان إليهم، والتقرب إلى اللّه بذلك في السر والعلانية، فإن العلماء رضي اللّه عنهم ورثة الأنبياء وقرة عين الأولياء، وهداة خلق اللّه في أرضه؛ لا سيما من رزقه اللّه الدراية فيما علمه من ذلك، وهداه للدخول إليه من أحسن المسالك، مثل من سطرنا هذه المكاتبة بسببه: المجلس السامي، الشيخي، لأجلي، الكبيري، العالمي، الفاضلي، الأثيلي، الأثيري، الإمامي، العلامي القدوة، المقتدي، الفريدي، المحققي، الأصيلي، الأوحدي، الماجدي، الولوي، جمال الإسلام والمسلمين، جمال العلماء في العالمين، أوحد الفضلاء، قدوة البلغاء، علامة الأمة، إمام الأئمة، مفيد الطالبين، خالصة الملوك والسلاطين عبد الرحمن بن خلدون المالكي. أدام اللّه نعمته، فإنه أولى بالإكرام، وأحرى، وأحق بالرعاية وأجل قدراً، وقد هاجر إلى ممالكنا الشريفة، وآثر الإقامة عندنا بالديار المصرية، لا رغبة عن بلاده، بل تحبباً إلينا، وتقربا إلى خواطرنا، بالجواهر النفيسة، من ذاته الحسنة، وصفاته الجميلة، ووجدنا منه فوق ما في النفوس، مما يجل عن الوصف ويربي على التعداد. يا له من غريب وصف ودار، قد أتى عنكم بكل غريب؛ وما برح - من حين ورد علينا - يبالغ في شكر الحضرة العلية، ومدح صفاتها الجميلة، إلى أن استمال خواطرنا الشريفة إلى حبها، وآثرنا المكاتبة إليها.

والعين تعشق قبل الأذن أحيانا

وذكر لنا في أثناء ذلك، أهله وأولاده، في مملكة تونس تحت نظر الحضرة العلية، وقصد إحضارهم إليه ليقيموا عنده، ويجتمع شمله بهم مدة إقامته عندنا، فاقتضت آراؤنا الشريفة، الكتابة إلى الحضرة العلية لهذين السببين الجميلين، وقد آثرنا إعلام الحضرة العلية بذلك، ليكون على خاطره الكريم، والقصد من محبته، يقدم أمره العالي بطلب أهل الشيخ ولي الدين المشار إليه، وإزاحة أعذارهم، وإزالة عوائقهم، والوصية بهم، وتجهيزهم إليه مكرمين، محترمين، على أجمل الوجوه صحبة قاصده الشيخ الصالح، العارف السالك الأوحد، سعد الدين مسعود المكناسي، الواصل بهذه المكاتبة أعزه اللّه، ويكون تجهيزهم على مركب من مراكب الحضرة العلية، مع توصية من بها من البحرية بمضاعفة إكرام المشار إليهم ورعايتهم، والتأكيد عليهم في هذا المعنى، وإذا وصل من بها من البحرية، كان لهم الأمن والإحسان فوق ما في أنفسهم، ويربي على أملهم، بحيث يهتم بذلك على ما عهد من محبته، وجميل اعتماده، مع ما يتحف به من مراسلاته، ومقاصده ومكاتباته. واللّه تعالى يحرسه بملائكته وآياته، بمنه وبمنه إن شاء اللّه.

كتب خامس عشر صفر المبارك من سنة ست وثمانين وسبعمائة حسب المرسوم الشريف. الحمد لله وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

ثم هلك بعض المدرسين بمدرسة القمحية بمصر، من وقف صلاح الدين بن أيوب، فولاني تدريسها مكانه، وبينا أنا في ذلك، إذ سخط السلطان قاضي المالكية في دولته، لبعض النزعات فعزله، وهو رابع أربعة بعدد المذاهب، يدعى كل منهم قاضي القضاة، تمييزا عن الحكام بالنيابة عنهم، لاتساع خطة هذا المعمور، وكثرة عوالمه، وما يرتفع من الخصومات في جوانبه، وكبير جماعتهم قاضي الشافعية، لعموم ولايته في الأعمال شرقاً وغرباً، وبالصعيد والفيوم، واستقلاله بالنظر في أموال اليتامى والوصايا، ولقد يقال بأن مباشرة السلطان قديماً بالولاية إنما كانت تكون له.

فلما عزل هذا القاضي المالكي سنة ست وثمانين وسبعمائة اختصني السلطان بهذه الولاية تأهيلاً لمكاني وتنويهاً بذكري

وشافهته بالتفادي من ذلك، فأبى إلا إمضاءه وخلع علي بإيوانه وبعث من كبار الخاصة من أقعدني بمجلس الحكم بالمدرسة الصالحية بين القصرين، فقمت بما دفع إلي من ذلك المقام المحمود ووفيت جهدي بما أمنني عليه من أحكام الله، لا تأخذني في الله لومة، ولا يزغني عنه جاه ولا سطوة مسوياً في ذلك بين الخصمين، آخذاً بحق الضعيف من الحكمين، معرضاً عن الشفاعات والوسائل من الجانبين جانحاً إلى التثبت في سماع البينات، والنظر في عدالة المتصبين لتحمل الشهادات، فقد كان البر منهم مختلطاً بالفاجر، والطيب ملتبساً بالخبيث، والحكام ممسكون عن انتقادهم، متجاوزون عما يظهرون عليه من هناتهم، لما يموهون به من الاعتصام بأهل الشوكة فإن غالبهم مختلطون بالأمراء، معلمين للقرآن، وأئمة في الصلوات، يلبسون عليهم بالعدالة، فيظنون بهم الخير ويقسمون لهم الحظ من الجاه في تزكيتهم عند القضاء؛ والتوسل لهم، فأعضل داؤهم، وفشت المفاسد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم، ووقفت على بعضها فعاقبت فيه بموجع العقاب، ومؤلم النكال وتأدى إليّ العلم الجرح في طائفة منهم، فمنعتهم من تحمل الشهادة، وكان منهم كتاب الدواوين للقضاة والتوقيع في مجالسهم، قد تدربوا على إملاء الدعاوي وتسجيل الحكومات، واستخدموا للأمراء فيما يعرض لهم من العقود بإحكام كتابتها، وتوثيق شروطها، فصار لهم بذلك شغوف على أهل طبقتهم، وتمويه على القضاة بجاههم يدرعون به مما يتوقعونه من عتبهم، لتعرضهم لذلك بفعلاتهم، وقد يسلط بعضٌ منهم قلمه، على العقود المحكمة فيوجد السبيل إلى حلها بوجه فقهي أو كتابي، ويبادر إلى ذلك متى دعا إليه داعي جاهٍ أو منحة، وخصوصا في الأوقاف التي جاوزت حدود النهاية في هذا المصر لكثرة عوالمه، فأصبحت خافية الشهرة مجهولة الأعيان، عرضة للبطلان، باختلاف المذاهب المنصوبة للحكام بالبلد، فمن اختار فيها بيعا أو تمليكاً، شارطوه وأجابوه مفتاتين فيه على الحكام الذين ضربوا فيه سد الحظر والمنع حماية عن التلاعب، وفشا من ذلك الضرر في الأوقاف، وطرق الغرر في العقود والأملاك.

فعاملت الله في حسم ذلك بما آسفهم علي وأحقدهم، ثم التفت إلى أهل الفتيا بالمذهب، وكان الحكام منهم على جانب من الخبرة لكثرة معارضتهم، وتلقينهم الخصوم وفتياهم بعد نفوذ الحكم، وإذا فيهم أصاغر، فبينما هم يتشبثون بأذيال الطلب والعدالة، ولا يكادون إذا بهم ظفروا إلى مراتب الفتيا والتدريس، فاقتعدوها وتناولوها بالجزاف، وأجازوها من غير مثرب ولا منتقد للأهلية، ولا مرشح، إذ الكثرة فيهم بالغة، ومن كثرة الساكن مشتقة، وقلم الفتيا في هذا المصر طلق، وعنانها مرسل، يتجاذب كل الخصوم منها رسناً، ويتناول من حافته شقّاً، يروم به الفلج على خصمه، ويستظهر به لإرغامه، فيعطيه المفتي من ذلك ملء رضاه، وكفاء أمنيته متتبعاً إياه في شعاب الخلاف، فتتعارض الفتاوى وتتناقض، وبعظم الشغب إن وقعت بعد نفوذ الحكم، والخلاف في المذاهب كثير، والإنصاف متعذر وأهلية المفتي أو شهرة الفتيا ليس تميزها للعامي، فلا يكاد هذا المدى ينحسم ولا الشغب ينقطع.

فصدعت في ذلك بالحق وكبحت أعنة أهل الهوى والجهل، ورددتهم على أعقابهم. وكان فيهم ملتقطون سقطوا من المغرب يشعوذون بمفترق من اصطلاحات العلوم هنا وهناك، ولا ينتمون إلى شيخ مشهور، ولا يعرف لهم كتاب في فن قد اتخذوا الناس هزواً وعقدوا المجالس مثلبة للأعراض ومأبنة للحرم، فأرغمهم ذلك مني وملأهم حسداً، وحقداً علي، وخلوا إلى أهل جلدتهم من سكان الزوايا المتحلين للعبادة، ليشرون بها الجاه، ليجيروا به على الله، وربما اضطر أهل الحقوق إلى تحكيمهم، فيحكمون بما يلقي الشيطان على السنتهم، يترخصون به الإصلاح، لا يزعهم الدين عن التعرض لأحكام الله بالجهل، فقطعت الحبل، في أيديهم، وأمضيت حكم الله فيمن أجاروه، فلم يغنوا عن الله شيئاً وأصبحت زواياهم مهجورة، وبترهم التي يتماحون منها معطلة، وانطلقوا يراطنون السفهاء في النيل من عرضي، وسوء الأحدوثة عني بمختلق الإفك وقول الزور، ويبثونه في الناس ويدسون إلى السلطان التظلم مني، فلا يصغي إليهم، وأنا في ذلك محتسب عند الله، ما منيت به في هذا الأمر، ومعرض فيه عن الجاهلين، وماض على سبيل سوي من الصرامة وقوة الشكيمة، وتحري العدالة، وخلاص الحقوق، والتنكب عن خطة الباطل متى دعيت إليها، وصلابة العود عن الجاه والأغراض متى غمزني لامسها ولم يكن ذلك شأن من رافقته من القضاة فنكروه علي ودعوني إلى تبعهم فيما يصطلحون عليه من مرضاة الأكابر ومراعاة الأعيان، والقضاء للجاه بالصور الظاهرة، أو دفع الخصوم إذا تعذرت، بناء على أن الحاكم لا يتعين عليه الحكم مع وجود غيره، وهم يعلمون أن قد تمالأوا عليه.

وليت شعري! ما عذرهم في الصور الظاهرة إذا علموا خلافها، والنبي ﷺ يقول في ذلك: «من قضيت له من حق أخيه شيئاً فإنما أقضي له من النار».

فأبيت من ذلك كله إلا إعطاء العهدة حقها، والوفاء لها، ولمن قلدنيها، فأصبح الجميع علي ألباً ولمن ينادي بالتأفف مني

عوناً، وفي النكير علي أمة، وأسمعوا الشهود الممنوعين أن قد قضيت فيهم بغير الحق، لاعتمادي على علمي في الجرح، وهي قضية إجماع. وانطلقت الألسن، وارتفع الصخب وأرادني بعض على الحكم بغرضهم، فوقفت وأغروا بي الخصوم، فتنادوا بالتظلم عند السلطان، فجمع القضاة وأهل الفتيا في مجلس جعل للنظر في ذلك، فخلصت تلك الحكومة من الباطل خلوص الإبريز، وتبين أمرهم للسلطان، وأمضيت فيها حكم الله تعالى إرغاماً لهم، فغدوا على حرد قادرين، ودسوا الأولياء السلطان وعظماء الخاصة، يقبحون لهم إهمال جاههم ورد شفاعاتهم، موهمين بأن الحامل على ذلك جهل المصطلح، وينفقون هذا الباطل بعظائم ينسبونها إلي، تبعث الحليم وتغري الرشيد، يستثيرون حفائظهم علي ويشربونهم البغضاء إلي، والله مجازيهم ومسائلهم.

فكثر الشغب علي من كل جانب، وأظلم الجو بيني وبين أهل الدولة، ووافق ذلك مصابي بالأهل والولد، وصلوا من المغرب في السفين فأصابها قاصف من الريح فغرقت، وذهب الموجود والسكن والمولود، فعظم المصاب والجزع، ورجح الزهد، واعتزمت على الخروج عن المنصب، فلم يوافقني عليه النصيح ممن استشرته خشية من نكير السلطان وسخطه، فوقفت بين الورد والصدر وعلى صراط الرجاء واليأس، وعن قريب تداركني اللطف الرباني وشملتني نعمة السلطان - أيده الله - في النظر بعين الرحمة، وتخلية سبيلي من هذه العهدة التي لم أطق حملها، ولا عرفت - كما زعموا - مصطلحها، فردها إلى صاحبها الأول، وأنشطني من عقالها، فانطلقت حميد الأثر مشيعاً من الكافة بالأسف والدعاء وحميد الثناء، تلحظني العيون بالرحمة وتتناجى الآمال فيَّ بالعودة ورتعت فيما كنت راتعا فيه قبل من مراعي نعمته وظل رضاه وعنايته قانعاً بالعافية التي سألها رسول الله ﷺ من ربه عاكفاً على تدريس علم أو قراءة كتاب أو إعمال قلم في تدوين أو تأليف مؤملاً من الله قطع صبابة العمر في العبادة، ومحو عوائق السعادة، بفضل الله ونعمته.

السفر لقضاء الحج

ثم مكثت بعد العزل ثلاث سنين واعتزمت على قضاء الفريضة فودعت السلطان والأمراء وزودوا وأعانوا فوق الكفاية، وخرجت من القاهرة منتصف رمضان سنة تسع وثمانين وسبعمائة إلى مرسى الطور، بالجانب الشرقي من بحر السويس، وركبت البحر من هنالك عاشر الفطر ووصلنا إلى الينبع لشهر فوافينا المحمل، ورافقتهم من هنالك إلى مكة ودخلتها ثاني ذي الحجه، فقضيت الفريضة في هذه السنة. ثم عدت إلى الينبع فأقمت به خمسين ليلة حتى تهيأ لنا ركوب البحر، ثم سافرنا إلى أن قاربنا مرسى الطور، فاعترضتنا الرياح فما وسعنا إلا قطع البحر إلى جانبه الغربي، ونزلنا بساحل القصير ثم بذرقنا مع أعراب تلك الناحية إلى مدينة قوص قاعدة الصعيد فأرحنا بها أياماً ثم ركبنا في بحر النيل إلى مصر، فوصلنا إليها لشهر من سفرنا، ودخلتها في جمادى سنة تسعين وسبعمائة وقضيت حق السلطان في لقائه، وإعلامه بما اجتهدت فيه من الدعاء له، فتقبل ذلك (مني) بقبول حسن، وأقمت فيما عهدت من رعايته وظل إحسانه.

وكنت لما نزلت بالينبع لقيت بها الفقيه الأديب المتفنن أبا القاسم بن محمد بن شيخ الجماعة، وفارس الأدباء، ومنفق سوق البلاغة، أبي إسحاق إبراهيم الساحلي المعروف جده بالطويجن وقد قدم حاجّاً وفي صحبته كتاب رسالة من صاحبنا الوزير الكبير العالم كاتب سر السلطان ابن الأحمر صاحب غرناطة، الحظي لديه أبي عبد الله بن زمرك، خاطبني فيه بنظم ونثر يتشوق ويذكر بعهود الصحبة نصه:

سلوا البارق النجدي على عمل نجدي ... تبسم فاستبكى جفوني من الوجد
أجاد ربوعي باللوى، بورك اللوى ... وسح به صوب الغمائم من بعدي
ويا زاجري الأظعان وهي ضوامر ... دعوها ترد هيماً عطاشاً على نجد
ولا تنشقوا الأنفاس منها مع الصبا ... فإن زفير الشوق من مثلها يعدي
يراها الهوى بري القداح وخطها ... حروفاً على صفح من القفر ممتد
عجبت لها أني تجاذبني الهوى ... وما شوقها شوقي ولا وجدها وجدي
لئن شاقها بين العذيب وبارق ... مياه بفيء الظل للبان والرند
فما شاقني إلا بدور خدورها ... وقد لحن يوم النفر في قصب ملد
فكم في قباب الحي من شمس كلّة ... وفي فلك الأزرار من قمر سعد
وكم صارم قد سل من لحظ أحور ... وكم ذابل قد هز من ناعم القد
خذوا الحذر من سكان رامة إنها ... ضعيفات كر اللحظ تفتك بالأسد
سهام جفون من قسي حواجب ... يصاب بها قلب البريء على عمد
وروض جمال ضاع عرف نسيمه ... وما ضاع غير الورد في صفحة الخد
ونرجس لحظ أرسل الدمع لؤلؤا ... فرش بماء الورد روضاً من الورد
وكم غصن قد عانق الغصن مثله ... وكل على كل من الشوق ويستعدي
قبيح وداع قد جلا لعيوننا ... محاسن من روض الجمال بلا عد
رعى الله ليلى لو علمت طريقها ... فرشت لأخفاف المطي بها خدي
وما شافني والطيف يرهب أدمعي ... ويسبح في بحر من الليل مزبد
وقد سل خفاق الذؤابة بارق ... كما سل لماع الصقال من الغمد
وهزت محلاة يد الشوق في الدجى ... فحل الذي أبرمت للصبر من عقدي

وأفلق خفاق الجوانح نسمة ... تنم مع الإصباح خافقة البرد
وهب عليل لف طي برُوده ... أحاديث أهداها إلى الغور من نجد
سوى صادح في الأيك لم يدر ما الهوى ... ولكن دعا مني الشجون على وعد
فهل عند ليلى نعَّم اللّه ليلها ... بأن جفوني ما تمل من السهد
وليلة إذ وافى الحجيج إلى منى ... وفت لي المنى منها بما شئت من قصد
فقضيت - منها فوق ما أحسب - ... وبرد عفاف صانه اللّه من برد
وليس سوى لحظ خفي نجيله ... وشكوى كما ارفض الجمان من العقد
غفرت لدهري بعدها كل ما جنى ... سوى ما جنى وفد المشيب على فودي
عرفت بهذا الشيب فضل شيبتي ... وما زال فضل الضد يعرف بالضد
ومن نام في ليل الشباب ضلالة ... سيوقظه صبح المشيب إلى الرشد
أما والهوى ما حدت عن سنن الهدى ... ولا جرت في طرق الصبابة عن قصد
تجاوزت حد العاشقين الألى قضوا ... وأصبحت في دين الهوى أمة وحدي
نسيت وما أنسى وفائي لخلتي ... وأقفر ربع القلب إلا من الوجد
إليك أبا زيد شكاة رفعتها ... وما أنت من عمرو ولديّ ولا زيد
بعيشك خبرني وما زلت مفضلاً ... أعندك من شوق كمثل الذي عندي
فكم ثار بي شوق إليك مبرح فظلت ... يد الأشواق تقدح من زندي
وصفق حتى الريح في لمم الربى ... وأشفق حتى الطفل في كبد المهد
يقابلني منك الصباح بوجنة ... حكى شفقا فيه الحياء الذي تبدي
وتوهمني الشمس المنيرة غرة ... بوجهك صان اللّه وجهك عن رد
محياك أجلى في العيون من الضحى ... وذكرك أحلى في الشفاه من الشهد
وما أنت إلا الشمس في علو أفقها ... تفيدك من قرب وتلحظ من بعد
وفي عمة من لا ترى الشمس عينه ... وما نفع نور الشمس في الأعين الرمد
من القوم صانوا المجد صون عيونهم ... كما قد أباحوا المال ينهب للرفد
إذا ازدحمت يوماً على المال أسرة ... فما ازدهموا إلا مورد المجد
ومهما أغاروا منجدين صريخهم ... يشبون نار الحرب في الغور والنجد
ولم يقتنوا بعد البناء ذخيرة ... سوى الصارم المصقول والصافن النهد
وما اقتسم الأنفال إلا ممدح ... بلاها بأعراف المطهمة الجرد
أتنسى ولا تنسى ليالينا التي ... خلسنا بهن العيش في جنة الخلد
ركبنا إلى اللذات في طلق الصبا ... مطايا الليالي وادعين إلى حد
فإن لم ندر فيها الكؤوس فإننا ... وردنا بها للأنس مستعذب الورد
أتيتك في غرب وأنت رئيسه ... وبابك للأعلام مجتمع الوفد
فآنست حتى ما شكوت بغربة ... ووليت حتى لم أجد مضض الفقد
وعدت لقطري شاكراً ما بلوته ... من الخلق المحمود والحسب العد
إلى أن أجزت البحر يا بحر نحونا ... وزرت مزار الغيث في عقب الجهد
ألذ من النعمى على حال فاقة ... وأشهى من الوصل الهني على صد
وإن ساءني أن قوضت رحلك النوى ... وعوضت عنها بالذميل وبالوخد
لقد سرني أن لحت في أفق العلا ... على الطائر الميمون والطالع السعد
طلعت بأفق الشرق نجم هداية ... فجئت مع الأنوار فيه على وعد

يميناً بمن تسري المطي سواهماً ... عليها، سهام قد رمت هدف القصد
إلى بيته كيما تزور معاهدا ... أبان بها جبريل عن كرم العهد
لأنت الذي مهما دجا ليل مشكل ... قدحت به للنور واريةَ الزند
وحيث استقلت في ركاب لطية ... فأنت تحي النفس في القرب والبعد
وإني بباب الملك حيث عهدتني ... مديد ظلال الجاه مستحصف العقد
أجهز بالإنشاء كل كتيبة ... من الكتب والكتاب في عرضها جندي
نلوذ من المولى الإمام محمد ... بظل على نهر المجرة ممتد
إذا فاض من يمناه بحر سماحة ... وعم به الطوفان في النجد والوهد
ركبنا إلى الإحسان في سفن الرجا ... بحور عطاء ليس تجزر عن مد
فمن مبلغ الأمصار عني الوكة ... مغلغلة في الصدق منجزة الوعد
بآية ما أعطى الخليفة ربه ... مفاتيح فتح ساقها سائق السعد
ودونك من روض المحامد نفحة ... تفوت إذا اصطف الندي عن الند
ثناء يقول المسك إن ضاع عرفه ... أيا لك من ند أما لك من ند
وما الماء في جوف السحاب مروقا ... بأطهر ذاتاً منك في كنف المهد
فكيف وقد حلتك أسرابها الحلى ... وباهت بك الأعلام بالعلم الفرد
وما الطل في ثغر من الدهر باسم ... بأصفى وأذكى من ثنائي ومن ودي
ولا البدر معصوباً بتاج تمامه ... بأبهر من ودي وأسير من حمدي
بقيت ابن خلدون إمام هداية ... ولا زلت من دنياك في جنة الخلد

ووصلها بقوله: سيدي علم الأعلام، كبير رؤساء الإسلام، مشرف حملة السيوف والأقلام، جمال الخواص والظهراء، أثير الدول، خالصة الملوك، مجتبى الخلفاء، نيِّر أفق العلاء أوحد الفضلاء، قدوة العلماء، حجة البلغاء.

أبقاكم اللّه بقاء جميلاً، يعقد لواء الفخر، ويعلي منار الفضل، ويرفع عماد المجد، ويوضح معالم السؤدد، ويرسل أشعة السعادة، ويفيض أنوار الهداية، ويطلق ألسنه المحامد، وينشر أفق المعارف، ويعذب مورد العناية، ويمتع بعمر النهاية ولا نهاية.

بآي التحيات أفاتحك وقدرك أعلى، ومطلع فضلك أوضح وأجلى، إن قلت تحية كسري فى السناء وتبع، فأثر لا يقتفر ولا يتبع، تلك تحية عجماء لا تبين ولا تبين، وزمزمة نافرها اللسان العربي المبين، وهذه جهالة جهلاء، لا ينطبق على حروفها الاستعلاء، قد محا رسومها الجفاء، وعلى آثار دمنتها العفاء، وإن كانت التحيتان طالما أوجف بهما الركاب وقعقع البريد، ولكن أين يقعان مما أريد.

تحية الإسلام آصل في الفخر نسباً. وأوصل بالشرع سبباً، فالأولى أن تحييك بما حيا اللّه في كتابه رسله وأنبياءه، وحيت به ملائكته في جواره أولياءه، فأقول:

السلام عليكم يرسل من رحمات اللّه غماماً ويفتق من

الطروس عن أزهار المحامد كماما، ويستصحب من البركات ما يكون على الذي أحسن من ذلك تماماً، وأجدد السؤال عن الحال الحالية بالعلم والدين المستمدة من أنوارها سرج المهتدين. زادها الله صلاحاً وعرفها نجاحاً يتبع فلاحاً، وأقر ما عندي من تعظيم ارتقي كل آونة شرفه، واعتقاد جميل يرفع عن وجه البدر كلفه، وثناء، أنشر بيد الترك صحفه، وعلى ذلك أيها السيد المالك، فقد تشعبت علي في مخاطبتك المسالك، إن أخذت في تقرير فخرك العميم، وحسبك الصميم، فو الله ما أدري بأي ثنية للفخر ترفع العلم، وفي أي بحر من ثنائك يسبح القلم، الأمر جلل، والشمس تكبر عن حلي وعن حلل، وإن أخذت في شكاة الفراق، والاستعداء على الأشواق اتسع المجال، وحصرت الروية والارتجال، فالأولى أن أترك عذبة اللسان تلعب بها رياح الأشواق وأسلة اليراع، تخضب مفارق الطروس بنجيع الحبر المراق، وغيرك من تركض في مخاطبته جياد اليراع، في مجال الرقاع، مستولية على أمد الإبداع والاختراع، فإنما هو بث يبكي، وفراق يشكي، فيعلم الله حرصي عن أن أشافه من أنبائك ثغور البروق البواسم، وأن أحملك الرسائل حتى مع سفراء النواسم، وأن أجتلي غرر ذلك الجبين في محيا الشارق، ولمح البارق.

ولقد وجهت إليك جملة من الكتب والقصائد، ولا كالقصيدة الفريدة في تأبين الجواهر اللائي استأثر بهن البحر، قدس الله أرواحهم، وأعظم أجرك فيهم، فإنها أنافت على مائة وخمسين بيتاً، ولا أدري هل بلغكم ذلك أم غاله الضياع، وغدر وصوله بعد المسافة، والذي يطرق لي سوء الظن بذلك ما صدر في مقابلته منكم. فإني على علم من كرم قصدكم وحسن عهدكم.

ومن حين استقل نيركم بذلك الأفق الشرقي لم يصلني منكم كتاب، مع علمي بضياع اثنين منهما بهذا الأفق الغربي انتهى.

وفي الكتاب إشارة إلى أنه بعث قصيدة في مدح الملك الظاهر صاحب مصر، ويطلب مني رفعها إلى السلطان، وعرضها عليه بحسب الإمكان، وهي على روي الهمزة ومطلعها:

امدامـــع منهلـــة أم لؤلـــؤ لمـا استهل العارض المتلألـئ

وبعثها في طي الكتاب، واعتذر بأنه استناب في نسخها، فكتبت همزة رويها ألفاً، قال: وحقها أن تكتب بالواو لأنها تبدل بالواو وتسهل بين الهمزة والواو، وحرف الإطلاق أيضا يسوقها، واواً، هذا مقتضى الصناعة، وإن قال بعض الشيوخ: كتب ألفاً على كل حال على لغة من لا يسهل لكنه ليس بشيء.

وأذن لي في نسخ القصيدة المذكورة بالخط المشرقي لتسهل قراءتها عليهم ففعلت ذلك، ورفعت النسخة والأصل للسلطان، وقرأها كاتب سره عليه ولم يرجع إلي منهما شيء، ولم أستجز أن أنسخها قبل رفعها إلى السلطان، فضاعت من يدي.

وكان في الكتاب فصل عرفني فيه بشأن الوزير مسعود بن رحو المستبد بأمر المغرب لذلك العهد، وما جاء به من الانتقاض عليهم، والكفران لصنيعهم، يقول فيه:

كان مسعود بن رحو الذي أقام بالأندلس عشرين عاماً يتبنك النعيم ويقود الدنيا ويتخيّر العيش والجاه، قد أجيز صحبة ولد أبي عنان كما تعرفتم من نسخة كتب أنشائه بجبل الفتح لأهل الحضرة، فاستولى على المملكة، وحصل على الدنيا، وانفرد برياسة دار المغرب لضعف السلطان رحمه الله. ولم يكن إلا أن كفرت الحقوق، وحنظلت نخلته السحوق، وشف على سواد جلدته سواد العقوق، وداخل من بسبته، فانتقضت طاعة أهلها، وظنوا أن القصبة لا تثبت لهم، وكان قائدها الشيخ البهمة فل الحصار وحلي القتال، ومحش الحرب أبو زكريا بن شعيب، فثبت للصدمة ونور للأندلس، فبادره المدد من الجبل ومن مالقة، وتوالت الأمداد وخاف أهل البلد، ورجع شرفاؤه ودخلوا القصبة. واستغاث أهل البلد بمن جاورهم، وجاءهم المدد أيضاً، ثم دخل الصالحون في رغبة هذا المقام، ورفع القتال، وفي أثناء ذلك غدروا ثانية، فاستدعى الحال إجازة السلطان المخلوع أبي العباس لتبادر القصبة به ويتوجه منها إلى المغرب لرغبة (بني) مرين وغيرهم فيه، وهو ولد السلطان المرحوم أبي سالم الذي قلدكم رياسة داره، وأوجب لكم المزية على أوليائه وأنصاره.انتهى.

وبعده فصل آخر يطلب فيه كتباً من مصر يقول فيه:

والمرغوب من سيدي أن يبعث لي ما أمكن من كلام فضلاء الوقت وأشياخهم على ألفاتحة، إذ لا يمكن بعث تفسير كامل لأني أثبت في تفسيرها ما أرجو النفع به عند الله، وقد أعلمتكم أن عندي التفسير الذي أوصله إلى المغرب عثمان التجاني من تأليف الطيبي والسفر الأول من تفسير أبي حيان، وملخص إعرابه وكتاب المغني لابن هشام، وسمعت عن بداءة تفسير للإمام بهاء الدين ابن عقيل ووصلت إلي بداءة من كلام أكمل الدين الأشيري رضي الله عن جميعهم، ولكني لم أصل إلا للبسملة، وذكر أبو حيان في صدر تفسيره أن شيخه سليمان النقيب أو أبا سليمان لا أدري الآن صنف كتاباً في البيان في سفرين جعله مقدمة لكتاب تفسيره الكبير. فإن أمكن سيدي توجيهه لا بأس انتهى.

وفي الكتاب فصول أخرى في أغراض متعددة لا حاجة إلى ذكرها هنا. ثم ختم الكتاب بالسلام، وكتب اسمه: محمد بن يوسف بن زمرك الصريحي، وتاريخه العشرون من محرم سنة تسع وثمانين وسبعمائة.

وكتب إلي قاضي الجماعة بغرناطة أبو الحسن علي بن الحسن البني:

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله يا سيدي وواحدي ودّاً وحبّاً، ومحيي الروح بعداً وقرباً أبقاكم الله وثوب سيادتكم سابغ، وقمر سعادتكم - كلما أفلت الأقمار - بازغ، أسلم بأتم السلام عليكم، وأقرر بعض ما لدي من الأشواق إليكم، من حضرة غرناطة - مهدها الله - عن ذلك لكم يتضوع طيبه وشكر لا يذوي - وإن طال الزمان - رطيبه قد كان بلغ ما جرى من تأخيركم عن الولاية التي تقلدتم أمرها، وتحملتم مرها، فتمثلت بما قاله شيخنا أبو الحسن بن الجياب عند انفصال صاحبه الشريف أبي القاسم، عن خطة القضاء.

لا مرحباً بالناشز الفارك ... إذ جهلت رفعة مقدارك
لو أنها قد أوتيت رشدها ... ما برحت تعشو إلى نارك

ثم تعرفت كيفية انفصالكم وأنه كان عن رغبة من السلطان المؤيد هنا لكم فرددت - وقد توهمت مشاهدتكم - هذه الأبيات:

لك الله يا بدر السماحة والبشر ... لقد حزت في الأحكام منزلة الفخر
ولكنك استعفيت عنها تورعا ... وتلك سبيل الصالحين كما تدري
جريت على نهج السلامة في الذي ... تخيرته أبشر بأمنك في الحشر
وحقق بأن العلم ولاك خطة ... من العز لا تنفك عنها مدى العمر
تزيد على مر الجديدين جدة ... وتسري النجوم الزاهرات ولا تسري
ومن لاحظ الأحوال وازن بينها ... ولم ير للدنيا الدنية من خطر
وأمسى لأنواع الولايات نابذاً ... فغير نكير أن تواجه بالنكر
فهنيئك يهنيك الذي أنت أهله ... من الزهد فيها والتوقي من الوزر
ولا تكترث من حاسديك فإنهم ... حصى والحصى لا يرتقي مرتقى البدر
ومن عامل الأقوام بالله مخلصاً ... له منهم نال الجزيل من الأجر
بقيت لربع الفضل تحمي ذماره ... وخار لك الرحمن في كل ما يجري

إيه سيدي رضي الله عنكم وأرضاكم، أطنبتم في كتابكم في الثناء على السلطان الذي أنعم بالإبقاء، والمساعدة على الانفصال عن خطة القضاء، واستوهبتم الدعاء له ممن هنا الأولياء و لله دركم في التنبيه على الإرشاد إلى ذلكم، فالدعاء له من الواجب فيه استقامة الأمور وصلاح الخاصة والجمهور، وعند ذلك ارتفعت أصوات العلم والصلحاء بهذا القطر له ولكم بجميل الدعاء. أجاب الله فيكم أحسنه وأجمله، وبلّغ كل واحد منكم ما قصده وأمله. وأنتم أيضا من أهل العلم والجلالة، والفضل والأصالة، وقد بلغتم بهذه البلاد الغاية من التنويه، والحظ الشريف النبيه، لكن أراد الله سبحانه أن يكون لمحاسنكم في تلك البلاد العظيمة ظهور، وتحدث بعد الأمور أمور، وبكل اعتبار، فالزمان بكم - حيث كنتم- مباه، والمحامد مجموعة لكم جمع تناه. ولما وقف على مكتوبكم إلي مولانا السلطان أبو عبد الله، أطال الله الثناء على مقاصدكم، وتحقق صحيح ودادكم، وجميل اعتقادكم، وعمر مجلسه يومئذ بالثناء عليكم، والشكر لما لديكم.

ثم ختم الكتاب بالسلام من كاتبه علي بن عبد الله بن الحسن مؤرخاً بصفر سنة تسعين وسبعمائة

وفي طيه مدرجة بخطه وقد قصر فيها عن الإجادة نصها:

سيدي رضي الله عنكم وأرضاكم، وأظفر يمناكم بذوائب مناكم

أعتذر لكم عن الكتاب المدرج هذا طيُّه بغير خطي فإني في ذلك الوقت بحال مرض في عيني، ولكم العافية الواقية، فيسعني سمحكم وربما كان لديكم شوقاً لما نزل في هذه المدة بالمغرب من الهرج أحاطه الله، وأمن جميع بلاد المسلمين.

والموجب أن الحصة الموجهة في خدمة أميرهم الواثق ظهر له ولوزيره ومن ساعده على رأيه إمساكها رهينة، وجعله في القيود إلى أن يقع الخروج لهم على مدينة سبتة، وكان القائد على هذه الحصة العلج المسمى مهند، وصاحبه الفتى المدعو نصر الله وكثر التردد في القضية إلى أن أبرز القدر توجيه السلطان أبي العباس - تولاه الله- صحبة فرج بن رضوان بحصة ثانية، وكان ما كان حسبما تلقيتم من الركبان، هذا ما وسع الوقت من الكلام ثم دعا وختم.

وإنما كتبت هذه الأخبار وإن كانت خارجة عن غرض هذا التعريف؛ الكتاب لأن فيها تحقيقا لهذه الواقعات، وهي مذكورة في أماكنها من الكتاب فربما يحتاج الناظر إلى تحقيقها من هذا الموضع.

وبعد قضاء الفريضة رجعت إلى القاهرة محفوفا بستر الله ولطفه، ولقيت السلطان، فتلقاني - أيده الله - بمعهود مبرته وعنايته وكانت فتنة الناصري بعدها سنة إحدى وتسعين وسبعمائة ولحقت السلطان النكبة التي تحصها ا لله فيها وأقاله، وجعل إلى الخير فيها عاقبته ومآله، ثم أعاده إلى كرسيه للنظر في مصالح عباده، فطوّقه القلادة التي ألبسه كما كانت، فأعاد لي ما كان أجراه من نعكته، ولزمت كسر البيت ممتعاً بالعافية لابساً برد العزلة، عاكفاً على قراءة العلم وتدريسه لهذا العهد فاتح سبع